صفحات مضيئة ونماذج رائعة من

حياة الصحابة

للفتية والفتيات

محمد الدسوقى

دار الطلائع

مع الفاروق عمر بن الخطاب

مع الخليفةِ الثاني عُمرَ بنِ الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نحيا! وهل هناك أجملُ من أن نقضىَ بعضَ الوقت مع مَن كان عدوًّا للإسلام فأصبح بين غَمضَة عين وانتباهتها ناصرَ الإسلام، وأصبح المسلمون أعزةً منذ أسلم عمر حيث فرقَ اللَّهُ به بين الحق والباطل ولقّبَه الرسولُ ﷺ «بالفاروق[1]؟!».

ولم يزل اسمُه عمرَ في الجاهلية والإسلام.

فاسمُه عمر.. ولقبُه الفاروقُ.. حتى إذا كان يومُ بدر أصبحت له «كُنْية» إلى جانب اسمِه ولَقبِة فإذا هو: «أبو حَفْصٍ عمر» والحَفْصُ الأسد.. وهو الفاروق.. وهو أبو حفص..

وكان النبيُّ ﷺ يتوقع الخيرَ للمسلمين بإسلامِ واحدٍ من اثنين كان لهما موقفٌ عِدائى من الإسلام والمسلمين، هما:

عُمر بن الخطاب، وعَمْرُو بن هشام (أبو جهل).

ولهذا كانت دعوتُه المستجابة:

«اللهم أعزَّ الإسلام بأحب الرجلين إليك[2]»

عُمر بن الخطاب، أو عَمْرِو بن هشام، يعنى أبا جهل.

فاستجاب اللّهُ دعاءَه، وأعزّ الإسلام بأحبِّ الرجلين إليه.. وهو السعيد الموَفّق عمرُ بنُ الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكان ذلك في ذي الحجة بعد سِتِّ سنواتٍ من البَعثَةِ النَّبَويّة.

وقد بلغ من السِّنِّ ستةً وعشرين عامًا.

لقد كان له شأنُه في الجاهلية فهو قُرَشِيٌّ أبًا وأُمًّا.. وهو يلتقى مع النبى ﷺ في الجَدِّ السّابع من نَسبِه الطاهر!

(1) ابن الجوزيّ – في سيرة عمر.

(2) المصدر السابق في ذكر دعاء الرسول أن يعز الإسلام به.

وهو سفيرُ قريشٍ والمتحدثُ باسمِها.. فإذا وقعت حربٌ بينها وبينَ غيرِها من القبائل بَعثوهُ سَفِيرًا..

وإذا نافرَهم[1] أو فاخرَهم حيٌّ من أحياءِ العربِ كان عمرُ هو المنافر والمُفَاخِر عنهم، والمتحدثُ الرّسْمِيُّ باسمهم!

الجميع يعرفونَ فيه الشدةَ والصّلابة لا يجرؤ أحد أن يَدُوسَ حِماه[2]!

فلما بُعث الرسول ﷺ حَمَلت قريشٌ له العداوةَ، وحاولت الوقوفَ في وجهِ رسالتِه بكلِّ الوسائلِ والطُّرقِ..

وحَمَلَ عمرُ العِبْء الأكبرَ من العداوةِ الصريحة للإسلام والمسلمين وعاونه في ذلك أبو جَهلٍ عَمْرُو بن هشام خالُه!

ولقى المسلمون منهما الأَمَرَّيْن!

ولهذا كان دعاءُ الرسولِ ﷺ .. وكانت إجابةُ اللَّهِ لهذا الدعاءِ بهدايةِ عُمَرَ وإسلامِه!

فكان إسلامُه فتحًا.. وهجرتُه نَصْرًا.. وإمارتُه رحمةً!

وروى عن ابنِ عباسٍ[3] أنه قال:

لما أسلم عمرُ، قال المشركون: قد انتصف القوم[4] منا!!

وأنزل اللَّه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأنفال : 64].

ولإسلامه قصة عجيبة أخرجها الحافظُ الجزَرِيّ في «أُسْدِ الغابة» عن أسامةَ ابن زيدٍ عَنْ أبيه.. قال:

قال لنا عُمَرُ بنُ الخَطّابِ: أتحبون أن أُعْلِمَكُم كيف كان بدءُ إسلامى؟

قلنا: نعم. قال:

---

(1) نافرهم: خاصمهم وفاخرهم.

(2) الحِمَى: ما يجب على الإنسان أن يحميه من مال وأرض وعرض.

(3) أسباب النزول للسيوطى. أخرجه الطبرانى وغيره.

(4) أخذوا حقهم وانتقموا منا.

«كنت من أشدِّ الناسِ على رسول اللَّهِ ﷺ فبينا أنا في يوم شديدِ الحر بالهاجرة[1] في بعضِ طُرقِ مكةَ، إذ لقيني رجلٌ من قريشٍ فقال: أين تذهبُ يا بنَ الخطاب؟

إنك تزعُمُ أنك هكذا، وقد دخل عليك هذا الأمرُ في بيتِك!!

قلت: وماذاك؟

قال: أختُك قد صَبَأَتْ[2]!

فَرَجَعْتُ مُغْضَبًا!

وقد كان رسولُ اللَّهِ ﷺ يجمعُ بين الرجلِ والرجلين إذا أسلما عند الرجل بهِ قُوّة، فيكونانَ معه، ويُصيبان[3] من طعامه!

وقد كان ضمَّ إلى زوجِ أختى رجلين.. فجئتُ حتى قرعْتُ البابَ، فقيل: من هذا؟!

قلت: ابنُ الخَطّاب.

وكان القومُ جلوسًا يقرءون القرآن من صحيفةٍ معهم، فلما سمعوا صوتى تبادروا[4] واختفَوْا!!

وتركوا، أو نَسُوا الصحيفة من أيديهم!

فقامت المرأةُ ففتحت لى.. فقلت:

يا عدُوّةَ نفسِها، قد بلغنى أنك صَبْوتِ! (تركتِ دينَك).

فأرفعُ شيئًا في يدى، فأضربُها فسال الدمُ!

فلما رأتِ الدمَ بكَتْ، ثم قالت؛

يابنَ الخطاب، ما كنتَ فاعلًا فافعلْ، فقد أسلمتُ!

فدخلتُ وأنا مُغضَب، فجلستُ على السَّرِيرِ..

---

(1) الهاجرة : نصف النهار عند اشتداد الحر.

(2) صبأت: تركت دينها ودانت بآخر.

(3) يأكلان.

(4) تسارعوا.

فنظرتُ، فإذا بكتاب في ناحيةِ البيت، فقلت: ما هذا الكتاب؟ أعطينيه، فقالت:

لا أُعطيكَ، لستَ من أهلِه .. أنت لا تغتسلُ من الجنَابة[1].. ولا تَطَّهَّر.. وهذا لا يمَسُّه إلا المطَهَّرون!

فلم أزَلْ بها حتى أعطَتْنيه، فإذا فيه:

«بسم اللَّه الرحمن الرحيم»!

فلما مررت بالرحمن الرحيم ذُعِرْت[2]، ورَمَيْتُ بالصحيفة من يدى.

ثم رجعتْ إلىَّ نفسى، فإذا فيها:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحديد: 1].

فكلما مررت باسم من أسماء الله - عَزّ وجَلّ - زُعِرْتُ، ثم ترجعُ إلىّ نفس حتى بلغتُ قولَه تعالى:

﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: 7]. حتى بلغت إلى قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الحديد: 8].

فقلت: أشهدُ أن لا إله إلا اللَّهُ..

وأشهدُ أن محمدًا رسولُ اللَّه..

فخرج القومُ يتبادرون[3] بالتكبير استبشارًا بما سمعوه منى، وحَمِدوا اللَّه -عزَّ وجَلَّ- ثم قالوا: يا بن الحطاب، أبْشِرْ، فإن رسولَ اللَّه ﷺ دعا يوم الإثنين فقال: «**اللهمَّ أَعِزّ الإسلامَ بأحدِ الرجلين: إمّا عَمْرِو بنِ هشام، وإما عُمَرَ بن الخطاب!**».

وإنا نرجو أن تكون دعوةُ رسول اللَّه ﷺ لك فأبشِرْ!

فلما عَرفوا مِنى الصدقَ قلت لهم:

أخبرونى بمكان رسول الله ﷺ، فقالوا:

---

(1) من الحدث الأكبر.

(2) خفت وفزعت.

(3) يتبادرون: يتسارعون.

هو في بيت أسفلَ[1] الصفا، وصفوه، فخرجت حتى قرعتُ الباب!

قيل: من هذا؟

قلت: ابنُ الخطّاب، وقد عرَفوا شِدَّتى على رسولِ ﷺ، ولم يعلَموا بإسلامى!

فما اجترأ أحدٌ منهم أن يفتحَ البابَ!

فقال رسولُ اللَّه ﷺ: «**افتحوا له فإنه إنْ يُرِدِ اللَّهُ به خيرًا يَهْدِهِ**».

ففتحوا لى، وأخذ رجلانِ بعَضُدَىَّ[2] حتى دنوتُ من رسول اللَّه ﷺ فقال: أرسِلُوه، فأرسَلُونى، فجلستُ بين يَدَيْهِ.. فأخذ بجُمْع قميصى[3] فجذبنى إليه ثم قال: «**أسلم يا بن الخطاب، اللهم اهده**». قلت: **أشهد أن لا إلهَ إلَّا اللَّه، وأنك رسولُ اللَّه!**

فكبّر المسلمون تكبيرةً سُمِعَتْ بطُرُقَاتِ مكةَ، وكانوا قبلَ ذلك مُسْتَخْفِينَ!

ثم خرجْتُ فكنت لا أشاءُ أن أرى رجلًا أسْلَمَ يُضْرَب إلا رأيتُه، فلما رأيتُ ذلكَ قلت:

لا أحبُّ إلا أن يُصيبنى مثلُ ما يُصيبُ المسلمين، فذهبت إلى خالى (يعنى أبا جهل بن هشام) وكان شريفا فيهم، فقرعتُ عليه البابَ، فقال:

من هذا؟ فقلت: ابنُ الخَطّاب.

فخرج إلىّ، فقلتُ له:

أشعَرْتَ[4] بأنى صبوْتُ؟!

قال: فعلتَ؟ فقلت: نعم. قال: لا تَفْعَلْ.

قلت: بَلَى قد فعلتُ. قال: لا تَفْعَلْ.

فأجاف[5] البابَ دونى وتركَنِى!

---

(1) دار الأرقم بن الأرقم.

(2) العضُد: ما بين المرفق إلى الكتف.

(3) بجمع قميصى: بمجتمعه.

(4) أشعرت: أعلمتَ؟

(5) ردّه.

فلما رأيتُ ذلك انصرفتُ.

فقال لى رجلٌ: تحب أن يُعلَم إسلامُك؟

قلت: نعم.

قال: فإذا جلسَ الناسُ في الحِجْر[6]،واجتمعوا أتيتَ رجلا لم يكن يكتمُ السِّرَّ فاصْغَ إليه، وقل له فيما بينك وبينه:

إنى صَبَوْتُ فإنه سوف يَظْهَرُ عليه ويصيحُ ويعلنُه.

فاجتمع الناسُ في الحِجر، فجئت الرجلَ فدَنَوْتُ منه، فأصغَيْتُ إليه فيما بينى وبينَه فقلتُ:

أَعَلِمْتَ أنى صَبَوْتُ؟!

فقال: ألا إن عمرَ بنَ الخطاب قد صَبَا، فما زالَ الناسُ يضربوننى وأضرِبُهم، فقال خالى:

ما هذا؟ فقامَ علَى الحِجْر، فأشار بكُمِّه، فقال: أَلَا إنى قد أَجرْتُ ابنَ أختى!

فانكشفَ الناسُ عنى، وكنت لا أشاء أن أَرَى أحدًا من المسلمين يُضْرَبُ إلا رأيتُه وأنا لا أُضْرَب!

فقلت: ما هذا بشيء حتى يُصيبَنى ما يُصيبُ المسلمين، فأَمْهَلْتُ حتى إذا جلسَ الناسُ في الحِجْرِ، وصلتُ إلى خالى، فقلت:

اسمعْ، فقال: ما أسمعُ؟

قلت: جِوارُك عليك رَدٌّ[7].

قال: لا تفعلْ يا بنَ أختى.

قلت: هو ذاك.

فقال: ما شئتَ.

قال: فمازلت أُضرَبُ وأَضْرِبُ حتى أعزَّ اللَّهُ الإسلام»!!

(6) جانب الكعبة من جهة الشمال.

(7) لست في حاجة إلى من يحمينى.

ولقد ظل عمر بعد إسلامه قَوِيَّ الجرأة.. شديد الوَطْأة على المشركين.. حتى أَذِنَ اللَّهُ بالهجرةِ لرسولِ اللَّه وأصحابه فجعلوا يُهاجرون مُسْتَخْفين إلا عمرَ بنَ الخطاب، فَإنه لما هَمَّ بالهجْرةِ، تقلّدَ سيفَه، وتنَكَّبَ قوسه[1]، وانْتَضَى[2] في يده أسهما، واختصر عَنَزَته[3]، ومضى قِبَل الكعبة، والمَلأُ من قريش بفِنائها، فطاف بالبيتِ سبعًا، ثم أتى المَقَامَ[4] واحدة واحدة وقال لهم: شاهَتِ[5] الوجوهُ، لا يُرْغِمُ اللَّه إلا هذه المعاطِسَ[6]، من أراد أن تَثْكلَه[7] أمه، أو يَيْتَمَ ولدُه، أو تَرْمَلَ زوجتُه، فلْيَتبعنى وراء هذا الوادى!».

فلم يتبعْه أحد!

وهكذا ينبغى أن يكون المؤمنُ قويا في اللَّه وباللَّهِ!

وجعل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد الهجرة بذودُ عن الحق، ويصولُ على الباطل، ويُنَافِحُ عن الرسول ﷺ!، ولقد صدق عبدُ اللَّهِ بن سَلَام في وصفِه له بقوله:

«نِعْمَ أخو الإسلام كنتَ يا عُمَرُ!

جَوَادًا بالحق، بخيلًا بالباطل!

ترضَى حينَ الرضا، وتغضَبُ حين الغضب..

عَفِيفَ الطَّرْف، طيّبَ الظَّرْف

لم تكن مَدّاحًا، ولا مُغتابا!».

وهذه هى أخلاق الإسلام!

---

(1) ألقاه على منكبه.

(2) أخرجها وحملها في يده.

(3) العنزة – بفتح العين والنون – أطول من العصا وأقصر من الرمح في أسفلها زُج. واختصرها: أمسك بها.

(4) موضع قدمى سيدنا إبراهيم عند قيامه لبناء الكعبة.

(5) جمع حلقة وهى القوم يجلسون في دائرة.

(6) قبحت.

(7) المعاطس: الأنوف ويرغمها: يذلها.

نعم ظلّ عمرُ بعدَ الهجرة يذودُ عن الحقّ، ويصولُ على الباطل، وينافحُ عن الإسلام!

نعم ظلّ عمرُ بعدَ الهجرة يذودُ عن الحقّ، ويصولُ على الباطل، وينافحُ عن الإسلام!

حتى كان مضربَ المثل في الشجاعةِ والبأسِ، وحُسْنِ الصُّحبة والوفاءِ للصادقِ الأمين ﷺ.

وشهد معه كلَّ غزَواته، وكان هو وأبو بكر بمنزلة الوزيرين له!

ولما لحق الرسولُ ﷺ بربّه كان لعمرَ أكبرُ الفضلِ في الإسراع ببيعة أبي بكر حَسْمًا للنزاعِ في أمرِ الخلافةِ، وخَوْفًا من أن يتشتَّتَ الأمرُ، ويتفرقَ الرأيُ.

وكان لأبى بكرٍ بمنزلةِ الوزيرِ الأولِ، يُشيرُ عليه يُعينه، وكان أبو بكر يُحيل عليه فصلَ القضايا، فكأنه كان قاضيَه.

ولما مرض أبو بكرٍ، وأحسّ باقتراب أجلِه رأى أن ينتخبَ خليفتَه قبل موتِه، ورأى أن عمرَ لذلك أهلٌ ولكنه أحب أن يستشيرَ فيه كبارَ الصحابةِ، فدعا بعبدِ الرحمنِ بنِ عَوْفٍ، وقال له:

أَخبِرْنى عن عمرَ، فقال:

يا خليفةَ رسولِ اللَّه ، هو - واللَّه - أفضلُ من رأيِك فيه!

ولكنّ فيه غِلْظَة!

فقال أبو بكر: ذلك لأنَّه يَرانى رقيقًا، ولو أفضى الأمرُ إليه لترك كثيرا مما هو عليه!

ثم دعا بعثمانَ فقال:

يا أبا عبدِ اللَّه؛ أَخْبِرْنى عن عمرَ، قال:

اللهمّ عِلمى به أن سَرِيرَتَه خيرٌ من عَلانِيتِه، وأنْ لَيسَ فينا مثلُه.

واستشار غيرَهما، ولما اطمأن إلى المشورةِ عَهِدَ إلى عمرَ بالخلافةِ من بعده.

وتُوُفّى أبو بكر سنة 13 من الهجرة في الثاني والعشرين من جمادى الثانية وأصبح عمر خليفةً من بعده!

فبسط ظلّ الإسلام على كثيرٍ من الأقطار، ونصرَ الحقَّ والعدلَ، وسَهرَ على مصالحِ الرعية بعطف وإخلاص وإيمانٍ، وسار في الناسِ سيرةً رشيدةً مُنقطعةَ النَّظيرِ في سياسةِ الدين والدنيا جعلته سَيِّدَ العادلين، وإمامَ العباقرة من الحكام.

وقد ظل في خلافته المثلَ الأعلى للحكم إلى أن مات شهيدًا بطعنة من الشقيِّ «أبى لؤلؤة المجوسى» غلام «المُغيرةِ بن شعبةَ» بعد أن قضى في الخلافةِ عشرَ سنواتٍ، وستةَ أشهر، وثمانيةَ أيام.

ومن يُقَلِّبْ صفحاتِ التاريخِ يرى له أولياتٍ لم تكن لغيره..

فهو أولُ من وَضَع التاريخَ الإسلاميَّ الهجرى.

وكان أولَ من مَصّر المدُنَ[1]؛ مصّر الكوفة، والبصرة والجزيرة، وأنزل فيها العرب.

وهو أولُ من تَلقّبَ بأمير المؤمنين.

وهو أولُ من دوّن الدواوين وفرَضَ للمسلمين على قَدْرِ أقدارهم، وتَقَدُّمِهم في الإسلام.

وهو أولُ من اتخذ بيتَ المالِ ورتبَ البريد إلى الأقطار.

وهو أولُ من أسّسَ الحِسبةَ في الإسلام، وهى مشارفةُ السوق، والنظرُ في موازينه ومكاييله.

ومن أبرز أعمالِه توليةُ القُضاةِ في الأمصارِ، ورسم مبادئ الحكمِ، وقواعدِ العدلِ لهم.

وتاريخُ عمرَ رضى اللَّه عنه ملىءٌ بالعِظَة والعِبرة وما أكثر الحكايات عنه!

إنه ليطوفُ ليلًا على رعيتِه فإذا سمع بكاءَ طفلٍ فإنه لا ينام ولا يهدأ حتى يراجعَ أُمَّه ويُقَرِّعها[2] قائلا:

«إنك لأمُّ سوءٍ، ما بالُ طفلِك يَبْكى؟!».

---

(1) مصّر المدن: بناها.

(2) يلومها: ويوجعها باللوم والعتاب.

فترد عليه «**اللَّهُ بينَنا وبين عمرَ! فرض المرتباتِ للأطفالِ من سِنِّ الفِطام، فأنا أحاولُ أن أجْبُرَ الطفلَ على الفطام وهو يأبى!**»

هنا يبكى عمرُ، ويرتعدُ، ويبيتُ الليلَ يؤنّب نفسَه:

«**ويلكَ يا عمرُ، كم قتلتَ من أبناءِ المسلمين!**».

وما أن لاح الفجرُ حتى هب ينادى، «**لا تُعْجِلُوا أولادَكم على الفِطامِ.. قد فرضنا مرتَّبا لكلِّ طفلٍ يُوْلَدُ في الإسلام**».

وما أكثر الحكاياتِ عن عمرَ!

جاءتْ أقمشةٌ من اليَمن، فوُزِّعَت على المُسلمين بالتساوى، ونال عمرُ مثْلمَا نالَ رجلُ الشارع، وكان عمرُ طويلًا يمشى بين الناس، وكأنه راكبٌ!

فظهر عمرُ على المِنْبَر وقد ارتدى قميصًا من هذا القماش ثم خطب فدعا إلى الجهادِ، فإذا بصوتٍ يَنْطَلِق من ساحةِ المسجد يقول: «**لا سَمْعٌ ولا طاعةٌ!**».

ويسألُ عمرُ وسطَ صمتٍ رهيبٍ «لماذا؛ يرحمُك اللَّهُ؟!»

فيقول الرجلُ في غير تَلَعْثُم: «**أخذتَ مِنَ القُماش مثلمَا أخذنا فكيف فصّلتَه قميصًا وأنت طولُ منا؟!**» **لابد أنك استأثرت علينا**»!! ويجدُ عمرُ أن الرجلَ مُحِقٌّ في مُسَاءَلَتِه، فيُنادى ابنَه «عبد اللَّهِ» ويطالبه بالتفسير.. ويُعلِن «عبدُ اللَّه» على الملأ أنه تنازل عن نصيبه لأبيه حتى يُمْكِنَه أن يُفصِّل قميصا يسترُ عورتَهَ إذا ما صَعِدَ على المنبر يُديرُ أمورَ دولةٍ ممتدة من البحر الأبيضِ إلى حدودِ الصِّين!

ويقتنع الرجلُ ويقول: «**الآن نَسْمَعُ ونُطيع**».

إنه يقبلُ المحاسبةَ.. ويُدافع عن نفسِه أمامَ «محكمة الرأيِ العامّ!».

هذا هو عمر الذي يقبلُ المحاسبةَ ويتمسكُ بالعدلِ، ويرجع إلى الحق!! بينما تأخذ بعضَنا العزةُ بالإثم حين نحاسبُه!!

ذات يوم وقف على المنبر وأعلن أنه قرر عدمَ المغالاةِ في المهور وهى فكرة ذاتُ أثرٍ بَعيدٍ في الإقبالِ على الزواجِ!

فسمعَ امرأةً ترفع رأسهَا من مُؤَخِّرةِ المسجد قائلة: «ليس هذا من حَقِّك يا عمرُ».

ويسأل عمرُ: لماذا؟

فتقرأ على مسامعه الآيةَ الكريمةَ التى تقول:

﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء: 20].

فيتراجعُ عمرُ أمامَ الآيةِ التى لم تُحدّدِ المهرَ ويقول:

«أصابت امرأةٌ وأخطأ عمرُ».

ثم يبكى قائلا: «**كلُّ الناس أفقهُ منك يا عمرُ!!**».

ولو ذهبنا نعد خصال عمرَ الرائعةَ، وخلالَه الممتازَة، لاحتاج ذلك إلى «مجلدات» لكنّ هناك خَصْلَةً ختَم بها عمرُ حياتَه وهى الرِّقَّةُ والأدبُ والحَياءُ والإكبار لحُرمات البيوت!

لقد كان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شديدَ الحِرص على أن يُدفن مع صاحبيه إذا مات!

فلما طُعِنَ وأحَسّ الموتَ دعا ابنَه «عبدَ اللَّه» وقال له:

اذهب إلى عائشةَ أمِّ المؤمنين، وقل لها: إن عمرَ بنَ الخطاب يقرأ عليك السلام - ولا تقل: أميرَ المؤمنين، فإنى لستُ أميرًا - ويستأذِنُك أن يُدفَن مع صاحِبَيْه، فذهب عبدُ اللَّه فقال ذلك لعائشةَ..

وعاد إلى أبيه بإذنها، فقال لابنه:

إذا متُّ احملونى على سَرير، فإذا وصلتُم إلى بيت عائشةَ، فلا تَدْخُلوا حتى تستأذنوا.

وقد حُملِ سريرُ عمرَ - كما أوصى - حتى إذا بلغوا بيتَ عائشةَ قالوا: إن عمرَ ابنَ الخطاب يستأذنُ عائشةَ أمَّ المؤمنين، ولم يُدخِلوا السَّريرَ حتى أذنت عائشةُ!

وهنالك دُفن عمرُ بنُ الخطاب مع صاحبيه: محمد رسول اللَّه ﷺ وأبى بكر أولِ خلفاءِ المسلمين.

ويظل عدل عمر مَثَلا يُحتَذَى!!

أبو عبيدة بن الجراح - أمين الأمة

«مر عمرُ بنُ الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقوم يتمنَّوْن (يذكر كل واحد منهم أمنيتَه).

فلما رأوه سكتوا.. قال: فيم كنتم؟

قالوا: كُنَّا نَتَمنَّى!

قال: فتَمنَّوْا، وأنا معكم.

قالوا: فتَمنّ أنت أوَّلًا.

قال: أتمنى رجالا مِلء هذا البيت مثلَ «أبى عُبيدةَ بن الجَرّاح»، و «سالم مَوْلى أبى حذيفة»: إن سَالما كانَ شديدَ الحبِّ للَّه، لَوْ لَمْ يخَفِ اللَّهَ ما عَصَاه.

وقال رسول اللَّه ﷺ: «**إن لكلِّ أمةٍ أمينًا وإن أمينَ هذه الأمةِ أبو عبيدة بن الجراح**»[1].

• وقال عبد اللَّه بن عَمْرِو بن العاص: ثلاثةٌ من قريش، أحسنُها أخلاقًا، وأصبَحُها وجُوهًا، وأشدُّها حَيَاءً، إن حدّثوك لم يَكْذبوك.

وإن حدّثتَهم لم يُكّذِّبوك: أبو بكر الصديق.. وأبو عبيدة بن الجراح.. وعثمانُ بن عفان.. رضى اللَّه عنهم[2].

ونحن مع هذه الشخصية التى شهد الجميع بفضلها، وتمنَّوْا أن يكونوا مثلَها... مع «أمين الأمة». وأراك تتمنى أن تكون مثله!

لقد حاز هذا اللقب يوم أن قَدِمَ على النبى ﷺ جماعةٌ من أشراف نجران - إحدى بلادِ اليمن - سنة تسع للهجرة - كما جاء في كتب السنة.

فقالوا: يا رسولَ اللَّهِ؛ ابعثْ إلينا رجلًا أمينا.

فقال ﷺ: «**لأبعثنّ معكم أمينًا حَقَّ أمين.. حَقّ أمين**».

فتطلع الصحابةُ لهذا الشرفِ.. فبعث النبيُّ ﷺ أبا عبيدةَ بن الجراح.

---

(1) البيان والتبيين للجاحظ ج3 ص 150. وورد هذا الحديث بروايات مختلفة وهذه رواية صحيح البخارى.

(2) عيون الأخبار لابن قتيبة ج3 ص 33. ولقد حرَصت على أن تضمهم هذه المجموعة فلا يحرم أبناؤنا وبناتنا من معايشتهم.

ولا عجب.. فقد تخرج أبو عبيدة في مدرسة النبوة.. على يدى نبيٍّ قال له ربُّه: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: 4] وبعثَه ليتممَ مكارمَ الأخلاقِ! فكان ﷺ قرآنا يمشى على الأرض!

وقد تخرّج في مدرسةِ النبوةِ الكثيرُ من الصحابة، وكان ﷺ يضع الرجلَ المناسبَ في المكان المناسب، فظهرتْ على يَدَيْه تلك العبقريات التى كان لها شأنُها، وتجلّت عَبْقَرِيّاتُهم في الحرب والسلم، فكان منهم القادة المنتصرون، وكان منهم الأئمة الأعلام، ومن هؤلاء وأولئك المسلمُ الجليل، والصحابيُّ الكبير: «عامر بن عبد اللَّه بن الجراح» وتمر الأيّام، وتُصبح كنيته (أبو عبيدة) على الألسنة، وتغلب على اسمه، فلا يذكرونَه باسمه بل بكُنْيته!

ولم يعد أيضا يُنسَب إلى أبيه بل نُسبَ إلى جَدّه فقالوا: «أبو عبيدةَ بنُ الجرّاح» مع أن أباه عبدُ اللَّه! وجَدَّه الجَرَّاح!

ولقد كان لأبى عبيدةَ فضلُ السبقِ إلى الإسلام، فقد رُوى أن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ توسّم في أبَى عبيدة ذكَاءَ قلب، وصفاءَ فِطرة، فحدّثه عن الإسلام، فَسرعان ما استجاب لدعوة الصدِّيق حيث شرح اللَّه صدرَه للإسلام، وانطلق مع نفر من كرام العرب، فيهم «أبو سلَمة بنُ عبدِ الأسد»، و «عُبيدةُ بن الحارث بن المطلب»، و «عبدُ الرحمن بنُ عوف»، و «عثمانُ بن مظعون».. انطلقوا جميعا إلى رسول اللَّه ﷺ فزادَهم معرفةً بالإسلام وحبّبَ إليهم الإيمانَ وزيّنَه في قُلوبهم، فأسلموا في ساعة واحدة، وكان ذلك في أولِ الدعوةِ.. قبل أن يدخلَ الرسولُ ﷺ «دارَ الأرقم ابن أبى الأرقم»، وقبل أن يتخذَ ﷺ مكانًا للدعوة.. فأَصبحوا من السابقين الذين قال اللَّه فيهم: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [الواقعة: 10: 11].

لقد خرج أبو عبيدةَ من الظلماتِ إلى النورِ يوم أن أعلن إسلامه، ورأى الهُدَى والنورِ فيما جاء به النبى ﷺ : ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[المائدة: 15، 16].

ولم يكتف بإعلانِ إسلامِه بل أحسنَ الصُّحبَة للرسول ﷺ واحتمل في سبيلها ألوانًا من الاضطهاد والعذاب حتى رأى نفسَه مضطرًّا إلى الهجرة إلى الحبشة فرارًا بدينه.. ثم عادَ فهاجرَ إلى المدينة فصار بذلك من «أهل الهجرتين»..

وياله من وسام عظيم ذلك الذي ناله أصحابُ الهجرتين، فقد نزل القرآن الكريم يبشر أصحابَ الهجرتين بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۘ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل: 41، 42].

ثم يقول: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [النحل: 110].

وها هو ذا أبو عبيدة يهاجر في سبيل اللَّه مَرّتَين ويَنالُ الشرفين! ويجاهِدُ أحسن الجهاد.

وفي المدينة آخى الرسولُ ﷺ بين المهاجرين والأنصار، واختار الرسولُ ﷺ لأبى عبيدةَ المهاجرِ أخا كريمًا من بين الأنصار هو «سعدُ بنُ مُعاذ»[1] سيدُ الأوس. رضى اللَّه عنهما.

وفي المدينة حرَص «أبو عبيدةَ» على أن يشهدَ المشاهدَ كُلَّها مع رسول اللّه ﷺ، وكانت «غزوةُ بدرٍ» أولى هذه الغزوات.. وكان المسلمون يومَها قلّة في عددهم وعُدَّتهم، ولكنّ نصرَ اللَّه كان حليفَهم ﴿ وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾[آل عمران: 123].

ولقد كان أبو عبيدة في هذه الغزوة يوَدّ من كلِّ قَلْبه أن ترتفع رايةُ الإسلام، وأن تكون كلمةُ اللَّهِ هى العُليا، وكلمةُ الذين كفروا السُّفلى!

ولقد تعرض أبو عبيدة في غزوة بدر لاختبارٍ عنيفٍ قاسٍ، فقد وجد أباه في صفوف المشركين يتصدى له، ويبحثُ عنه!

(1) ترجمنا له في الكتاب الرابع.

وحاول «أبو عبيدة» أن يبتعدَ ويجاهدَ بعيدًا عنه في جهة غير الجهةِ التى فيها أبوه رعايةً لحقِّ الأبوة!

ولكن الوالدَ الكافرَ جعل يتصدّى لابنه يُريدُ قتلَه.. والابنُ يحاذرُه، ويُعرضُ عنه، ولكن والدهَ أصرّ على مَوقِفِه، فلم يجدْ «أبو عبيدة» أمامه إلا أن يَنْسى الأبوةَ والبنوةَ في سبيل عقيدته التى يحاول الكفرُ وأدها في مهدِها!

وهنا أطار سيفُه رأسَ أبيه، وكان هذا العملُ شاهدًا جديدا على أمانته وإخلاصه لدين اللَّه!

وفي ذلك يقول اللَّهُ تعالى في سورة المجادلة:

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: 22].

وكأنما كان يردّد مع الشاعر العربى:

أبِي الإســـلامُ لا أبَ لى سِــواه إذا افتخروا بقيسٍ أو تميمِ!

لا حُبَّ يعلو على حبِّ اللَّه ورسولِه وجهادٍ في سبيله!

وتعرّض أبو عبيدة لامتحان آخر في «غزوة أحد» ونجح فيه بامتياز مع مرتبة الشرف!

فعندما خالف الرماةُ أمرَ الرسول ﷺ اضطرب أمرُ الجميع، وثبت القليلُ بجوارِ الرسولِ ﷺ.. ولقد كان أبو عبيدةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أحدَ أولئك الذين ثبتوا ورابطوا، وأحاطوا بالرسول ﷺ يُدافعون عنه ويَفدونه بأرواحِهم حتى إنه لما جُرح الرسولُ ﷺ ودخلت حَلْقتان من المِغْفر[1] في وجنته الشريفة أقبل عليه أبو عبيدة وأخذ يعالج نزعهما بأسنانه!

(1) المغفر: زرد من الدرع يحفظ الرأس والوجه، وهو الخوذة.

ويقص علينا سيدُنا أبو بكر الصديق ما حدث فيقول: لما كان يوم أحد، ورُمى الرسولُ ﷺ في وجهه حتى دخلت في وجنتيه حلْقَتَا المِغفر أقبلتُ أسعى نحو الرسول ﷺ.

وأقبل إنسانٌ من المشرق يطيرُ طيرَانا، فلما توافينا[1] عند الرسول وجدته أبا عبيدة، وقد سبقنى!

فقال: أسألُك باللَّه «يا أبا بكر» أن تتركنى لأنْزعَ من وجهه عليه السلام الحَلْقتين، فنزعهما حَلْقةً حَلقة!

وسقط مرتين على ظهره!

وسقطت له ثنيتان[2]، فكان أثرم[3] بعد هذا.

إنه يطيرُ طيَرانًا.. ليتعجل الخير.. وإنه ليَسْتَبِقُ مع أبي بكر لينالَ شرف القيامِ بهذا الواجب نحو رسول اللَّه ﷺ لدفع الأذى عنه!

وإنه لَيُحاولُ نزْعَ الحلقتين بلين ورفق، ولكنهما غائرتان.. ولابد لهما من شدة أثناء نَزْعِهما حتى يَخْرُجَا!

وليس لديهم من الوسائِل ما يُسَكِّن الألمَ ويُخَدّر موضعَ الحلْقتين!

فما العمل؟

إنه يرى ألَمَ الرّسُولِ ﷺ فيريدُ أن يقطعَ هذا الألمَ بسرعةٍ، ولكنه يخشى على الرسولِ ﷺ عاقبةَ ذلك.

ويستعين باللَّه وينْزِع الحلْقتين، ولكن بعد أن نزعت له ثنيتان من أسنانه في حُبِّ اللَّهِ ورسولِه!

وظل لأبى عبيدة وجودُه وحضورُه إلى جانب الرسول ﷺ حتى إنه في «صلح الحديبية» حين خرج المسلمون لأداء العمرةِ وزيارةِ المسجدِ الحرام الذي اشتد

(1) التقينا.

(2) الثنيات من الأسنان: الأربع التى في مقدم الفم.

(3) الثرم: انكسار السِّنة من أصلها.

شوقُهم إليه، وافقَ الرسولُ ﷺ على أن يعودَ المسلمون لزيارةِ المسجدِ الحرامِ في العام القادمِ بناءً على شُروطٍ للصلحِ اتفق عليها مع قُرَيْشٍ.

ورأى المسلمون أن تلك الشروطَ في ظاهرها شديدةٌ على المسلمين، بينما قَبِلها الرسولُ ﷺ لِمَا أراه اللَّهُ من الفوائد العُظمى التي سيحصلُ عليها المسلمون من وراء هذا الصلح!

وعزّ على المسلمين أن يمنعَهم المشركون من زيارةِ بيت اللَّه الحرام ويرجعوا وقد تَهَيَّئُوا للزيارة!

وغضِب عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من هذه الشُّروط، وذهب إلى أبى بكر يقولُ له:

أليسَ برسولِ اللَّه؟

قال: بَلى.

قال عمرُ: أوَلَسْنا بالمسلمين؟

قال أبو بكر: بلى.

قال عمرُ: أوَلَيْسُوا بالمشركين؟

قال أبو بكر: بلى.

قال عمر: فعلام نُعطِى الدَّنِيَّة في ديننا[1]؟

قال أبو بكر: يا عمر، الزم غَرْزه[2]، فإنى أشهدُ أنه رسولُ اللَّه!

قال عمر: وإنى أشهدُ أنه رسولُ اللَّه!

وذهب عمر إلى النبى ﷺ يحاورُه في ذلك، فقال الرسول ﷺ: «**أنا عبدُ اللَّه ورسولُه.. لن أخالف أمرَه، ولن يُضَيِّعَنى!**».

وجعل عمرُ يحاورُ الرسولَ ﷺ، وسَمِعَه «أبو عبيدةَ بنُ الجَراح»، فقال له: ألا تسمعُ يا بنَ الخطَّابِ رسولَ اللَّه يقولُ ما يقول؟!

(1) لماذا قبلنا شروطهم مع أننا على الحق وهم على الباطل. لماذا نقبل هذا الوضع ونعود كما اشترطوا دون زيارة للمسجد الحرام في عامنا هذا!

(2) يقال: الزم غرز فلان: أمره ونهيه، واشدد يديك بغرزه، تمسك به، والغرز: ركاب الرَّحل من جلد مخروز يعتمد عليه في الركوب.

فجعلَ عمرُ يتعوَّذُ باللَّهِ من الشيطانِ الرجيم.

ثم قال الرسول ﷺ: «**يا عمرُ؛ إنى رضيتُ وتأبى؟!**».

وكان عمر بعد ذلك يقول: مازلت أصومُ، وأتصدقُ، وأُصَلّى وأَعْتِقُ مخافةَ كلامى الذي تكلمت به حتى رجوتُ أن يكون خيرا.

أما «أبو عبيدة» فقد تجلى صدقُ إيمانه، وقوةُ يقينه، وشدةُ تسليمهِ للَّه وللرسول في تلك الكلمات التى قالها لعمر!، وهكذا يكون المؤمن!

ولا عجبَ في أن يكونَ مَن تخرّجَ في مدرسةِ النبوة على خُلُق عظيم، فقد كان أبو عبيدةَ متواضعًا، وليس أدلَّ على ذلك من أنه وهو أميرٌ على الشامٍ وقف ذات يوم بين جنوده وخطب فيهم قائلا:

أيها الناس، إنى امرؤ من قُريش، وما منكم من أحمرَ ولا أسودَ يَفْضُلُنى بتقوى إلا وَدِدْتُ أنى في سِلاخِه (أي في جلده)!

إنه لا يرى لنفسه فضلًا على أحد من جنوده يتباهى به أو يتعالى، وإنه ليتمنى أن يكونَ من جنودِه مَن هو أكثرُ منه تقوى فيود لو جعله اللَّهُ في جِلدِ ذلك الجندى!

وهم الذين يرون فيه قُدْوَتَهم العالية، ومثلَهم الرفيع، وهكذا يكون المؤمن!

ولقد كان «أبو عبيدة» زاهدًا في الدنيا مع أنه قد هُيئت له في الفتوح والمغانم فرصٌ كثيرة للغنى وجمع المال، ولكنه عاش فقيرا، ومات فقيرا، فلم تكنِ الدُّنيا وزينتُها كلَّ هَمِّه!، وهكذا يكون المؤمن!

وليس أدلَّ على ذلك من أن الخليفةَ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أرسلَ إليه بأربعةِ آلافِ درهم، وقال لحاملها إليه: انظر ما يصنعُه أبو عبيدة بها؟

وبعث إلى مُعاذِ بن جبل بمثلِها!

فقسّمها أبو عبيدةَ وهو في مجلسه!

وكذلك فعل مُعاذٌ، ولم يُبقِ منها إلا شيئًا قليلا قالت له امرأته: نحن نحتاج إليه!

ووصلت الأخبار إلى عمرَ بما كان من أمر أبى عبيدة ومعاذٍ تجاه الدراهمِ التى بعث بها إليهما. فقال.

«**الحمد لله الذي جعل في الإسلام من يصنع هذا!!**».

وهناك ما هو أعجب وأغرب، فعندما قَدِمَ عمرُ بن الخطاب الشام تلقاه أمراءُ الأجنادِ، وعظماءُ أهلِ الأرض، فقال عمر: أين أخى؟

قالوا: يأتيك الآن!

وإذا هو قادم على ناقة مخطُومَةٍ[1] بحبل.

فسلّم عليه، وسأله، ثم قال للناس: انصرفوا عنا!

فسار معه حتى أتى منزلَه، فنزل عليه، فلم يرَ في بيته إلا سيفَه وتُرْسَه[2]!

فقال عمر: لو اتخذتَ متاعا؟ أو قال شيئا.

قال أبو عبيدة: يا أميرَ المؤمنين، إن هذا سَيُبَلِّغُنَا المَقِيل[3].

فقال عمر حين رأى ما رأى من زهده:

«غيّرتنا الدنيا كُلَّنا غيرَك يا أبا عبيدة!».

وظل أبو عبيدةَ على عهده ووعدهِ حتى لقىَ الرسولُ ﷺ ربَّه، ويقوم «عمرُ الفاروقُ» بجولة استطلاعية ليرى اتجاهَ الرأى العامّ فيمن يكون خليفةَ رسولِ اللَّه ﷺ، حتى لا تكونَ فتنة، ويتسع الخلافُ!

وإذا هو يَلْقَى «أبا عُبيدة»، فيعرضُ عليه أمرَ الخلافة قائلا:

هلم يا أبا عُبيدة أُبَايعْك؛ فإنى سمعتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقول:

«**إنك أمينُ هذهِ الأمة**».

وهنا يتجلّى أدبُ أبى عُبيدة واحترامُه لحقِّ غيرهِ فلا يعرفُ الفضلِ لأهل الفضلِ إلا ذَوو الفَضْل!

---

(1) مخطومة: وضع على أنفها حبل تقاد به، ويقال له: زمام.

(2) الترس: ما كان يُتوقى به في الحرب، ويتقى به ضربات السيوف وغيرها.

(3) القيلولة. والمراد: أنه يتحقق الغرض ويؤدى المهمة.

فأجاب عمرَ: كيف أُصَلّى يا عمرُ وبين يَدَىْ رجل أمرَه الرسولُ ﷺ أن يَؤُمَّنَا حين مَرِضَ؟!

لقد تذكر الصديقَ أبا بكر، وسَبْقَه إلى الإسلام، وتصديقَه للرسول ﷺ، وبذلَه للمال في سبيل اللَّه، وصُحبتَه الطويلةَ الجميلةَ للنبى ﷺ، وثناءَ النبىِّ عليه في مواطنَ كثيرةٍ، واستخلافَه له وهو مريضٌ في الصلاة لكى يصلىَ بالناسِ إماما!

فكيف يكون أبو عبيدةَ إمامًا للمسلمين في الصلاةِ.. وفيهم «أبو بكر؟».

لقد رضيَه الرسولُ ﷺ لديننا، أفلا نَرضَاهُ وقد كان عمر خبيرًا بالرجال فرأى أن أبا عبيدةَ أهلٌ للخلافة!

ولم يكنْ عُمَرُ وحدَه هو الذي وقع اختيارُه عليه بل إن أبا بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يخطب في يوم السقيفة فيقول: «**وأنا أرضى لكم أحدَ هذين الرجلين: عمرَ بنَ الخطاب، وأبا عبيدة بنَ الجراح**».

فيا لها من شهادة عظيمة صدرت من الرجل الذي أجمعت عليه الأمة ليكون خليفتَها الأولَ.

إنه يُسَوِّى بين عُمَرَ وأبى عبيدة في ترشيحهما لخلافة الرسول ﷺ.

وفي ذلك عرفانٌ لقدرِ «أبى عبيدة» من الصاحبين: أبى بكر وعمر!

ولقد ظل عمرُ بنُ الخطاب على موقفِه من أبى عبيدة إلى اللحظاتِ الأخيرة التى لقى فيها ربَّه، فرأيناه يتحدث عمن يَخْلُفُه قائلا: «.. **و لو كان «أبو عبيدةَ بن الجراح» حَيًّا لاستخلفتُه، فإن سألنى ربى لِمَ استخلفتَه؟ قلت: أَىْ ربى.. سمعت عبَدك ونبيَّك محمدًا يقول:**

«**لكلِّ أمةٍ أمينٌ، وأمينُ هذه الأمةِ أبو عبيدةُ بنُ الجراح!**»

وهكذا كان أبو عبيدة في السِّلم والحرب على وفائه وانتمائه، ففى موقعة «اليرموك» كان يقود فرقةَ القَلب فيها، وكان يمشى بين الجنود موجها ومنبها ومشجعا ومدافعا، ويقول:

«**عبادَ اللَّه، انصرُوا اللَّه يَنصرْكم ويُثَبِّتْ أقدامَكم..**»

وتقدم رجلٌ عزَم على الشهادةِ إلى أبى عبيدةَ وقال له: إنى قد تهيأتُ لأَمرى، فهل لكَ من حاجةٍ إلى رسولِ اللَّه ﷺ؟!

فقال أبو عبيدة: نعم، تُقرِئُه السلامَ، وتقولُ له:

«يا رسولَ اللَّه، إنا قد وجَدْنا ما وعَدنا ربُّنا حَقًا!».

وتقدم الرجلُ فقاتلَ حتى استُشهد.

وتحكى كتب السيرة أنه لما تم الصلحُ بين أمير جيوش المسلمين في الشام أبى عبيدة، وبين أحدِ قوادِ الروم جاءوه بطعام فاخرٍ، وقالوا له: هذا طعام الأمير!

فقال أبو عبيدة: أَطْعَمتُم الجندَ مثلَ هذا الطعامِ؟!

قالوا: لم يتيسرْ لنا ذلك.

فقال أبو عبيدة: «فلا حاجةَ لنا فيما يقتصرُ علينا وحدَنا من ألوانِ الطعام!

وبئس المرءُ أبو عبيدة إن صَحِبَ جُندًا من بلادِهم أهرقوا دماءَهم دونَه أو لم يُهرقوا، فاستأثرَ عليهم بشيءٍ يُصيبه. لا واللَّه لا نأكلُ إلا ما يأكلون!!.

وهكذا يكون المؤمن!

وبعد: فها هو ذا أبو عبيدة أحدُ العشرة المبشَّرين بالجنة، وأولُ من لُقِّب بأميرِ الأمراءِ في الشام بعد خالدِ بن الوليد، وأمينُ الأمة!

ويقول ابنُ عساكر حين ظهر الطاعونُ بأرضِ الشام وبها أبو عبيدةَ وكان في ستة وثلاثين ألفا من المسلمين، فلم يبق منهم إلا ستةُ آلاف رجل، وكان «أبو عبيدة» أميرَ القوم فكيف يتركُهم وهو قائدُهم؟

وإنه لزاهد في الدنيا، فما عند اللَّه خير وأبقَى!

كل شيء يبدو ضئيلا بجوار ما وعد اللَّهُ به عبادَه المؤمنين من نعيم مقيم ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[العنكبوت: 64].

وإذن فلْيبقَ أبو عُبيدةَ بَين القوم، ولْيَحتملْ معهم ما يحتملون، ولْيَكُنْ بعد ذلك ما يكون!

وما هى إلا أيام حتى أُصيبَ أبو عبيدةَ بالطاعون! لم تُصبْه رماحُ الأعداء.. ولا سيوفُ المشركين.. ولا سهامُ المعارك.. ولكن أصابته جرثومةُ الطاعون!

وحزِنَ عليه عمرُ بنُ الخَطّابِ وبكاه وترحَّم عليه!

بقيت ذكراه العطرة، والذكرى للإنسان عمرٌ ثانٍ!

أبو أيوب الأنصارى

المدينة كلها شَبابُها وشِيبُها.. نساؤها ورجالُها تستعدُّ لاستقبال أكرمِ ضيفٍ ينزلُ بالمدينة!

وعلى أبوابها تعالت الأصواتُ بالتحية والترحيب بالقادمِ العزيزِ:

طَلَعَ البدرُ علينا ... من ثَنِيَّاتِ الوَداع
وجب الشكرُ علينا ... ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا ... جئتَ بالأمرِ المطاع
جئت شرَّفت المدينة ... مرحبا يا خير داع

الكلُّ خرج للترحيب به، ويوَدُّ أن يَنْزِلَ ضيفًا عليه فمَن ذلك السعيدُ الذي كان له شرفُ استقبال النبِيِّ ﷺ، ونال ما لم ينَلْه غيرُه من التكريم؟

وكيف أُتيحَ له أن ينالَ هذا الشرفَ؟ ولماذا؟

وكم من الأشهر أقام النبى ﷺ عنده؟

وإلى أين رحل النبى ﷺ بعد إقامته عنده؟

إن هذا السيد الكبير الذي اختصه النبيُّ ﷺ بالنزول عليه هو ذلك الصحابيُّ الجليلُ صاحبُ البيعتين: خالدُ بن زيد المسمّى: أبو أيوب الأنصارى النَّجّارى البَدْرِى - وسيظل ذكره خالدا حتى تقوم الساعة!!

إنه من قبيلة الخزرج، ومن بنى النجار.. وممن شهدوا بدرا، وكفى بنزول النبىّ ﷺ عليه شرفا وفخرا!!

وكيف لا وقد أقام النبيُّ ﷺ في بيته سبعةَ أشهرٍ حتى بُنيت حُجراتُ النبى ﷺ وتم بناءُ المسجد!

لقد كان أهلُ المدينة قد اصطفُّوا أمامَ بيوتهم تَغمُرُهم الفرحةُ، وتَعلوهم البهجةُ، وهم يَسْتَقبِلُون النبىَّ ﷺ وهو قاعدٌ فوق ناقته، وهم يقولون له:

يا رسولَ اللَّهِ، ادخُل المدنية راشدا مَهْدِيًّا.. وكل منهم يتمنَّى أن يكونَ الفائزَ بشرفِ ضيافتهِ، ويا لَهُ من شرفٍ عظيم!

وكلّما مَر على بيت قال له أهلوه: ها هُنا يا رسولَ اللَّه .. ها هُنا يا رسولَ اللَّه!

وكلما حاولوا الإمساكَ بزمام ناقته لِيُحوّلُوا سيرَها إلى منازلهم ردّ عليهم الرسولُ ﷺ بلطف قائلا وهو يُشيرُ إلى ناقته: «**خَلُّوا سبيلها فإنها مأمورة**»!

وحين وصلت الناقةُ إلى بيوتِ أخواله «بنى النجار» تعلقوا بخِطامِها[1] وهم يقولون: هَلُمَّ إلى أخوالِك يا رسولَ اللَّه!

أَقِمْ عندنا فلدينا العَدد، والعُدّة، والمنَعَة[2]!

ولكنه ﷺ قال لهم في هدوء: «**خلوا سبيلَها فإنها مأمورةٌ!**».

وواصلت الناقةُ سيرَها بأمرِ ربّها حتى بلغت «بيت أبى أيوب» من بيوت بنى النجار أخواله ﷺ فبركت أمامه بأمرِ اللَّهِ وعنايتِه!

وأحسَّ «أبو أيوبَ» أن ذلك الفضلَ من اللَّهِ فسجدَ للَّهِ شكرًا!!

وكان بيتُه من طابقين: أرضيٍّ وعُلْوِيّ!

فاختار الرسولُ ﷺ أن ينزلَ في الطابق الأرضىّ من البيت!

ولكن أبا أيوب قال له:

بأبى أنت[3] وأمى يا رسولَ اللَّه!

إنى أكرهُ أن أكونَ في الطابَق العُلْوىّ وأنت في الطابَق السُّفْلِىّ، ورجاه أن يَصْعَد إلى الطَابَق العُلوى، وينزلَ أبو أيوب وزوجتُه إلى الطابق الأسفل.

ولكن الرسول ﷺ قال له: «**يا أبا أيوب، إنه أَرْفَقُ بنا، وبمن يغشانا (يزورنا) أن أكونَ في سُفْلِ البيت**»!

(1) الحبل الذي تُقاد به. ويقال له أيضا: الزِّمام.

(2) الحماية.

(3) أفديك.

أطاعَ أبو أيوب امتثالا لرغبةِ الرسولِ ﷺ ولكن نفسَه لم تُطاوعِه!! كيف يطأ سقفًا تحته رسولُ اللَّه ﷺ!

فكان إذا راد أن ينامَ هو وزوجتُه انتحيا جانبا من الغرفة إلى جوارِ جدارها وناما أدبًا منهما واحتراما لرسول اللَّه ﷺ.

وحدث ذات يوم أن سال ماءٌ من إناء فسارع هُو وزوجتُه يُجفّفانه بقطيفة لهما خشيةَ أن يتسربَ منه شيءٌ إلى حجرةِ الرسولِ ﷺ!

وعاد أبو أيوبَ يُلح على النبى ﷺ أن يصعدَ إلى أعلى حتى استجاب له مقدّرا شعورَه النبيل وعَرْضَه الكريم!

ولا عجب، فأبو أيوب الأنصاريُّ من السّبّاقين إلى الخير.. بايع الرسولَ ﷺ على الجهادِ والاستشهادِ مرتين عند العقبة، فهو ممن يصدق عليه قول اللَّه تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: 10، 11].

ولقد آخى الرسولُ ﷺ بينه وبين أولِ سفيرٍ للإسلام بالمدينة وهو «مُصْعَبُ ابنُ عمير».

ويقول ابنُ سعدٍ: شهد المشاهدَ كُلَّها مع رسولِ اللَّهِ ﷺ.

ولقد ظلّ الرسولُ ﷺ عندَه إلى أن بُنيتْ له حجرةُ أُمِّ المؤمنين «سَوْدَةُ» وبُنى المسجدُ الشريف.

ويَحْكي ابنُ عُمَرَ قصةَ نزولِ الرسول ﷺ على أبى أيوب الأنصاريِّ في الحديث الذى أخرجه أحمد بإسناد صحيح أن رسول اللَّه ﷺ نزل في بيتنا الأسفل، وكنت في الغُرفة[1]، فأهريق[2] ماء في الغرفة فقمت أنا وأُمّ أيوب

(1) الغرفة: العُلِّيّة. وفي التنزيل العزيز: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾[سبأ: 37]

(2) صُبّ وسال.

نتتبَّع الماء، ونزلت، فقلت: يا رسولَ اللَّهِ، لا ينبغى أن نكون فوقَك.. انتقلْ إلى الغرفةِ، فأمر بمتاعِه فنُقل، ومتاعُه قليل.

قلت: يا رسولَ اللَّه، كنتَ تُرسِلُ بالطعام فإذا رأيتُ فيه أثرَ أصابِعِكَ وضعتُ فيه يدى».

وكما كان على رأس المبايعين في «بيعة العقبة» فإنه كان من طلائع المجاهدين الذين بايعوا الرسول ﷺ «بيعةَ الرِّضوان» يَوَم الحُدَيْبيَة ونزل فيهم قول اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح :10].

وقال فيهم: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: 18].

وكثيرا ما كان يردد قول اللَّه تعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾[التوبة: 41] ويقول: لا أجدُنى إلا خفيفًا أو ثقيلا فلا بُدّ لى من الجهادِ على كلِّ حالٍ!

وظل أبو أيوب على عهدِهِ ووعدِه يواجِهُ الخطر، ويواصل الجهادَ، ويبحثُ عن الشّهادة، ويحرصُ على الموتِ في سبيل اللَّه فتوهبُ له الحياة!

ووقف إلى جانب الإمام عليٍّ -كرّم اللَّه وجهه - فشهد معه «موقعة الجمل» و «موقعة صِفّين» و «موقعة يومِ النَّهروان»، وظل على وفائه حتى لحق الإمام بربه!

وحين علم بخروج الجيش الإسلامى إلى بلادِ الروم سارع بالانضمام إليه لا هدفَ له إلا رِضوانُ اللَّه والدارُ الآخرة.

وأُصيب أبو أيوب في المعركة «معركة القسطنطينية». وجاءه القائد يَعُودُه ويسألُه عن حاجته فيقول له: إذا أنا مِتّ فاركب بى، ثم اركب بى في أرض العدو ما وجدت مساغا[1] فادفِنِّى وارجع!

(1) ما وجدت مساغا: ما أمكنك اجتيازها وعبورها.

وكأنما أراد أن يكون جُثمانه طليعةً للمجاهدين المظفّرين من ورائه!

وحين أسلم روحَه إلى بارئها دُفن إلى جوار «سُورِ القسطنطينية» سنة اثنتين وخَمسين للجهرة.

وظلت تلك الأحاديثُ التى رواها عن رسول اللَّه ﷺ ضيفه الكريم تُنير لنا الطريق، فقد روَى عن رسول اللَّه ﷺ مائةً وخمسين حديثا، ومما أوصاه به الرسول ﷺ:

«إذا صَلَّيتَ فصَلّ صلاةَ مُوَدِّع!

ولا تتكلّم بكلام تَعْتَذرُ مِنه!

والزم اليأس مما في أيدى الناس».

وما أكثرَ ما نتعلمُ مما رواه عن رسولِنا الكريم من أحاديث!

وقد علمنا السابقون أن نستشير أصحاب الخبرة قبل الإقدام على عمل مّا، وأن نستخيرَ اللَّه بعد ذلك ليختارَ لنا ما هو خير، فقالوا:

ما ندم من استشار!

ولا خاب من استخار!

وقد جاء في حديث رواه أبو أيوب ما يعلمنا «الاستخارة» في أمورنا كلها فقد قال له رسول اللَّه ﷺ:

«اكتُم الخطبةَ، ثم توضأ، ثم صَلَّ ما كتب اللَّهُ لك ثم احْمَد ربَّكَ ومَجِّده، ثم قل:

اللهّم تقدرُ ولا أَقْدرِ..

وتعلَمُ ولاَ أَعْلَمُ..

وأنت علاَّم الغيوب..

فإن رأيتَ لى في فلانةَ - تُسَمِّيها - خيِّرًا لى في دينى ودُنياى وآخرتى فاقدُرهَا لى.

وإن كان غيرُها خيرًا لى منها فأمْضِ لى.

أو قال: اقدرها لى»[1].

رضى اللَّه عن أبى أيوب، وجزاه عن حسن ضيافته للنبى ﷺ خير الجزاء.

ولا ينسى المسلمون فضل «أبى أيوب» على مر الأيام، فقد جاء في سيرة ابن عباس - رضى اللَّه عنهما - أن أبا أيوب الأنصارى وفد عليه حين كان أميرًا على البصرة لِعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فبالغ في إكرامه، وقال:

«لأَجْزِيَنّك على إنزالك النبىَّ ﷺ عندك».

فوصلَه بكلّ ما في المنزلِ فبلغ ذلك أربعين ألفا!

وتلك هى أخلاقُ الإسلام.

فلا يضيع جميلٌ أينما وُضِعَ!

ولا يذهب العُرْفُ بين اللَّهِ والناسِ!

ولا يعرف الفضلَ لأهلِ الفضلِ إلا ذوو الفضل.

وصدق اللَّه العظيم حيث يقول:

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: 7]

(1) أخرجه ابن حِبان (586) والحاكم 1/ 314 و 2/ 165 وصححاه.

الحُباب بن المُنْذِر

من هذا الصحابيُّ الجليل الذى أخذ الرسولُ ﷺ بمشورته وكان له رأيُه وحضورُه في الشدائد والأزمات والحرب والسلم.. وشَهدَ له بِحُسْن الرَّأْى المهاجرون والأنصارُ على السّواء؟!

إنه أبو عمرو.. الأنصارى الخزرجى صاحب المشورة في بدر!

يقول التاريخ.. وتحرك رسولُ اللَّه ﷺ بجيشِه ليسبقَ المشركين إلى ماءِ بَدْرٍ، ويحولَ بينهم وبين الاستيلاءِ عليه.

فنزل عِشاءً أدْنَى ماءٍ من مِياهِ بَدْرٍ!

وهنا قام «**الحُبابُ بن المنذر**» كخبير عَسْكرِيّ وقال:

يا رسولَ اللَّه، أرأيتَ هذا المنزل[1]، أمنزلًا أنزلكَة اللَّهُ، ليسَ لَنا أن نتقدَّمَه، ولا نَتَأَخّرَ عنه؟!

أم هو الرأىُ والحربُ والمكيدةُ؟!

فقال رسول الله ﷺ.

«**بل هو الرأىُ والحربُ والمكِيدةُ**»

قال الحُبابُ: يا رسولَ اللَّه، فإن هذا ليسَ بمنزلٍ، فانهض بالناسِ حتى نأتىَ أدنى[2] ماءٍ من القومِ (قريش) فننزلَهَ ونُغَوِّرَ (أي نُخرّبِ) ما وراءَه من القُلُب[3]، ثم نبنى عليه حَوْضا فنملأه ماء.

ثم نقاتلُ القومَ فنشربُ ولا يشربون!

فقال رسول اللَّه ﷺ:

(1) مكان نزولك هنا.

(2) أدنى ماء: أقرب ماء.

(3) جمع قليب: والقليب: البئر.

«لقد أشَرْتَ بالرأى!»

فنهض الرسولُ ﷺ بالجيش حتى أقرب ماءٍ من العدوِّ فنزل عليه شَطْرَ[1] الليل.

ثم صنعوا الحِياضَ، وغوّروا ما عداها من القُلُب!

وكان لهذه النصيحة أثرُها في تحقيقِ[2] النَّصْرِ.

ولا عجب، فقد علَّم الرسولُ اصحابَه أن الدينَ النصيحةُ.. للَّه .. ولرسوله.. ولأئمة المسلمين وعامتهم!

وأنه لا حجرَ على رأى!

ومن شعر الحباب بن المنذر:

أَلَمْ تعْلَمَا - لله دَرُّ أبيكُمَا ... وما الناسُ إلا أكْمَةٌ وبصيرُ[3]

بأنا وأعداءَ النبيِّ مُحَمَّدٍ ... أسودٌ لها في العالمينَ زئيرُ

نَصَرْنا النبيَّ ومالَهُ ... سِوانا من أهلِ المِلَّتَيْن نَصِيرُ[4]

وظل الحُباب على عهده ووعده يدلى برأيه في المواقف التى تحتاج إلى رأى ومشورة.

وعندما لقى الرسولُ ﷺ ربّه انحاز ذلك الحَيُّ من الأنصارِ إلى «**سعد بن عُبادة**» في سقيفة[5] بنى ساعدة واعتزل عليّ بنَ أبى طالب، والزبيرَ بنَ العوام وطلحةَ بن عُبَيْد اللَّه في بيت فاطمة.

---

(1) الشطر: نصف الشيء. ويستعمل في الجزء منه.

(2) سيرة ابن هشام.

(3) يقال في المدح والتعجب: للَّه دره. ويقال: دَرّ درُّه: كثر خيره، ولا درّ درّه: لا زكا عمله. ويقال: كمه الرجل فهو أكمه: عمى أو صار أعشى. فهو أكمه وهى كمهاء.

(4) المراد بأهل الملتين: اليهود والنصارى.

(5) السقيفة: العريش يستظل به. وسقيفة بنى ساعدة: ظُلة كانت لهم بايع تحتها المسلمون أبا بكر الصديق رضي الله عنه بالخلافة.

وانحاز بقيةُ المهاجرين إلى أبى بكر، وانحاز معهم «**أُسَيْد بن حُضير**» في بنى عبد الأشهل.

ويذكر التاريخ أن الحُباب بن المنذر كان له حل وسط في القضاء على ذلك الخلاف الذي كان على من يَخْلُفُ الرسولَ ﷺ أهو من المهاجرين أم من الأنصار؟

فوقف الحُباب خطيبا وقال يوم السقيفة:

- «أنا جُذَيْلُها المحَكّك[1]».
- «وعُذَيْقُها المُرَجّب»..

منا أمير، ومنكم يا معشرَ قريش أمير!».

والعرب تضرب المثل الأول للرّجل يستشفى برأيه!

والثاني للرجل الشريف المبجّل!

ولما كثر اللَّغَطُ تقدّم عُمَرُ وقال لأبى بكر: أبسُط يدَك يا أبا بكر، فبسطَ يدَه فبايعَه.

ثم بايعه المهاجرون!

ثم بايعه الأنصار!

ومنهم «الحُبَابُ بنُ المنذر»، ووقى اللَّهُ الدينَ من فِتنة تهددت المدينةَ نيرانُها!

لقد قال رأيَه، ولكنّه وجد الخير في غيره، فلم يتمسك به ورجع إلى الحق والرجوع إلى الحق فضيلة! وهكذا يكون المؤمن!

---

(1) جُذيلُها: تصغير جَذْل، أراد العُود الذي يُنصب للإبل الجَربَى لتحتَكّ به، أي: أنا ممن يستشفى برأيه، كما تستشفى الإبل الجربى بالاحتكاك.
وعُذيقُها: تصغير عَذق - بالفتح، وهو النخلة.
والمرجّب هو: أن تدعم النخلة الكريمة ببناء من حجارة أو خشب إذا خيف عليها لطولها، وكثرة حملها-أن تقع (ابن الأثير في أسد الغابة 432، والذهبى في تاريخ الإسلام (2-66).

لم يخالفِ الجماعَة لأنهم لم يَعْمَلوا برأيه، ولكنه نزل عند رأيهم، ولم يخرج عليهم! امتثالا لأمر اللَّه: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

[آل عمران: 103].

وهذه هي التربية الإسلامية!

وسنَظل نذكر رأيَه «يومَ بَدْرٍ» فقد كان فيه قوةُ المسلمين وانتصارُهم!

إن الساكت عن الحق شيْطَانٌ أخرس!

وعلى الإنسان أن يبذل النصيحة للَّه ورسولِه ولعامة المسلمين مادام في ذلك مصلحتُهم!

علينا أن نناقشَ الأمورَ، ونقلِّبَها على جميع وجوهها ونستمع إلى آراء الآخرين ونحترمَها كما علمنا الرسول ﷺ فما ندم من استشار!!

ويقول اللَّه تعالى في شأن المؤمنين: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: 38].

وماذا يمنع كلَّ مسئول أن يقول لصاحب الرأى السديد ما قاله الرسول ﷺ: «**لقد أشرت بالرأى؟!**».

علينا أن نحترمَ الرأىَ الآخرَ، ونستمعَ إليه!

معاذ بن جبل

يقول عنه أبو نُعيم في كتابه «الحِلية»: هو إمامُ الفقهاءِ، وكنزُ العلماء!

شهِدَ العقبةَ وبدرًا، والمشَاهِدَ[1].

وكان من أفضل شباب الأنصار حِلْمًا وحَيَاءً وسخاءً وكان جميلًا وسيمًا لا يسأل اللَّهَ شيئًا إلا أعطاه!

كانوا يشبهونه بأبينا إبراهيم، ولهذا كان ابن مسعود يقول:

إن معاذًا كان أمةً قانتًا للَّه حنيفا[2].

• ويقول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عجزتِ النساءُ أن يَلِدْن مثلَ مُعاذٍ، ولولا معاذٌ لهَلك عُمَرُ!

• وعن أنس مرفوعا عند الترمذى وغيره: في ذكر بعض الصحابة: وأعمُلهم بالحلالِ الحرام «معاذ بن جبل!».

• وفي طبقات ابن سعد أن النبى ﷺ كتب إلى أهل اليمن لما بعث معاذًا: «**إنى بعثت لكم خيرَ أهلى!**».

فكيف تسنى له أن ينال هذه المنزلة؟ وبم؟

لقد كان أبو عبد الرحمن الأنصارى الخزرجى المدنى البدرى شابا أمردَ[3] حين شهد العقبة مع السبعين وبايع الرسول ﷺ مع من بايعوه على السمعِ والطاعةِ، وحمايته مما يحمون منه نساءهم وأبناءَهم إن هو هاجر إليهم، وأقام معهم بالمدينة!

حتى إذا هاجر الرسولُ ﷺ إلى المدينة، كان معاذٌ في شرف استقباله ومُلازَمته والأخذِ عنه ليُصْبِحَ أحدَ أعلامِ الأمة، له ما يميزه عن غيره. **فهو أعلمهم بالحلال والحرام.**

---

(1) العقبة: بيعة العقبة. وبدرًا: غزوة بدر، والمشاهد: الغزوات.

(2) أي قائما مقام جماعة في عبادة اللَّه. خاضعا مستقيما جامعا لصفات الخير.

(3) لم تنبت له لحية.

فعن أنس مرفوعا:

- «أرحمُ أُمّتِي بأُمَّتِي أبُو بكر.
- وأشدُّها في دين اللَّه عُمَرُ.
- وأصدقُها حَيَاءً عثمانُ.
- وأعْلَمُهم بالحلالِ والحرامِ مُعاذٌ.
- وأفرضُهم[1] زيد.
- ولكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدةَ»[2].

ولقد شهد بدرا وله عشرون سنة أو إحدى وعشرون ومما يدل على مكانته ما روى عنه، قال:

«كنت رديفَ النبى على حِمارٍ يقالُ له: عُفَير. فقال:

يا مُعاذُ!

«وهل تَدرى حقَّ اللَّه على عبادِه، وما حقُّ العبادِ على اللَّه؟

قلتُ: اللَّهُ ورسولُه أعْلَم.

قال: **فإن حق اللَّه على العبادِ أن يَعْبدُوه ولا يُشْرِكُوا به شيئا.**

وحقُّ العبادِ على اللَّه ألا يُعذبَ من لا يُشرك به شيئا!

فقلت: يا رسول اللَّه؛ ألا أبَشِّرُ الناس؟!

فقال: «**لا تُبَشِّرْهُم فيَتَّكِلُوا**».

وكان القرآنُ ينزلُ على الرسولِ ﷺ، فيتلقَّاه صحابتُه ﷺ منه كما أنزل.

وكان هناك أربعةٌ يجيدون ترتيلَه وتلاوتَه يُرْجَعُ إليهم ويَسْتَمعُ الباقون إليهم ويُنصتون، وهم كما جاء في الحديث عن عبد اللَّه بن عمر، قال:

قال رسول اللَّه ﷺ:

«**خذوا القرآن من أربعة:**

---

(1) أفرضهم: أكثر إحاطة بعلم الفرائض وهو علم المواريث، وتقسيم التركات بين المستحقين من الورثة كما فرض اللَّه لهم. وزيد: هو زيد بن ثابت.

(2) إسناده صحيح، وأخرجه أحمد 3/ 184، 281، والترمذى (3793) في المناقب.

(من ابن مسعود، وأُبَيّ، ومُعاذ بن جبل، وسالم مولى أبي حذيفة)[1].

•• جمع القرآن.

وكان معاذ بن جبل ممن أسند إليهم جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ.

فلقد جاء في الحديث عن أنس قال:

جمعَ القرآنَ على عهدِ رسولِ اللَّه ﷺ أربعةٌ كلهم من الأنصار:

أبيّ بن كعب، وزيدٌ، ومُعاذُ بن جبل، وأبو زيد أحد عمومتى[2].

• ويقول عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لو أدركتُ مُعاذًا ثم وليته، ثم لقيتُ ربى، فقال:

من استخلفتَ على أمةِ محمد؟ لقلتُ:

سمعت نبيَّك وعبدَك يقول:

«**يأتى معاذُ بن جبل بين يدى العلماء برَتْوة**»[3]

(والرتوةُ: مَدُّ البصر، أو رَمْيَةُ سهم).

ومما يدل على مكانته أن رسول اللَّه ﷺ لما فتح مكة استخلف عليها «عَتّاب ابن أسيد» يُصَلّى بهم، وخلّف مُعَاذًا يُقرئهم ويُفقِّهُهُمْ في دين اللَّه.

• وكان أبو هريرة يقول:

نعم الرجلُ أبو بكر!

نعم الرجلُ عمرُ!

نعم الرجل معاذُ بن جبل!

• ويقول معاذ: لقينى النبىّ ﷺ فقال: «**يا معاذُ! إنى لأُحبك في اللَّه**».

قلت: وأنا واللَّه يا رسولَ اللَّه! أحبك في اللَّه.

قال: أفلا أُعلمك كلمات تقولُهن دُبُرَ كُلِّ صلاة؟!:

---

(1) أخرجه البخارى (4999) في فضائل القرآن. باب القراء من أصحاب النبى ﷺ.

(2) أخرجه البخارى (5003) في فضائل القرآن باب القراء من أصحاب النبى ﷺ ومسلم (2465) في فضائل الصحابة.. والترمذى (3796) في المناقب، باب مناقب معاذ وزيد وأُبى.

(3) أخرجه أبو نعيم في الحلية 1/ 229.

رَبّ أعِنِّى على ذكرِك وشكرِك وحُسْنِ عبادتك[1]».

• ويقول معاذ:

لما بعثنى الرسولُ ﷺ إلى اليمن قال لى: «**كيف تقضى إن عرَض قضاءٌ**»؟ قلت: أقضى بكتاب اللَّهِ، قال: «**فإن لم يكن في كتاب الله**؟ قال: فسنة رسول الله ﷺ، قال: «**فإن لم يكن في سنة رسول اللَّه**؟» قلت: أجتهد رأيى ولا آلو.

فضرب على صدرى وقال: «**الحمد للَّه الذي وفَّق رسولَ رسول الله ﷺ لما يرضى رسول اللَّه**[2]».

وبعد: فهذا هو معاذ بن جبل الذي تخرج في مدرسة النبوة وكان نابغةَ زمانِه في العلم والفقه.

فكان نعم التلميذُ لخيرِ مُعَلِّم!

وكفاه شهادةُ الرسول ﷺ بأنه أعلم الأمة بالحلال والحرام، وأحد الخمسَة الذين جمعوا القرآن على عهد النبى ﷺ ويشاء اللَّه أن تكون هذه الطاقة العلمية في خدمة الإسلام والمسلمين في عهد الرسول ﷺ وصاحبيه من بعده.

فحين فتح الرسول ﷺ مكة استبقى لهم معاذَ بنَ جبل ليعلمهم القرآن ويُفَقّهَهُم في دين اللَّه.

وحين جاءت وفود اليمن معلنة إسلامَها أرسل معهم معاذَ بنَ جبل، وأرسله عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى فلسطين ليعلمَهم القرآن ويُفَقِّهَهُمْ في دين اللَّه!

وهناك حضرته الوفاة فراح يردّد: مرحبا بالموت.. زائر جاء بعد غياب.. وحبيب وفد على شوق!! وصعدت روحه إلى باريها وهو يؤدى واجبه على خير وجهٍ!

(1) أخرجه أبو داود (1522) في الصلاة باب الاستغفار.

(2) أخرجه أحمد 5/ 236، 242. لا آلو: لا أقصر.

ثابت بن قيس

خطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم

كثيرا ما يتردد في كتب السيرة أسْمَاءُ شعراءِ الرسول ﷺ: حَسّانُ بنُ ثابت، وعبدُ اللَّهِ بنُ رَواحة، وكعبُ بنُ مالك، أولئك الذين كانوا يُدافِعُون عن الإسلام بشِعرِهم ويقِفُونَ سَدًّا منيعا في مُواجهة شعراء الكفار الذين يُها جمون الإسلامَ ورسولَه ويُحاولون النَّيْلَ من الرسول ﷺ والذين آمنوا معه!

فلا يكاد يُذْكَر اسمُ واحدٍ من هؤلاء الشعراء حتى تستعيدَ الأذهانُ دَوْرَه المشرِّفَ ومواقفَه النبيلةَ..

وربما لا يعرفُ بعضُنا أن «ثابتَ بنَ قَيْس» كان خطيبَ النبى ﷺ.. حين تأتى الوفودُ من أنحاءِ الجزيرةِ العربية، ويتحدث خطيبُ كلّ وفدٍ باسمِه لِيُفاخِرَ الرسولَ ﷺ كما هى العادة عند العرب، وكان الرسول ﷺ يُشيرُ إلى «**ثابت بنِ قيس**» ليردَّ على خطيبِهم.. إنه خطيبُ الأنصار.. وخطيبُ النبى ﷺ.

وإن شئت فقل: كان «المتحدثَ الرَّسْمِيّ» باسم الإسلام والمسلمين! عند حضور الوفود والمفاخرة.

وليس أدلّ على ذلك مما حدثَ حين جاءَ وفدُ تميم ومعهم خطيبُهم: «**عُطَارِدُ ابنُ حاجب**» ليفاخروا النبى ﷺ وقالوا له: جئنا نفاخرُك فَأْذَنْ لخطيبِنا وشاعرِنا: «عُطارِد بنِ حاجب».

ويبتسم الرسولُ ﷺ، ويقول: «قد أَذِنتُ لخطيبِكم، فَلْيَقُلْ».

ووقف عُطاردُ يتحدث عن مفاخر تميم، ثم يَنْتَهى بخُيَلاء مَن يَرى أنه قد أجادَ وأفَادَ، وبَلَّغَ الغاية، والتميمون يقولون له إعجابا: لا فُضّ[1] فوك!

(1) فض الله فاه: كسر أسنانه ونثرها، ويقال في الدعاء لمن يجيد الكلام «لا يفضض اللَّه فاك».

عندئذ التفتَ النبيُّ ﷺ إلى خطيبه «قيس بن ثابت» وأَذِنَ له أن يُجيب هذا المُفَاخِرَ الذي أخذ يَتيهُ ببراعته وحُسْنِ بيانه، وإن كان قد أعدَّ الخُطْبَةَ من قَبلُ!

ووقف «ثابتُ بنُ قيسٍ» شامخا يتحدث على البديهةِ، فكان مما قاله في صدر خطبته:

«الحمدُ للَّهِ الذي السّمواتُ والأرضُ خَلْقُه..

قضَى فيهنَّ أمرَه، ووَسع كُرْسِيُّه عِلْمَه..

ولم يكُ شيءٌ قَطّ إلا من فضلِه..

ثم كان مِن قُدرتِه أن جعلَنا أئمَّةً..

واصطفى من خيرِ خَلْقِه رسولًا.. أكرمَهم نَسَبًا، وأصدقَهم حديثا، وأفضَلَهم حَسَبًا! فأنزل عليه كتابه، وائتمنه على خَلْقه، فكانَ خِيرَةَ اللَّهِ من العالمين..

ثم دعا الناسَ إلى الإيمانِ به.. فآمنَ به المهاجرونَ من قومِهِ، وذوى رَحِمِه.. أكرمُ الناس أحسابًا.. وخيرُهم فَعَالًا.

ثم كنا - نحنُ الأنصارَ - أولَ الخَلْقِ إجابةً..

فنحنُ أنصارُ اللَّهِ، ووزراءُ رسوله!

ثم قال:

نُقاتِلُ الناسَ حتى يؤمنوا باللَّهِ، فمن آمن باللَّه ورسولِه مَنَعَ مِنّا مالَه ودَمَه!

ومن كفرَ جاهدناهُ في اللَّه أبدًا، وكان قتلُه علينا يسيرا.

أقولُ قولى هذا، وأستغفرُ اللَّهَ لى وللمؤمنينَ والمؤمناتِ والسلامُ عليكم».

لقد قام «ثابتُ بنُ قَيْس»، وأجاب، وبلَغَ مَبْلَغَهُ من الصواب!!

ثابت بن قيس هذا يكاد يذوبُ خوفًا حينما نزل قول اللَّه تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾[الحجرات: 2]

وجلس يبكى ويقول:

أنا الذي أرفعُ صَوْتى فوقَ صوتِ النَّبِيِّ ﷺ.

أنا الذي أجهرُ له بالقَوْلِ!

حَبِطَ[1] عملى!

أنا من أهلِ النار!

ومر عليه «عاصمُ بنُ عَدِيّ» فسأله:

ماذا يُبكيك يا ثابت؟!

فأجابه: تُبكينى هذه الآيةُ.. (وتلاها) ثم قال: أخافُ أن تكونَ قد نزلت فيّ، وأنا رجل جهيرُ الصوت!

فذهب عاصمٌ إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ وأخبرَه بأمرِ قيس، فدعا به فقال: «**أما ترضى أن تعيشَ حَميدًا، وتُقْتَلَ شهيدًا، وتَدخُلَ الجنة؟!**».

فقال: رَضِيتُ، ولا أرفعُ صوتى أبدًا على صوت رسولِ اللَّه ﷺ، فأنزل اللَّه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: 3].

وكادَ ثابتٌ يطيرُ من الفرحِ بهذه البشرى التى بشَّرَه بها رسولُ اللَّه ﷺ..

إن رفعه صوتَه كان لضَرُورةٍ، ولم يَقْصِدْ به إيذاءَ النبى ﷺ وإن الرسولَ ﷺ قد بشّره بالجنةِ.. وكلُّ أملهِ أن ينالَ الشهادة في سبيل اللَّه!

إنه ليس مجردَ خطيبٍ بل هو مُقاتِلٌ من طرازٍ فريد..

لقد عاش حَميدا.. وكلُّ مُناهُ أن يموتَ شهيدا فمتى ينال هذه الشهادة؟

لقد قاتل في كل المعارك والغزوات مع الرسول ﷺ خلا غزوةِ بدر وما زال ينتظر الشهادة!.. ولما ينَلْ[2] هذا الشرف!

كل شيءٍ حولَه يُرَدِّدُ معَه: متى.. متى.. ثم متى؟

---

(1) أسباب النزول للسيوطى. وحبط عملى: بطل.

(2) لما ينل: حتى تلك اللحظة.

إنه يريد أن يختم حياتَه ليكونَ من الأحياءِ عند ربهم يرزقون!

وبعد..

فهذا الصحابيُّ الجليلُ: أبو عبد الرحمن ثابتُ بنُ قيسٍ الأنصاريُّ.. كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يمتلكُ ناصيَةَ الكلام، وهو جهيرُ الصوت، حاضرُ البديهةِ، قد ذُلّلت له قُطوف البيان تَذْلِيلًا!

وكان يمتلكُ بين جوانحِه قلبًا ثابتًا، وكان فارسا من فُرسَان المسلمين الأقوياء!

وهب لسانَه وسيفَه للدفاعِ عن دينِ اللَّه منذ أن عرف الإسلامَ عندما أرسلَ الرسولُ ﷺ «مُصعبَ بن عَمَيْر» إلى المدينة يُقرئُ أهلَها القرآنَ، ويُعلمُهم الإسلامَ، ويُفَقهُهُم في الدين.

لقد نزل «مُصْعبٌ» على «أسعدَ بنِ زُرارة» من بنى النجار فأقام عنده!

وذات يوم سمع ثابتُ بنُ قيس بالداعية المكِّيِّ (وكان مُصْعَب مثال الداعيةِ اللَّبِق الفَطِن وقد حباه اللَّهُ الحِلمَ والصّبرَ والأَناةَ) ومال ثابت بن قيس إلى مُصعب وهو يُرتلُ القرآنَ الكريمَ فحَلّتِ الهدايةُ قلبَه.. وأعلن الشهادتين: «أشهدُ أن لا إله إلا اللَّهُ، وأشهدُ أن محمدًا رسولُ اللَّهِ»

كما أسلمت أمه.. وأسلمت «حبيبةُ بنتُ سهل» فتزوجها!

ومنذ هذه اللحظة، وهو يعد الأوقات للقاءِ الرسول ﷺ ومبايعتِه على الجهاد والتضحيةِ في سبيلِ اللَّهِ!

وقد كان إلى جانب هذا مثلا للإيثار فقد روى أن رجلًا أتى رسولَ اللَّهِ ﷺ وقال: يا رسولَ اللَّهِ؛ أصابنى الجَهْدُ!

فأرسل النبى ﷺ إلى نسائِه فلم يَجِدْ عندهن شيئًا، فقال:

«ألا رجلٌ يُضيفُه هذه الليلةَ- رحمه اللَّه؟!».

فقام ثابت وقال: أنا يا رسول اللَّه!

وذهب لامرأتِه فقال: ضيفُ رسولِ اللَّهِ ﷺ لا تدّخِرِينَه شَيْئًا!

فقالت: واللَّه ما عندى إلا قوتُ الصِّبية.

قال: أما الصِّبْيةُ فنوّميهم، وتعالَىْ فأطفئى السِّراج، ونَطْوى بطونَنَا الليلةَ، ففعلت. ثم غدا الرجلُ على رسولِ اللَّه ﷺ فقال:

«**لقد عجب اللَّهُ - أو ضحك- من فلان وفلانة**»، فأنزل اللَّه:

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[الحشر: 9].

إن كل لحظة تمر تزيده شوقا إلى لقاء ربه!

وكأَن القدرَ كان يَدِّخِرُ له يومًا من «أيامِ الإسلام، يومَ هبَّ المسلمون يدافعون عن الدين في مواجهة «مُسَيْلمةَ الكذاب» الذي ادعى النبوة ومعه من آمن به من المرتدين!

إنه «يومُ اليَمَامَة» أشدُّ الأيامِ والمعاركِ هَوْلًا في حياةِ المسلمين!

وأحسَّ ثابتُ بنُ قيسٍ أن موعدَه قد جاء، وأن هذه المعركةَ الكُبرى تُناديه:

هيا يا ثابتَ بنَ قَيْس! لقد جاء دَوْرُك!

ويرى ثابتٌ أن «مُسَيْلمةَ» ومَن معه من المرتدين يُوَاصلون هجومَهم العنيفَ على المسلمين..

ويرى في صفوفِ المسلمين بعضَ التراخى؛ فإذا هُوَ يَصيحُ في الجماهير المبَعْثَرة: يا معشرَ المسلمين، **واللَّه ما هكذا كنا نقاتلُ مع رسول اللَّه ﷺ!**

ويترجل عن فرسه إلى الأرضِ لا لينجوَ بنفسِه من هذا السعير.. ولكن لِيَلْبَسَ كفنَه..

ثم يعودُ ثانيةً إلى ظهرِ جوادِه، ويَصيحُ مَرَّةً أخرى في تلك الجموع قائلا:

اللهمّ إنى أبرأُ إليك مما جاء به هؤلاءِ (يريد عُصبَة الكذابِ مُسَيْلمة).

وأَعْتَذِرُ إليك مما صَنَع هؤلاء (يريد قومَه).

وفي تلك اللحظات الحاسمة من حياة الأمم يتجاوب معه «**سالم مولى حُذَيفةَ**» كان يحمل راية المهاجرين، ويتفق الاثنان على الاستشهاد بصورة لم تُعرَفْ من قَبْلُ!

تُرى ماذا فعلا؟

لقد حفرا لنفسيهما حفرة عَمِيقةً، ونزلا بها واقِفَيْن، وردّا الرمالَ عليهما حتى غطت أوساطَهما!

لقد أصبحا مُثَبَّتَيْنِ في مكانهما لا يستطيعان مفارقتَه!

وراحا يضربان بسيفيهما كل مرتدٍّ أعمى الشيطانُ قَلْبَه!

حتى شَرِبَتِ الأرض العَطْشَى من دماء المرتدين وعندئذ اطمأن قلبه، وأيقن أن النصرَ قريب فأسلم الروحَ إلى بارئِها بعد أن نالته طعناتٌ قاتلةٌ، وسقط معه «سالمٌ» شهيدا!!

وصَعِدَت روحَهما إلى بارئِها مع الأنبياء والصديقين وحسن أولئك رفيقا.

أعرفت ثابت بن قيس؟! يرحمه اللَّه لقد وقف لسانه وسيفَه في سبيل اللَّه فكان له ما أراد، وتقبله ربُّه بقبول حسن.

وهكذا يكون المؤمن!

حنظلة بن الراهب الأنصارى

غسيلُ الملائكة

ذات يوم افتخر الحَيَّان من الأنصار: الأوسُ، والخَزْرج.. فقالت الأوسُ:

- منا غسيلُ الملائكة حَنْظَلةُ بنُ الراهب.
- ومنا من اهتزّ له العرشُ: سعدُ بن مُعاذ[1].
- ومنا من حَمَتْه الدَّبْرُ: عاصم بن ثابت بن أبى الأفْلح[2].
- ومنا من أُجيزت شهادتُه بشهادتين: خُزَيْمة بن ثابت[3].

أما «غسيلُ الملائكةِ» فسوف نحيا معه لنعلمَ كيف نالَ هذا التكريم، حتى قامت ملائكةُ اللَّه الكريمِ بتغسيلهِ بعد أن نالَ الشهادةَ، وقبل أن تصعدَ روحُهَ إلى باريها!

وقد يستولى عليك العجبُ وتَتَملكُكَ الدهشة إذا عرفتَ أن أباه كان أعدى أعداء الإسلام!

---

(1) ستأتى ترجمته قريبا.

(2) الدَّبْر: النحل والزنابير، ولقد نذرت أم أحد القتلى يوم أحد إن مكنها الله من رأس عاصم قاتل ولدها أن تشرب فيه الخمر. وكان عاصم قد أقسم ألا يمسه مشرك، ولا يمس مشركا طول حياته! حتى يلقى اللَّه. واستشهد عاصم حين تكالب عليه جماعة خائنة غادرة وهو يقول: اللهم إنى حميت دينك أول نهارى فاحم لحمى آخر نهارى!

وظن أعداء اللَّه أن الأوان قد آن لسلافة بنت سعد أن تشرب الخمر في رأس «عاصم» حينما أقبلوا ليجتزوه، ثم ليبيعوه لسلافة! فما كان القوم يقتربون من الجسد الكريم حتى بعث اللَّه جماعات النحل تحميه وتلسع بسمومها وجوههم وأبدانهم! ففروا هاربين ليعودوا في ظلام الليل حين يغادر النحل مكانه!

وإذا السماء تنزل سيلا مدرارًا يحمل الجثة بعيدا عن الأيدى النجسة فلا تصل إليها!

(3) كان خزيمة يُدْعى ذا الشهادتين حيث أجاز الرسول ﷺ شهادته بشهادة رجلين. ولذلك قصة ذكرتها كتب السير والأحاديث.

فلقد جاء في أسبابِ النُّزولِ للنَّيْسَابُورى ما نزل في شأن أبيه وكان اسمُه: «أبا عَامر الراهب» فسماه الرسولُ ﷺ «أبا عامر الفاسق».

عندما نزل قول اللَّه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٠٧ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ١٠٨ أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٩ لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَواْ رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

[التوبة: 107 - 110]

قال المفسرون: إن بنى عمرِو بن عَوْف اتخذوا مسجدَ «قُباء» وبعثوا إلى رسولِ اللَّه ﷺ أن يأتيَهم فأتاهم فصلّى فيه.

فحسدهم إخوتُهم بنو عمهم، وقالوا: نبنى مسجدا ونُرسلُ إلى رسول اللَّه ﷺ ليصلىَ فيه كما يُصلِّى في مسجدِ إخوانِنا، ولِيُصَلِّىَ فيه «أبو عامر الراهب» إذا قدم من الشام!

وسَمَّوْه «مسجد الضّرار!».

وكان «أبو عامر» قد تَرَهّب في الجاهلية، وتَنَصّر، ولبس المُسُوح[1]، وأنكر دين الحَنِيفِية[2] لَمَّا قَدِم رسولُ اللَّه ﷺ المدينةَ وعاداه، وسماه الرسولُ ﷺ: «أبا عامر الفاسق»، وخرج إلى الشام وأرسل إلى المنافقين بالمدينة أن استعدوا بما استطعتُم من قوةٍ وسلاح، وابنوا لي مسجدا فإنى ذاهب إلى قيصر فآتى بجُند الروم فأُخرجَ محمدًا وأصحابَه!

(1) جمع مِسْح، وهو الكساء من شعر وثوب الراهب.

(2) الحنيفية: ملة الإسلام.

فبَنَوْا مسجدًا إلى جنب «مَسْجدِ قُباء»، وكان من بَنَوْه اثنى عشر رجلا فلما فَرَغُوا منه أَتَوْا رسولَ اللَّه ﷺ فقالوا: «إنا بنينا مسجدًا لذي العِلّة والحاجة، والليلةِ المطيرة. وإنا نُحِب أن تأتينَا فتصلىَ لنا فيه» فدعا بقميصِه ليَلبَسَه، فيأتيهَم فنزل عليه القرآن، وأخبره اللَّه - عز وجل- خبر «مَسْجِدِ الضِّرار»، وما هَمُّوا به، فدعا رسول اللَّه ﷺ جمَاعة منهم وحشيٌّ قاتلُ حمزةَ وقال لهم: انطلقوا إلى هذا المسجدِ الظالمِ أهلُه فاهدموه وأحرقوه!

وأصبح مكانه مَقْلبًا للقمامة !

أما «أبو عامر» فقد مات بالشام وحيدا غريبا!! بعد حياة حافلة بالمكر، والدّس، والتآمرِ، والتحريض على الإسلام والمسلمين!

فانظر نهاية الأب.. ونهاية الابن.. وقل: إن الهدى هدى اللَّه!

الابن تُغَسَّلُه الملائكة، والأب تَلْعَنُه الملائكة!

ولكن ما سِرّ هذا اللقب الذي لُقّبَ به حنظلةُ؟

لقد أسلم حنظلةُ، وحَسُنَ إسلامُه، واختار له زوجةً مسلمة!

وفي ليلة عُرسِه.. سمع النداءَ.. فقد أقبلت قريشٌ لتثأرَ لقتلاها في غزوةِ بدرٍ، وها هى ذى تقتربُ من المدينة في أُحد!

لبّى النداءَ.. وتسلل في جُنْح الليل يحملُ سلاحَه لتكونَ كلمةُ اللَّه هى العُليا، وكلمةُ الذين كفروا السُّفْلَى!

ترك عروسَه.. وهو يهتفُ .. لبيكَ يا رسولَ اللَّه!

لبيكِ يا رايةَ الجهادِ في سبيل اللَّه!

لا شيءَ أحبُّ إليه من اللَّهِ ورسولِه وجهادٍ في سبيله!

لا زوجتُه .. ولا أبوه.. ولا أُمُّه.. ولا مالُه ولا تجارتُه.. ولا عشيرتُه!

وهكذا يكون المؤمنُ الحَقُّ!

هكذا يقرر القرآنُ في سورة التوبة الآية (رقم 24):

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: 24]

وأخذ يشقُّ الصفوفَ حتى خَلَص إلى قائد المشركين «أبى سفيان» واستعْلاهُ (ركب فوقه) وتمكنَ مِنه حتى كاد يَقْضى عليه لولا أن هجمَ على حَنْظَلَة «شَدادُ ابنُ الأوس» فضربَهُ ضربة قاضيةً!

واستُشْهد في رَيْعانِ شبابه قبل أن يَنْعَم بزَواجِه! لكنه نال الشهادة وهذا مُنْتَهَى أملِه!

ولقد سألوا امرأته.. لماذا تُغَسّله الملائكة؟

قالت: لقد كان معى حين سَمع الصيحةَ.. صيحةَ الحرب..

فقام من فورِه إلى الجهاد، ولم يتمكن من الاغتسال..

من أجلِ هذا غَسّلته الملائكةُ!

وعُرِف حنظلةُ فيما بعد بغسيلِ الملائكةِ!

وصار مَفخرةً للأوسِ حتى ليَقولَ قائلُهم:

«منا غسيل الملائكة حنظلةُ بن الراهب!».

فلا تعجب.. فالهدى هُدَى اللَّه!

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: 125].

وقد أضل اللَّهُ الأبَ، وهدى الابنَ! فسبحان اللَّه يُضلُّ من يشاء ويَهدى من يشاء! فاسألِ اللَّه الهدايةَ!

وسيظل حنظلة نموذجا يُحتَذَى..

وفيه يقول الشاعر «الأحوص»، وكان حنظلةُ خالَه:

غسَّلَتْ خـالى الملائكةُ الأبـرا رُمَـيْـتًـا، أكــرِمْ به من صَرِيـع!

وقد ذكر المبرّد نفرا ممن كان بينهم وبين الملائكة سبب (صلة):

• فمنهم «سَعْدُ بنُ مُعاذ» هبط لموته سبعون ألف ملك لم يهبطوا إلى الأرض قبلها!

وقَبضَ رسولُ اللّهِ ﷺ رجلَه وهو يمشى في جَنازته لئلا يطأ على جَناحِ ملك!

واهتز لموته عرشُ الرحمن!

وفي ذلك يقول حسَّان:

وما اهتز عـرشُ الله من مـوتِ هالكٍ
سَمِعْنا بـه إلا لمــوتِ أبـى عَـمْـرِو

وكبَّر عليه رسولُ الله ﷺ تسعًا كما كبَّر على حمزةَ!

وشَمّ من تُراب قبره ريحَ المسك.

• ومنهم حسانُ بنُ ثابت قال له الرسول ﷺ:

«**اهجم وروح القدس معك**»[1] ولا عجب، فمن كان مع اللَّه كان اللَّهُ معه!

وكانت ملائكتُه من حولِه!

فكن معَ اللَّهِ.. يكنِ اللَّهُ مَعَك!

(1) انظر ثمار القلوب من المضاف والمنسوب للثعالبى.

بشير بن سعد الأنصارى

.. وها هو ذا واحدٌ من كِبارِ الأنصارِ الذين تخرجوا في مدرسةِ النبوة!

إنه أولُ من أسلمَ من الأنصار الذين آوَوا[1] النبيَّ ﷺ ومَن مَعَه مِنَ المهاجرين ونصَروه، وشهد له الجميعُ بالبَذْلِ والتَّضْحيةِ والفِداء!

كانت البدايةُ يومَ أن أخذَ النبيُّ ﷺ يَعرضُ نفسَه على القبائل القادمةِ في مَوْسِم الحَج، لَعَلّه يجدُ أنصارًا للدين الجديدِ بعد أن شددَ أهلُ مَكّةَ عليه الحصارَ من أَجل أصنامِهم التى لَنْ تُعْبَدَ بَعْدَ اليَوم حتى يكونَ الدينُ كَلُّه للَّه!!

وقد هَيَّأ اللَّهُ لبشير أن يلتقىَ معَ النبىّ محمد ﷺ ويشهدَ «بيعة العَقَبةِ» ليكونَ على رأسِ المجموعة التى ضمت طلائعَ الأنْصَارِ الذين مَهَّدوا الطَّريقَ أمام دعوةِ الإسلامِ على الأرضِ الجديدةِ!

وكان بشيرٌ عِنْدَ وَعْدِه، فلما هاجر الرسولُ ﷺ إلى المدينةِ حَرَصَ بشيرٌ على أن يكونَ الجندىَّ المطيعَ فرأيناه في مُقَدِّمةِ الذين شَهِدُوا الغزوات مَعَ النبىّ ﷺ حتى إذا كانت السنةُ السابقةُ للهجرةِ حدث أن تآمَرَتْ قبيلةُ غَطَفَان مع عُيَيْنةَ بنِ حِصنٍ الفَزَارِىِّ على مهاجمةِ النبىِّ ﷺ والمسلمينَ في محاولةٍ مُستميتةٍ للقضاءِ على الإسلامِ!

ولما عَلِمَ الرسولُ ﷺ بما يُبَيِّتُون ويُدَبِّرونَ أرسلَ «بشيرَ بن سعدٍ» على رأس سَريّة مُكَوّنة من ثلثمِائةِ جُنْدِىٍّ ليُشَتتَ شَملهم، ويُفرقَ جُموعَهم قبل أن يستفحلَ[2] أمرُهم، ويَنْضَمَّ إليهم غيرُهم.

وحمل المجاهدون أرواحَهم على أَكُفِّهِم.. يَسْتَخْفُونَ بالليل، ويَسيرونَ بالنهار حتى يُفاجِئوا عدُوَّهم.

(1) أنزلوه عندهم.

(2) يتفاقم ويشتد ويقوى.

وعند ماءٍ لغَطَفانَ كان اللقاءُ بين جُنْدِ اللَّهِ، وجُندِ الشيطانِ.. بين المؤمنين المخلصين وبين الخونةِ المتآمرين!

واستطاع بشيرٌ أن يُوَجِّهَ إليهم ضربةً قاضيةً شتّتَتْ شملَهم، وفرّقَتْ جُموعَهُم، فلاذوا بالفِرار، وخلّفوا ورَاءَهم غنائمَ كثيرةً!

وعاد الأبطالُ إلى مدينتِهم تُرَفْرِفُ عليهم راياتُ النصر.

وكان «بَشيرُ بنُ سَعْدٍ» رجلَ المَهامِّ الصَّعبةِ؛ ففى السنة التاسعة جاءت الأنباء بوجود شِرْذِمَةٍ[1] من المتمرِّدين من بَني مُرَّة على بُعد مسيرة يومين من المدينة!

فأرسل الرسولُ ﷺ بشيرَ بن سَعْدٍ على رأسِ سَرِيَّةٍ من ثلاثين جنديا!

ووجدت «سَرِيّةُ بشيرٍ» نفسَها أمام قوةٍ أكبرَ، ولكنهم استعانوا باللَّهِ وخاضوا معركةً شَرِسَةً استمرت طوالَ الليلِ، وأُصيب أكثرُ المجاهدين مَعَ بشير!

ولكنه لم يتوقف، ولم يَسْتَسْلِم.. لقد ظل يرمى ويَرْمِى، ويتلقَّى الضرباتِ.. وهو ثابتٌ لا يلينُ!!

وجاءته إصابةٌ في كَعْبِه سقطَ بعدَها على الأرضِ مغشيًّا عليه!

حتى ظن الأعداءُ أنه قد مات!

ولكنه تحاملَ على نفسه، واستجمع ما بَقِيَ من قُوَّتِه، ووقف شامخًا كالطَّوْدِ[2]، وإذا به يَجدُ المدد.. يجد النجدة من عند اللَّه، فمن كان مع اللَّه كان اللَّهُ معه، وناصِرَه!

لقد بعث إليه الرسولُ ﷺ بمددٍ جديدٍ، وإذا الموقفُ يُصْبِحُ في مصلحةِ المسلمين حتى تحققَ لهم النصرُ على أولئك المتمردين!

وعاد بشيرٌ ومَن بَقِى معَه، وقد أثبتوا حقًّا وصدقًا أنهم جُنْدُ اللَّهِ المخلصونَ المدافعونَ عن دين اللَّه المضَحُّون بأموالِهم وأنفسِهم.. الذين صَدَقُوَا ما عَاهَدُوا عليه نبيّهم عند العقبة!

---

(1) الشرذمة: الجماعة القليلة.

(2) الطود: الجبل.

عادوا وقد تَيقَّنوا أن النصرَ من عندِ اللَّهِ، وأن اللَّهَ مع الذين اتّقَوْا وكانوا من الصَّابرين الصَّادِقين!

ويظل «بشيرٌ» نَموذجًا للسَّمعِ والطّاعة، يُسارعِ في الخيراتِ، ويقوم بدوره في المُلِمّات[1] حتى لَقِيَ الرسولُ ﷺ ربَّه!

ويخرجُ بشيرُ بنُ سعد مع جيش أُسامةَ بن زيد ضمن الجيش الذي يقودُه ذلك الفتى الشَّابُّ، مُعَبِّرًا عن ولائِه وانتمائِه!

يَخْرُجُ مع هذا الجيش الذي أعده الرسولُ ﷺ في أواخرِ صفر من السنةِ الحاديةِ عشرةَ للهجرة!

ولم يُقَدَّرْ لهذا الجيش الخروجُ في حياته ﷺ.. فبعد أن تم إعدادُ الجيش.. وبعد أن تأهَّبَ للخروج مَرضَ ﷺ مرضَه الأخير.. وكان انتقالُه إلى الرفيق الأعلى مع الأنبياءِ والصِّدّيقين والشهداءِ والصالحينَ وحَسُن أولئك رفيقًا!

لقد أثبتتِ الأيامُ أنهُ رجلٌ من طِرازٍ فَريدٍ من الرجالِ!

لقد كان حريصا على وَحْدَةِ الكلمة ووحدَةِ الصَّفِّ.

فعندما ثار جدالٌ بين المهاجرين والأنصار بعد موتِ الرسولِ ﷺ حولَ الخلافة.. وأيُّهم أحقُّ بها؟!: المهاجرون الذين سبقوا إلى الإسلامِ وعُذِّبوا وأُوذُوا وهاجروا وتركوا أموالَهم وديارَهم..

أم الأنصارُ الذين مَهّدوا للدّعوة.. ونصَرُوا الرسولَ ﷺ وآوَوْه، وقدموا كُلَّ ما يَمْلكون لإخوانِهم المهاجرين!!

وارتفع صوت وسط ليقول للمهاجرين:

«**مِنّا أميرٌ ومنكم أميرٌ**». صوتُ الحُبابِ بنِ المنذر!

تُرى ماذا كان موقف بشير وهو أنصارى له وجودُه وحضورُه، ونفوذُه؟

لقد وقف يخطب في المجتمعين قائلا:

يا معشرَ الأنصارِ..

(1) الملمات: الشدائد التى تلم وتنزل بالناس.

إنّا – واللَّهِ– لَئِنِ كُنَّا أولَ فَصِيلةٍ في جهادِ المشركين، وسابقةً في هذا الدين– ما أردنا إلا رِضَا رَبنا، وطاعةَ نبيِّنا، والكَدْحَ لأَنْفُسِنا.

فما ينبغى أن نستطيلَ بذلك على الناسِ.

ولا نبتغى به من الدنيا غَرَضًا.

فإن اللَّهَ وَلِيُّ المِنَّة[1] علينا بذلك..

أَلَا إنّ محمدًا ﷺ من قُرَيْشٍ.

وقَوْمُه أحقُّ به وأولى..

وايمُ[2] اللَّهِ ، لا يَرانى اللَّهُ أُنازِعُهم هذا الأمرَ[3] أبدًا.

فاتقوا اللَّهَ، ولا تُخالِفوهم، ولا تُنازعوهم!.

ولم يكتف بهذا بل خَطَا خُطوة عمليةً لحَسْمِ النِّزاعِ فسارع إلى «أبى بكر الصديق» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومد يدَه قائلا: هاتِ يدَكَ أُبَايِعْك خليفةَ رسولِ اللَّهِ على المسلمين أنصارًا ومُهاجرينَ!

وهكذا حَسَمَ بشيرٌ النزاعَ وفَتَح البابَ واسعًا لِوَحْدةِ الصفِّ وقَضَى على كل المطامع الشخصية بهذه الحركة الذكية!

ويقولُ التاريخُ:

لقد ظلَّ بشيرُ بنُ سعد على وفائِه وانتمائِه كما كان في عهدِ الرسول ﷺ حتى نالَ الشهادةَ التى كان يحلَمُ بها!

فبعد «معركة اليمامة» التى كان النصرُ فيها للمسلمين على «مُسَيْلمةَ الكذاب» ومن معه من المرتدين الآثمين – دارت معركة أخرى بقيادة «سيفِ اللَّهِ المسلولِ خالدِ بن الوليد».. وهى معركة «**عين التمر**» التى تقع غربى الكوفة بالعراق..

وصعدت روحه إلى باريها راضية مرضية!

---

(1) المنة (بكسر الميم): الإحسان والإنعام.

(2) يمين اللّه.

(3) أي الخلافة.

وظل الأنصارُ والمهاجرونَ يذكرون له مواقفَه التى تدل على عَقْلِهِ وحُسنِ رأيه وحِرصِه على التَّفَقُّهِ في الدين وجَمْعهِ بين الإيمان والعملِ.. وكما كان رجُلَ حرْبٍ كان رجلَ سَلامٍ!

إنهم لا يَنْسَوْنَ أنه كان يسألُ ﷺ عما خفى عليه وعليهم، فيتلَقّى منه ﷺ إجابةً شافيةً.

لقد جاء في أسباب نزول الآيات أنه لما نزل قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب: 56].

قال بشير للنبى:

يا رسولَ اللَّه، لقد أمرنا اللَّهُ أن نُصَلِّيَ عليك؛ فكيف نُصَلِّى عليك؟

فأجابه النبى ﷺ:

قولوا: **اللهمَّ صَلِّ على محمدٍ، وعلى آلِ محمدٍ كما صليتَ على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيمَ..**

وبارِكْ على مُحمدٍ وعلى آلِ محمدٍ كما باركتَ على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيمَ في العالَمين إنك حَميد مَجيد».

ولا يَنْسَوْن موقفَه حين تَوَلّى عُمرُ الخلافةَ بعد أبى بكر - رضى اللَّه عنهما - ووقف يخطب ذات يوم في المسلمين: أنصارًا ومهاجرين قال:

«أرأيتم لو أَتَرَخَّص[1] في بعضِ الأمرِ، ماذا كنتم فاعلين؟!».

فقال بشير بن سعد:

لو فعلت ذلك قومناك تقويم القدَح (أي السهم). فقال عمر: أنتم إذن أنتم!!

إنه بشير الذي تعلم في مدرسة النبى ﷺ أن لا يخشى في اللَّه لومة لائم!

وظل على وفائه وانتمائه.. هو هو لم يتغير حتى لقى ربه على الإيمان.

وهكذا يكون المؤمن!

(1) ترخص في بعض الأمور أخذ فيها بالرخصة وترك العزيمة - والرخصة: ما يغير من الأمر الأصلى إلى التيسير والتخفيف: والمراد هنا التساهل في بعض الأمور.

السيدة فاطمة الزهراء

بنت خاتَم الأنبياء، وزوجُ عليّ بن أبى طالب، وأم الحَسن والحُسين، سيدةُ نساءِ الجَنة، وأمُّ أَبيها.

دخلت التاريخَ من أوسعِ أبوابِه مع أنها كانت رابعةَ البنات في بيئةٍ فُتِنَتْ بالبنين!

استقبلها البيتُ المحمديّ قبلَ المبعثِ النبويِّ بخمسِ سنواتٍ، وقد سبقتها ثلاثُ أخواتٍ ليس لهن أخ!

واقترن مولدُها بحادثٍ جليل كان لأبيها فيه فضلُ توحيد الصفوف، وجمع الكلمة عند تجديد بناء الكعبة، وإصرارِ كل قبيلةٍ أن يكون لها شرفُ وضعِ الحجرِ الأسود!

وشبَّت فاطمةُ - رضى اللَّه عنها - بين أخواتها: زينب، ورُقية، وأم كُلثوم، وإذا بزينب تتزوج، ومن بعدها رُقيةُ وأمُّ كُلثوم!

ويخلو البيتُ مِمّن كُنَّ يُدَلِّلْنها، ويُداعِبْنَها، وإذا هى شِبْهُ وحيدةٍ إلا من ابنِ عَمّها «عليِّ بن أبى طالب» الذي ضَمَّهُ أبوها إليه واتخذه ولده، مع أنه كان يكبرُها بأربع سنوات.

وبينما هى لم تتجاوز الخامسةَ إذا بأبيها ﷺ يُوحَى إليه ويُبعث إلى الناسِ بشيرًا ونذيرًا، وتواجهُهُ قريشٌ بالعداوةِ، وتتربصُ به وبمن التفّ حوله، وآمنَ بدعوته!

ووجدت فاطمةُ نفسَها تعيشُ حياةً جديدة - رَغْمَ صِغَر سنها - بعد أن اصطفى اللَّهُ أباها نبيًّا ورسولًا.

وإذا هى تُتابعُ خُطواتِ أبيها، وتشارك أمَّها مشاعرَها تجاه أبيها، وترى ابنَ عَمِّها عليَّ بنَ أبى طالب يُعلنُ إسلامَه، ويقفُ من وراءِ أبيها في الصلاة!

وإذا بهذا البيت المسلم تنبعث منهُ شُعلةُ الإيمانِ لتضيء الدنيا.

وتمنتْ فاطمةُ أن ترى دعوةَ أبيها وقد آمن بها الجميع، لكن:

ما كُلُّ ما يتمنَّى المرءُ يُدركُه تأتى الرياح بما لا تشتهى السُّفُن

لقد أقبل أبوها ذات يوم إلى الكعبةِ، فما كاد المشركون يلْمَحُونَه حتى تكاثروا عليه، وأحاطوا به قائلين: أنت الذي تقول كذا، وكذا عن آلهتنا؟

وإذا بأبيها يقول لهم: نعم.. فأصنامكم لا تَضرُّ ولا تَنْفَعُ!

واندفع واحدٌ منهم يأخذ بِمَجمع رِداء أبيها، ويكاد يخنقُه!

وإذا هى تصيح صيحةَ استغاثة لما لَحِق بأبيها!

وإذا بأبى بكر - الذي كان قد آمن بدعوتِه - يقفُ إلى جانبه مدافعًا عنه قائلا: ويلكم!

«أتقتلون رجلًا أن يقول: ربى اللَّه!».

وإذا بهم يجتمعون على أبي بكر، ويجذبونه بلحيته ولا يتركونه إلا وقد صَدَعوا رأسَه!

وحين يغادرُ أبوها ﷺ البيتَ الحرام تَتْبَعُه عن كَثب[1]، فلا يكاد يلقاه أحدٌ من قريشٍ إلا ويُؤْذيه ويُكَذّبه!

تَرى فاطمةُ هذا، وترَى أباها ذاتَ يوم وهو ساجد في الحرم، وحوله ناسٌ من مُشركى قريش، ويجىء «عُقبة بن أبي مُعَيْط، يحملُ سَلَا جَزُور[2]، فيقذفُه على ظهرِه، فلم يرفعْ ﷺ رأسَه حتى أقدمتْ ابنتُه فاطمة ورفعت أمعاءَ الجمل وأحشاءه عن ظهر أبيها، وهى تدعو على من فعل هذا بأبيها!

ويرفع الرسولُ ﷺ رأسه، ويقول: «**اللهمَّ عليك الملأَ من قريش!**

اللهم عليك **أبا جَهلِ بنَ هِشامِ!، وعُتبةَ بنَ ربيعة، وعُقبةَ بن أبى مُعَيط، وأُبيَّ ابنَ خَلَف**».

---

(1) عن قرب.

(2) الجَزور: الناقة، وسلاها: الغشاء الرقيق الذي يحيط بالجنين ويخرج معه من بطن أمه. ويطلق على الأمعاء والأحشاء.

ولم تمض غيرُ أعوام قلائل حتى رأتهم فاطمةُ صرعى حول بدرٍ كأعجازِ نَخْلٍ خاوية!

وتعرضتْ فاطمةُ لامتحانات قاسيةٍ لإيمانها، فقد كان تعلُّقُها بأبيها، وحُبُّها له وللمؤمنين من حوله يجعلُها تتعذبُ لما يلقاه من أَذًى واضطهاد!

فلقد صحبتْ فاطمةُ أبويها في ذلك الحصار الذي فُرض على أبويها في شعْب أبى طالب سنينَ عَددًا، وحين انهارت أسوارُ ذلك الحِصارِ وعادت إلى مكة عادت لتشهدَ موتَ أمها، ثم هجرةَ أبيها إلى يثربَ، وما هو إلا أيامٌ حتى هاجرَ عليٌّ بعَد أن أدّى دورَه وسلّم الودائع إلى أصحابها!

وبقيت فاطمة وأختُها أُمُّ كُلثوم في انتظار وصولِ من يَصْحَبُهما إلى يثربَ!

تُرى هل ستمر الرحلةُ إلى يثربَ بسلام؟

لقد بعثت قريشٌ من يأتى بأبيها حَيّا أو ميتًا ورصدت لمن يأتى به «الجائزة الكبرى»، ولولا أن رأى «سُراقةُ بنُ مالك» ما رأَى من آياتِ ربِّه الكُبرى حين غاصت قدمَا فرسِه في الرمال ليتوقفَ عن مُلاحقته - لأتى به!

أما فاطمةُ وأختُها أمُّ كُلثوم فقد طاردهما اللئامُ من قريش، واستطاع الآثمُ الشِّريرُ: «الحويرثُ بنُ نُقَيْذ» اللحاقَ بهما حتى نخس بعيرَهما فرمَى بهما إلى الأرض وباء بإثمهما!

ولكنها تماسكت ونهضت لتواصلَ اللحاقَ بأبيها سيرا على قدميها!

وتحل اللعنةُ بهذا الآثمِ المجرمِ حتى كان العامُ الثامنُ للهجرة «يومَ الفتح الأكبر»، فيصدُرُ الأمرُ الكَريم بقَتْله، وإن كان متعلقا بأستارِ الكعبةِ بيدِ عَليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ!

وفي المدينة المنورة كانت هناك حجراتٌ بسيطة مطلةٌ على فِناء المسجد النبوى بعضُها من حجارةٍ مرضوصة وبعضها من جريد يُمسِكه الطين، وكانت جميعُها مسقوفةً بالجريد!

وفي هذا المنزل المتواضع تحل فاطمةُ التى يقول عنها أبوها ﷺ:

«**خير نساء العالمين أربع: مريمُ، وآسيةُ، وخديجةُ، وفاطمةُ**[1]».

تعود لترى في المدينة شيئا جديدا، فقد أصبح المسلمون أعزاء، وآخى الرسولُ ﷺ بين المهاجرين والأنصار، فأصبحوا إخوةً متحابِّين وذهب كلُّ مهاجر بأخ، وأخذَ الرسولُ ﷺ بيدِ عليٍّ، وقال: هذا أخى[2]!

ولم يمضِ إلا وقتٌ قصيرٌ حتى رأى الناسُ عليًّا صِهرًا لأخيه النبى، وزوجًا لأحبِّ بناتِه إليه!

كانت فاطمة آنذاك قد قاربت عامها الثامنَ عشر وهى تملأ فراغَ البيت الذي تركته أمُّهَا بعد أن رحلت إلى الرفيق الأعلى حتى إذا دخلت عائشةُ بنتُ أبى بكر في حياة أبيها زوجةً وربةَ بيت أدركت «الزهراء» أنه قد آن الأوان لكى تنتقلَ هى الأخرى إلى بيتٍ جديد!

فلم يمض إلا قليلٌ على دخولِ عائشةَ بيتَ زوجها النبى ﷺ حتى كانت الزهراءُ في بيتِ عليِّ بنِ أبى طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ! ولكن كيف تم ذلك؟

لقد ظَلَّ عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يتحينُ الفرصةَ لكى يُبدىَ رغبته في الزواج منها، وشجعه مَن يحيطون به قائلين له:

واللَّه ما بين المسلمين مَن له مثلُ قرابتِك من رسول اللَّه، وقد كفَلَهُ أبوك، ورَعتْه أمُّك، ثم نشأتَ في كَنَفِه، ورُبيتَ في بيته، وكنتَ أسبقَ إلى الإسلام به!

فتقدم إلى الرسول ﷺ متشجعا بما سمعه طالبا يد ابنته الزهراء، فقال له الرسول ﷺ: «**مرحبا وأهلا**»،ولم يقلها لغيره ممن طلبوها قبله، وعلى رأسهم أبو بكر وعمرَ، ولم يزد عليها!

لم يكن معه إلا درعُه التى أعطاها له الرسول ﷺ فأمره النبىُّ ﷺ أن يبيعَها ليجهزَ العروسَ بثمنها!

(1) الإصابة لابن حجر، ترجمة فاطمة (8/ 11583).

(2) أخرجه الترمذى عن ابن عمر.

واشتراها عثمانُ بأربعمائة وسبعين درهما حملها عليَّ ووضعها أمامَ الرسول ﷺ فتناولَها بيده الكريمة، ثم دفعها إلى بلال ليشترى ببعضها طِيبًا وعِطرا، ثم يدفع الباقى إلى «أم سلمة» لتشترىَ جهازَ العروس!!

فلما اشتروا الجهازَ والعطورَ جعل الرسولُ ﷺ يقبله بيده، ويقول: «**بارك اللَّهُ لأهلِ البيت**».

أما الإمام على رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقد اقتصر إعداده لبيت الزوجية على ما يلى:

فرَشَ حجرةَ النومِ بالرمل الناعم.

نصبَ خشبةً من حائطٍ إلى حائط.

إهاب كبش ومخدة ليف وضعها على الأرض.

مِنشفة علقها على الحائط.

وضع على الأرض قِربة ماء ومُنخلا لنخل الدقيق.

هذه الصورة الناصعة من تزويج الزهراء بنت خاتم الأنبياء تنقلنا إلى المبدأ الإسلامى في التخفيف عن كاهل الأزواج بالنسبة للمهور، فلم يكن مع علىٍّ مَهرٌ، فذكّره الرسولُ ﷺ بالدرع التى كان قد أهداها له !

وفي ليلة زفاف الزهراء إلى علىٍّ أمرَ رسولُ اللَّه ﷺ السيدة «أم سلمة» أن تمضىَ بالعروس إلى دار الإمام علىٍّ - كرم اللَّهُ وجْهَهُ- التى جهزها لِسُكْنَاهُما وأن ينَتظراه هناك.

وصلّى الرسول ﷺ صلاةَ العِشاء، ثم ذهب إلى على - كرم اللَّه وجهه- وهناك دعا بماء فتوضئوا منه، ثم دعا بهذا الدعاء:

«**اللهم بارك فيهما، وبارك عليهما، وبارك لهما في نسلهما**».

ثم أوصى ابنته بأن تكرمَ زوجَها.

وأوصى الإمامَ عَلِيًّا بهذه الوصية.

«**يا علىُّ، لا تَغضَبْ، وإذا غَضِبْتَ فاقعدْ، واذكر قدرةَ اللَّه تعالى على العبادِ، وحِلْمَه عنهم.**

وإذا قيل لك: اتقِ اللَّه؛ فاترك غضبَك عنك، وارجع لحلمك».

ومر عام على هذا الزواج السعيد جاء بعده الحفيد الأول لرسول اللَّهِ ﷺ ففرح به النبى ﷺ وسماه «الحسن».

ثم وُلِد بعده سِبْطُ[1] رسول اللَّه ﷺ وهو الإمام الحُسَيْنُ أبو الشهداء، وبطل كربلاء.

ومرت الأيام، ثم ولَدَتْ السيدةُ الفاضلةُ ولدَها الثالث «مُحْسِنًا» الذي تُوُفِّى وهو صغير.

ثم مَنّ اللّهُ على هذا البيت بزهرةِ بنى هاشم «السيدةِ زينبَ» حفيدةِ النبىِّ ﷺ وابنةِ الإمام على، ثم رُزِقَتْ السيدة فاطمةَ بزهرةٍ أخرى وأسمتها»:

«أُمّ كُلثوم» تَيَمُّنًا بخالتها السيدة «أم كلثوم».

وقد تزوجت أمُّ كُلثوم بنتُ الإمام علىٍّ من الفاروقِ عمرَ بنِ الخطابِ فأنجبت منه زيدا ورقية.

ويقول المفسرون[2]:

لما نزلت الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[الأحزاب: 33].

كان الرسول ﷺ عند أم سلمة.

فدعا الرسول ﷺ عليّا وفاطمةَ والحسنَ والحُسَين فغطاهم بكساء ثم قال: «**اللهم هؤلاء أهلُ بيتى وخاصَّتى.. اللهمَّ أَذْهِب عَنْهم الرجسَ وطهرهم تطهيرا**».

قالها ثلاث مرات، ثم قال: «اللهم اجعل صلواتِك وبركاتِك على آل محمدٍ كما جعلتَها على آلِ إبراهيمَ، إنك حَميدٌ مَجيدٌ».

وتصف لنا السيدة عائشةُ زوجُ النبىِّ ﷺ بعضَ فضائل فاطمةَ بنتِ رسولِ اللَّه ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم (م 7/ 142 - 143).

(1) السبط ولد الابن والابنة بكسر السين.

(2) أسباب النزول للنيسابورى (ص 266 - 267).

قالت: «كُنَّ أزواجُ النبيّ ﷺ عندَه، لم يغادر منهنّ واحدةً، فأقبلت فاطمةُ -رضى الله عنها- تمشى، ما تُخْطِئ مِشيتُها من مِشيةِ رسولِ الله ﷺ شيئًا، ما تُخْطئ مِشيتُها من مِشيةِ رسولِ اللَّه ﷺ شيئًا، فلما رآها رحّب بها، فقال: «**مَرحَبًا يا بنتى**»!!

ثم اجلَسَها على يمينه - أو- عن شماله، ثم سارّها، فبكت بكاء شديدًا!

فلما رأى جزّعها سارَّها الثانية، فضحكت!

فقلت لها: خصّك رسولُ الله ﷺ من بين نسائه بالسِّرار[1] ثم أنت تبكين؟!

فلما قامَ رسول اللَّه ﷺ سألتُها:

ما قال لكِ رسولُ اللَّهِ ﷺ؟

قالت: ما كنتُ أُفْشِى على رسولِ اللَّه ﷺ سرَّه!

قالت: فلما تُوُفَّىَ رسولِ اللَّه ﷺ قلت:

عزمت[2] عليك بما لى عليك من الحق لَمَا حدثتِنى ما قال لك رسولُ اللَّه ﷺ:

فقالت: أما الآن فنعم..

أما حين سارّنى في المرة الأولى فأخبرنى أن جبريلَ كان يعارضه[3] القرآن في كل سنة مرة.

وإنه عارضه في هذا العام مرتين.

وإنى لا أرى الأجلَ إلا قد اقترب!

فاتّقى اللَّهَ واصبرِى، فإنه نعمَ السلفُ أنا لك!

قالت: فبكيت بكائى الذي رأيتِ!

فلما رأى جزعى[4]: سارّنى الثانية فقال:

«يا فاطمةُ! أما ترضين أن تكونى سيدةَ نساءِ المؤمنين!

---

(1) بمحادثتك سرا.

(2) عزم على فلان: أمره وشدد عليه. وعزمت عليك: أقسمت.

(3) يعارضه القرآن: يقابله به.

(4) جزعى: عدم صبرى وقلة احتمالى.

أو سيدة نساء هذه الأمة؟!»

فضحكت ضحِكى الذي رأيتِ»!

هذه هى فاطمة سيدةُ «نساءِ المؤمنين»، أو «سيدةُ نساءِ هذه الأمة»

(التى أطلق عليها الرسول ﷺ «أُمّ أبيها» ويالها من تسمية توحى بالحنان والحب والرعاية والاهتمام إلى جانب المنزلة الرفيعة.

لقد لقيت ربها في الثلاثين من عمرها، أو ما دون الثلاثين!

ولما حضرها الموت تولت أمر غسلها بنفسها، ولبست ثيابها الجُدُدَ حرصا على ألا يكشفها أحد، وعُمِلَ لها نعشها قبل وفاتها!

فنظرت إليها وقالت: «سَتَرْتُمونى ستركم اللَّه»!

وتبسمت، ولم تُرَ مبتسمة بعد وفاة أبيها إلا ساعتَها.

وظلت على الأيام موضع تقدير الأجيال جيلا بعد جيل. لقد أخذت الزهراءُ مكانَها الرفيع بين أعلام النساء في التاريخ، لأنها بنتُ نَبِيّ، وزوجةُ إمام، وأمُّ شهداءَ - رضى اللَّه عنها- لقَد كانت أشبَه الناس بأبيها في مِشيتها، وحديثها، وكَلامها.

وكانت مثلا أعلى في الثبات على الحق، والاعتزاز بانتسابها إلى أبيها، والرضا بما قَسَم اللَّهُ لها! وهكذا تكون المسلمة!

كانت شديدة التمسكِ بدينها.. لا تتكلمُ حتى تُسألَ، ولا تعجلُ إلى الحديث فيما تعلم فضلا عما لا تعلم، تلازم الصمت، ولا تُكثر الكلامَ، رضى اللَّه عنها، وصلى اللَّه على أبيها، ورضى عن زوجها وولديها: الحسن والحسين.

وفي حياتهم لكل مسلم ومسلمة قدوة وأسوة! ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام: 90].

أم سلمة

كانت تخرج كل غداة[1] بالأبطح[2] تبكى حتى تُمْسِى نحوَ سنة!

فرَقّ لها أحدُ ذَويها[3] وقال:

ألا تُخرجون هذه المِسكينة؟!

فرّقتم بينها وبيَن زوجِها وولدِها!

فقالوا لها:

الحقي بزوجِك إن شئت!

فاسترجعت ابنَها من عَصَبَتِهِ[4]، وهاجرت إلى المدينة!

فكانت - رضى اللَّهُ عنها- أولَ امرأةٍ خرجت مهاجرةً إلى اللَّهِ ورسوله!

وأولَ زوجة دخلت المدينةَ!

إنها هندُ بنتُ «زادِ الركب» أحدِ أجواد العرب وقد كان معروفا بأنه إذا سافر يكفى من يُرافقونه كُلَّ ما يحتاجون إليه من زاد، ويتحملُ عنهم نفقاتِ السفرِ، ولهذا أطلقوا عليه «زاد الرَّكب[5]».

كانت من أجملِ النساءِ وأشرفِهن نسبا، وكان زوجُها أبو سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أخًا للنبي ﷺ من الرضاعة.

وهو ابنُ عَمِّها فوجدت فيه الزوجَ المثاليّ، وعاشا سعيدين في ظِلال الإسلام!

---

(1) الغداة: أول النهار.

(2) والأبطح: المكان المتسع يمر به السيل، فيترك فيه الرمل والحصى الصغار، ومنه أبطح مكة. والجمع أباطح.

(3) ذويها: أقاربها.

(4) عصبة الإنسان: قرابته لأبيه. أو قومه الذين يتعصبون له ويناصرونه.

(5) الرَّكب: المسافرون جمع راكب. والزاد: طعام يتخذ للسفر.

ولما اشتد أذى قريش، وجاوزَ الظالمون المَدى، هاجر الزوجان السعيد أن إلى الحبشة!

وهناك رزقهما اللَّهُ بوليدِهما «سَلَمة» في أرض النَّجاشِيّ!

واشتد بهما الشوقُ إلى رسولِ اللَّه ﷺ والعودةِ إلى مكةَ وبخاصة حين بلغهما نبأ إسلام عمرَ والحمزة، وأن المسلمين صاروا أعزّة. وطافوا بالكعبة معلنين إسلامَهم على الملأ من قريش، وهم يهتفون:

اللَّه أكبر.. جاء الحقُّ وزهَق الباطلُ إن الباطلَ كان زَهُوقا!

وعاد «أبو سَلمَة» ومعه «أمُّ سَلَمةَ» وابنُهما «سَلَمَةُ» لِيُواجِهَ عِداءَ قومِه «بنى مخزوم!».

لقد استجارَ بخالِه «أبى طالب»، فحاول قومُه أن يُسَلِّمَهُ أبو طالب إليهم!

فقال لهم: لقد استجار بى وهو «ابن أختى» ولا خيرَ فىّ إذا لم أحْمِه!

لم يَعُدْ أمامَ الزوجين إلا الصبرُ حتى يقضىَ اللَّهُ أمرا كان مفعولا.

وذات يوم قررا أن يهاجرَا خفية إلى المدينة المنورة، ولكن عند صفوِ الليالى يحدثُ الكدَرُ!

فقد انكشف أمرُ خُطَّتِهما، وحدث صراعٌ بين «بنى المغيرة» قومِ أمِّ سَلَمةَ، وبنى «عبدِ الأسد قومِ أبى سَلَمةَ كان من نتيجته أن حيل بين أم سلمة وزوَجها وخُلعت يَدُ «سلمةَ»، وهاجر «أبو سلمة» وحده!

وفُرِّق بينها وبين زوجها وابنها!

لكنّ قَلْبَها ظل مُعَلّقًا بالهجرة، فكانت تخرجُ كُلّ يومٍ صباحا وتظل تبكى حتى المساء!

وذات يوم مَرّ بها رَجُلٌ من بنى عَمِّها لم يُعْجِبْهُ ما حل بها حينَ رأى ما رأى من حُزنها على ولدها وزوجِها، فصاح في قومه:

ألا تُخرجون هذه المسكينة؟!

وما زال يحاولُ معهم حتى قالوا لها:

الْحَقِى بزوجِك إن شئتِ!

وعندئذ ردّ عليها أقاربُ زوجها «ابنَها» لكىْ تلحقَ بزوجها في أمان اللَّه بعد هذا العذاب الذي حل بها بسبب إيمانها باللَّه ربًّا وبمحمد نبيا ورسولا!!

لقد خرجت تريدُ زوجَها وما معها أحد مِنْ خَلقِ اللَّه غيرَ وحيدها سَلَمة.

وهيأ اللَّهُ لها «عثمانَ بن أبى طلحة» فكان كريمًا نبيلا قادَ بعيرَها حتى وصلت إلى زوجها في أمان اللَّه وحِفْظِه، ثم عاد إلى مكة من حيث أتَى!

وإذا العنايةُ لاحظتك عيونُها نَـمْ فـالمـخـاوفُ كُلُّهن أمـانُ

واجتمع الشمل بعد عَناءٍ وعذابٍ، وسعد الزوجان في ظل اللقاء والاقتراب!

وهكذا أراد اللَّه!

وقد يجمعُ اللهُ الشتيتين بعدما يَظُنَّانِ كُـلَّ الظن أن لا تلاقيا

وسعدت أمُّ سلمةَ بالدورِ البطوليِّ الذي يقوم به زوجُها أبو سلمة، وكل أمَلِه أنَ ينال الشهادةَ في سبيل اللَّهِ، ونُصرةِ دينه لتكون كلمةُ اللَّهِ هى العليا، وكلمةُ الذين كفروا السّفلى!

وراحت تؤيده وتسانده وهو يقف إلى جانب النبيِ الكريم في غَزْوَةِ بدر، وبعدها في «أُحد» حتى أصابه جُرح غَائر كاد يودِى بحياته!

ومع هذا فلم يكد جُرحه يلتئم حتى تولى قيادة سَرِيّة[1] لتأديب الخارجين على الحدود، وقام بمهمته خير قيام حيث قاد معركة ظافرة حققت أهدافَها لكن جُرحَه عاد ينزفُ بعد التئام، وزارَه الرسول ﷺ وبقى إلى جانبه حتى صَعدتْ

(1) السرية: قطعة من الجيش ما بين خمسة أنفس إلى ثلاث ثلاثمائه أو هى من الخيل أربعمائه.
وأصحاب السِّير يسمون المعركة التى لم يشهدها الرسول ﷺ سرية. وما كان ﷺ قائد الجيش فيها غزوة.

روحُه إلى باريها ولا عجبَ، فقد أدى الشهيدُ واجبَه نحو دينِه. وهو أولا وأخيرا أخو النبى ﷺ من الرضاع وابنُ عمته برّة بنتِ عبدِ المطلب!

لقد كان «أبو سلمة» رجلًا والرجالُ قليل..

وفقدت أم سلمة رَجُلَها بين غمضة عين وانتباهتها وإذا هى وحيدةٌ غريبةٌ!

لقد ولدت لأبى سلمة عُميرا، وسلمة، ودُرةَ، وزينبَ فكانت لهم بدلا من أبيهم.

وتقدم لها كبارُ الصحابة ليقوموا برعاية أولادها وحمايتِها، وليكونوا في خدمتها عَوِضًا عن زوجِها، كما كانت التقاليدُ الإسلاميةُ تقضى بذلك!

تقدم إليها «أبو بكر» يطلب يدَها فاعتذرت!

وتقدم إليها من بعده عمرُ - رضى اللَّه عنهما- فاعتذرت بأنها ذاتُ عيال، في أدبٍ ورفق!

وعندئذ رأى الرسولُ ﷺ بعدما ردت صاحبيه أنه ليس من الحِكمة أن تُتْركَ وحيدةً وهى ذاتُ عيال!

وصدر الأمرُ الكريمُ أن تُضَمّ «أمُّ سلمة» إلى أمهاتِ المؤمنين تكريمًا لجهودها، ورفعًا لشأنها، وتقديرًا لما بذلت هى وزوجُها في سبيل الإسلام!

وظل عطاءُ أم سلمة وإخلاصها للإسلام متجددا على مر الأيام!

فحين تأزّمَ الموقف في «يوم الحُدَيْبِيَة» دخل الرسولُ ﷺ على زوجته السيدةِ الفاضِلة حكيمةِ النساء: «أمِّ سلَمة» أم المؤمنين، وهو متألم حزين مما حدث في صفوفِ أصحابِه عندما رأى أن يعودَ دونَ حَجٍّ بِناء على شروطِ الصلَح التى وقّعها مع قريش على أَن يعودَ في العامِ القادم!

لكن أصحابَه - رضى اللَّهُ عنهم- اشتدَّ بهم الشوقُ لزيارة بيتِ اللَّهِ الحرامِ، فكيف يعودون وقد اقتربوا منه دون حج؟!

لقد عزّ عليهم أن يتحلّلوا من إحرامهم بنَحْرِ ذبائحهم التى كانوا قد ساقوها هديًا للحرم، وأن يحْلقوا رءوسَهم إيذانًا بتحلُّلِهم مما كانوا قد عزموا عليه!

وكرر الرسولُ ﷺ أوامرَه لأصحابه ثلاثَ مرات.

ولكنّ أحدًا لم يُبادرْ بالذبحِ والحَلْقِ، ليتحلَّلَ من إِحْرامه!

وهنا قالت له سلمة: يا رسولَ اللَّه!

أتحب ذلك؟!

اخرج ثم لا تُكَلِّمْ أحدًا منهم كلمةً، حتى تنحرَ بدَنتَك (ناقتَك) وتدعوَ حالقَك فيحلقَك!

وخرج الرسولُ ﷺ إلى أصحابه، وفعل ما أشارت به عليه حكيمة النساء زوجُه: أم سَلَمة - رضى اللَّه عنها -، فلما رَأَوْا ذلك، قاموا فنحروا، وجعل بعضُهم يحلقُ بعضًا!

وعاد المسلمون إلى المدينة، وهم لا يُدركون ما كان وراء هذا الصلح من فوائدَ لا يعلمها إلا اللَّهُ!

ومرت الأيامُ، وعرف المسلمون أن صُلْحَ الحديبية كان نصرًا عظيما للإسلام، وأن مشورةَ «أمِّ سلمة» تدل على فِطنتها ورَجاحةِ عقلِها مما جعلها جديرةً بما كان لها من مكانة عظيمة بين فقهاء الصحابة !

وقد عد الإمام أحمد أحاديثها التى روتها عن الرسولِ ﷺ في مسنده ثلاثمائة وثمانيةً وسبعين حديثًا بخلاف ما عند البخارى ومسلم.

وعاشت أمُّ سَلَمة بعدَ رسولِ اللَّه ﷺ حتى تقدم بها العمرُ، فكانت - رضى اللَّهُ عنها- آخرَ مَن مات من أمهات المؤمنين، وصلى عليها «أبو هريرة» ودفنت بالبَقيع!

وستظل حياة أم سلمةَ منارةً لكل مسلمة تَوَدُّ أن يرضى عنها ربُّها.

ذو النورَيْن عثمانُ بنُ عفانَ

بعد عامِ الفيلِ بستِّ سنوات، وفي مدينةِ الطائفِ روضةِ الحجازِ وُلِدَ عثمانُ ابنُ عفَّانَ من أبوين قُرَشِيَّيْن..

فأمه «أرْوَى بنتُ عبدِ المطَّلب» عمةُ النبى ﷺ.

وأبوه «عفانُ» يلتقى مع النبى ﷺ في جدهما «عبدِ مَناف».

ونشأ رقيق الطبع، لطيفا مُحَبَّبا لكلِّ مَن يراه حتى كان يُضْرَبُ بحبِّ قريشٍ له المثلُ، فيقال:

«حُبُّ قريشٍ لعثمانَ!».

وكان أبوه تاجرا واسع التجارة، وفي إحدى رحلاته التجارية مات عن ثروة عظيمةٍ وترك ابنَه بين الصِّبا والشباب.

وقد كان من المألوف في الجاهلية أن تتزوجَ المرأةُ بعد طلاقها أو موتِ زوجِها، فتزوجت «أرْوَى» بعد أبيه «عُقبةَ بنَ مُعيط»!

ولكن هذا الزواج ترك أثرَه في نفسِ عثمانَ مما أصابه ببعض الخجَلِ.

وازدادت الفجوةُ بينهما حين أسلمَ عثمانُ، وظل زوجُ أمِّه على كفرِه!

ويروى ابن الأثير أن «عُقبةَ بنَ مُعيط» شكاه إلى أمه - وكان قد تزوجَ بها بعدَ وفاةِ عفانَ - فقال لها: إن ابنَك قد صار ينصرُ محمدًا!

فلم تُنْكِرْ ذلكَ من ابنها وقالت:

«**ومَن أوْلَى به مِنَا؟! أموالُنا وأنفُسنا دونَ**[1] محمد!!»

لقد أسلم عثمانُ مبكِّرا قبلَ دُخول النبيِّ ﷺ دارَ الأرقم بن أبى الأرقم!

وكان أحدَ الخمسة السَّباقين إلى الإسلام!

وقد أجمع واصفوه على أنه كان يتحلّى بصفتين وهما:

الجمالُ والحياءُ.

---

(1) تحت تصرفه، وفي خدمته.

وأنه كان عذبَ الرُّوح حُلوَ الشمائل مُحَبَّبًا إلى عارفيه حتى إن نساء قريشٍ كُنَّ يُرَقِّصْنَ أطفالَهن فيقُلْن:

أُحِبُّكَ والرَّحْمَنْ حُبَّ قُرَيْشٍ عُثْمانْ

ويُروَى في قصة إسلامه كما جاء في «كتاب الرياض النضرة»: أنه ذاتَ ليلة كان بِفِنَاءِ الكعبةِ في رهْطٍ[1] من قريش إذْ أَتاهم آتٍ فأخبرهم أن محمدًا قد أنكح[2] عُتبة بن أبى لهب «رقية».

وكانت «رقيةُ» ذات جمالٍ رائع، ويقول عثمان:

فَدَخَلَتْنى الحسرةُ: لم لا أكونُ أنا سبقتُ إلى ذلك؟!

وكان له مجلسٌ عندَ صديقهِ أبى بكر، فوجده وحْدَه، فجلس إليه، فرآه أبو بكر مفكِّرًا، فسأله عن أمرهن فأخبره بما كان يُفَكِّر فيه، فقال له أبو بكر:

«ويحَك يا عثمانُ! إنك لرَجُلٌ حازمٌ ما يَخْفَى عليك الحقُّ من الباطل!».

فما كان أسرعَ مِن أَنْ مَرّ الرسولُ ﷺ ومعه عليُّ بنُ أبي طالب، فلما رآه أبو بكر قام فسَارّه في أُذنِهِ بشيْ، فجاء رسولُ الله ﷺ فقَعَدَ ثم أقبلَ على عثمانَ فقال:

«يا عثمانُ! أجِبِ اللَّهَ إلى جَنَّتِه، فإنى رسولُ اللَّه إليك وإلى خَلْقِه، ويقولُ عثمانُ:

فواللَّهِ ما تمالكتُ حين سمعتُ قولَهُ أن أسْلَمْتُ وشهدْتُ أن لا إله إلا اللَّهُ وحدَه لا شريكَ له، وأن محمدًا عبدُه ورسولُه.

ومرت أيامٌ ذاق فيها عثمانُ حلاوةَ الإيمان وازداد قربًا من النبى ﷺ، وتاقت نفسُه أن يقتربَ أكثر وأكثرَ، وأن ينالَ شرفَ مصاهرة الرسول ﷺ وخطب عثمانُ إلى رسول اللَّه ﷺ ابنته رقيّة والتى فارقها عتبةُ بنُ أبى لهب، ولم يكن قد دخل بها، فزوّجَه إياها، فازدادتِ الصلةُ بينهما توثقا، واللُّحمةُ[3] بينهما تماسكا.

(1) الرهط: الجماعة من ثلاثة أو سبعة إلى عشرة.

(2) زوّجه.

(3) اللُّحمة. بضم اللام: القرابة.

كما بَدتِ العداوةُ له من مُشركى قريش، ولم يكن أمام العروسين إلا أن يُهاجرا إلى الحبشة على رأسِ المهاجرين فِرارًا بدينهما، فاستأذن من النبىّ ﷺ فأذِن لَه!

وهناك قضى مع المهاجرين أعواما شديدة، ولم يعودوا إلا بعد أن أعزّ اللَّهُ الإسلامَ بدخول حمزةَ بن عبد المطّلب وعمرَ بن الخطاب.. ولكنَّ مسلسلَ الإيذاء مازال مستمرًّا!!

لقد عاد اليستأنفا هجرةً جديدةً إلى المدينةِ المنورة بعد أن أَذِنَ اللَّهُ لنبيه ﷺ بالهجرة إلى يثربَ..

لقد هجر في سبيل دينه مُضَحِّيًا بمالِه وتجارته!

ولكنْ كلُّ شيءٍ يهونُ في سبيلِ اللَّهِ ورسوله!

وفي المدينة مارسَ عثمانُ تجارتَه مُتَسَلِّحا بالصدق والأمانةِ والاستقامة، فربح ربحا عظيما، وبارك اللَّه له وعليه!

ولكن عند صفو الليالى يحدث الكدر!

فقد مَرضَت رقيةُ - رضى اللَّه عنها- بالحَصبة، وأذنَ النبىُّ ﷺ لعثمانَ أن يتخلفَ عن «وقْعَةِ[1] بدرٍ» للعناية بها!

ولكنها لقيت ربها يومَ ورودِ البشير إلى المدينة ينصر المسلمين في تلك الوقعةِ الحاسمةِ!

وكما كان عثمان سعيدًا بمصاهرةِ النبى ﷺ فإن حُزْنَه كان عظيما بموتِ رُقَيّة وانقطاعِ صلةِ المصاهرةِ بنَبِيّه وأكرمِ الناسِ عليه، ورآه النبىُّ ﷺ على تلك الحَال، فسأله:

«**ما لي أراك مهموما؟**» فيقول:

«وهل دخل عَلَى أحدٍ ما دخلَ عليَّ يا رسولَ اللَّه؟!

(1) الوقعة: الغزوة والمعركة.

ماتت ابنةُ رسولِ اللَّهِ التى عِندى، وانقطع ظَهرى، وانقطعَ الصِّهر بينى وبينَك».

فطيَّبَ النبىُّ خاطرُه، وزوَّجَه أختَها أُمَّ كُلْثُوم، وبقيت معه إلى أن تُوفيت في السنة التاسعةِ للهجرة بعد بنائه[1] بها بستِّ سنوات!

ويَرْوِى ابنُ عباس عن النبى ﷺ أنه قال لعثمانَ بعد موتِ رُقَيَةَ:

«والذي نفسى بيده لو أن عندى مائةَ بنتٍ تموتُ واحدةً بعدَ واحدةٍ زوجتُك أخرى حتى لا يَبْقَى من المائةِ شيء».

ولقد أُطْلِق عليه «ذو النورين» لأنه تزوج من «رقيةَ» و «أمِّ كُلثومٍ» بنتى النبى ﷺ **«ولم يُعْلَم أحدٌ تزوَج بِنْتَىْ نبىٍّ غيره».**

ولقد كان عثمان أهلًا لذلك فمنذ أسلم وهو يلازمُ النبىَّ ﷺ حيث كان، ولم يفارقْه إلا للهجرة بإذنه، أو في مهمة من المهامِّ التى يُندب لها، ولا يُغنى أحدٌ فيها غَناءه[2]!

وترك عثمان تجارتَه الواسعةَ لمن يتولاها عنه من وكلائه، وذَوِى قُرْباه.

وجعلَ بيته بيتا لمال المسلمين قبل أن يكونَ للدولةِ الإسلاميّة «بيتُ مال» فلم تحتج الرسالةُ مددًا في السِّلم أو الحرب إلا نهضَ به وحدَه، أو كان أولَ ناهضٍ به مع القادرين على بذلِ المال في هذا السبيل.

ذات يوم شكا المهاجرون تغيُّرَ الماء بالمدينة، ولم يجدوا فيها بئرا واحدة يستسيغون[3] ماءها إلا بئرا كانت عند يهودى يُغالى بثَمَنِها، فاشترى منه نصفها..

وقسم سُقْيَاهَا يومًا له، ويوما لصاحبها!

وأباح السُّقيا منها بغير ثمن للمسلمين في يومِه، فكان طلابُ الماء يأخذون منه كفايتهم في ذلك اليوم!

(1) زواجه منها والدخول بها.

(2) لا يَسُد مَسَدّه. ولا يقوم مقامه.

(3) يطيب لهم شربه.

ونظر اليهودى، فرأى أنه لا ينتفعُ من نصفِه الباقى بكثير أو قليل، فلم يجد أمامَه إلا أن يعرض على عثمانَ شراء النصفِ الباقى بأى ثمن!

وعند ذلك وهبَها عثمانُ لمن يَسْتَقِى[1] منها في جميع الأيام!

ولما ندب النبىُّ ﷺ المسلمين لغزوةِ «تبوك» لم يكن عندهم من المالِ ما يقوم بنفقاتِها لبُعد المسافة، واشتدادِ القَيظِ[2] في وقت الخروج إليها، فتكفَّل عثمانُ وحْدَهُ بثُلث نفقاتِها، وتبرع للمجاهدين بالمطايا[3] والأطعمة، وجاء بألف دينار في كُمه فنثرها في حِجْر الرسول ﷺ.

لقد كان بحق أسخى[4] الأغنياء، وأغنى الأسخياء.

وماذا تقول فيمن يشترى أرضا ليزيدَها في بناءِ المسجد، بذل فيها عشرين ألف درهم أو خمسة وعشرين ألف درهم أو خمسة وعشرين ألفا؟!

إنه نَموذَجٌ صالحٌ للقادرين من أهل الغنى لم يُضارعه[5] في سخائه أحد من أقرانه[6]، ولم يُقصّر عن معونةٍ يستطيعُها في عُسْرَةٍ أو مجاعةٍ!

ففى يوم شديد عسير خلت أسواقُ المدينةِ المنورةِ من الأغذية والأطعمةِ، وألمّ بالناس الكربُ والضيقُ إذ أقبل عليه في داره نفرٌ من تُجارِ المَدينةِ وقد عَلِموا بنبأ وصولِ قافلةٍ مُحَمّلةٍ بالبضائعِ المختلفةِ من الشام تَخُصُّ عثمانَ!

وعرضوا عليه شراءَها بما فيها قائلين:

نعطيك ضِعفَها ربحًا خالصًا، فأبى وقال:

هناك مَن أعْطَانِى أكثرَ!

فألحوا في الطلب، وزادوا في الرّبح، وهو يأبى ويقول:

هناك مَن أعطانى أكثرَ!

---

(1) يأخذ من مائها.

(2) الحر الشديد.

(3) جمع مطية. وهى ما يمتطى من الدواب.

(4) أكثرهم كرما وإنفاقا في وجوه الخير وفي سبيل اللَّه.

(5) ينافسه.

(6) جمع قِرن - بكسر القاف- وهو المماثل والشابه.

حتى وصلوا معه إلى عَرْضِ ثمانيةِ أضعافٍ!

وعند ذلك زاد عَجبُهم وقالوا له:

نحن تجارُ المدينةِ، ولا نعلمُ أَنّ هناك مَنْ يستطيعُ أن يعرضَ أكثرَ مما عَرَضْنَا!!

وعند ذلك أجابهم عثمانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

لقد أعطانى اللَّهُ - سُبحانَه وتعالى - الحسنةَ بعشرِ أمثالِها!

ثم وزّعَها على المسلمين!

وكان عثمانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مبعوث النبيِّ ﷺ في مُفاوضة قريش لمكانته عندها، ولما كان يتمع به من الحكمة والدِّراية وطول الأناة[1]

وشاع يومئذ في معسكر المسلمين على حدودِ مكةَ «يومَ الحُدَيْبيةِ» أن المشركين قتلوه!

وكانوا قد احتبسوه ثلاثة أيام يتشاورون في أمرِه، فلما دعا النبيُّ ﷺ جندَه إلى «بيعةِ الرِّضوانِ» أو «بيعةِ الشجرةِ» وضع يدَه اليمنى على يده اليسرى، وهو يقول:

«**هذه بيعةُ عثمان.. اللهم هذه عن عثمان في حاجتِك وحاجةِ رسولك**».

وإلى جانب هذا كله فقد كان عثمانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يكتب الوحى للنبى ﷺ عند نزوله.

وكان ﷺ يناديه متحببا قائلا له، وهو يملى عليه:

«**اكتب يا عُثَيْمُ**»[2].

واستخلفه على المدينة في «غزوة ذاتِ الرقاع».

وبعد أن فتح اللّه على المسلمين مكةَ المُكرمة وحجّ النبيُّ ﷺ «حَجّةَ الوداع» ولحق بالرفيق الأعلى، وكان عثمانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ممن مات النبيُّ ﷺ وهو عنهم راضٍ!

(1) الأناة: المهل والصبر والحلم ومعالجة الأمور بحكمة وتعقل.

(2) يكون التصغير أحيانا للتدليل والتودد والتحبب.

وظل عثمانُ على عهدِه ووعدِه مع أبى بكر وعمرَ، فقد كان مقرَّبًا منهما خلال خلافتِهما يستشيرانه، فيُشير، ويستنصحانه فينصح إلى جانب إشرافه على تجارتِه وزراعتِه على جارى عادته!

ولما لقى عمر بن الخطاب ربّه سمى سبعة من الصحابة ممن تُوفِّىَ رسولُ اللَّه ﷺ وهو عنهم راضٍ، ومن بينهم ابنهُ «عبد اللَّه» على أن لا يكونَ له من الأمرِ شيء.

فوقع الاختيارُ على عثمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وبايعه المسلمون خليفةً عليهم.

وقام «عثمان» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بمسئولية خيرَ قيام، فكثرت الفتوحات في أيامِه شرقا وغَربا، وامتدت رقعةُ[1] الدولة الإسلامية امتدادا عظيما.

و «المصحفُ العثمانى».. أو «مصحفُ عثمانَ» مازال شاهدا على ما قام به الخليفةُ الثالثُ نحو كتاب اللَّه الكريم.

لقد جُمع القرآن الكريمُ في حياةِ النبى ﷺ بعد أن كان مفرقا في جريد النخل، وصفائح الحجارة والعظام والجلود والرقاع، ولم يرتب يومئذ على حسب السور، وفي ذلك يقول الشنقيطى:

لم يجمع القرآن في مجلد ... على الصحيح في حياةِ أحمد

فلما كانت أيام أبى بكر أشار عليه عمر بجمعه وكتابته حين رأى حَفَظَةَ القرآن يموتون تباعا في المعارك الدائرة بين الإسلام وأعدائه.

فجمت الآيات وروجع الحُفاظ في كل آية.

ولم يشتغلوا يومئذ بنسخ ما جمعوه وإرسال النسخ إلى الأنصار لأنهم تتبعوا الآياتِ لجمعها لا لمخافة الاختلاف في قراءتها.

ولكن بعد تفرق المسلمين في الأمصار «أيام عثمان» عاد حذيفةُ بن اليَمَانِ من قِتالِ «أرْمِينيةَ» وأتى الخليفة قبل أن يدخل بَيتَه وقال له: «**أدرك الناس يا أمير المؤمنين قبل أن يختلفوا في كتاب اللَّه!**».

(1) مساحتها.

فلم يتوان عثمان بقية يومه، وأرسل إلى السيدة حفصة يطلب النسخة التى أودعها أبوها عندها قبيل وفاته!

وأمر زيدَ بن ثابت، وعبدَ اللَّهِ بنَ الزبير، وسعيدَ بنَ العاص، وعبدَ الرحمن ابن الحارث بن هشام أن ينسخوها، ثم عارضها[1] على ما يحفظه، وهو يحفظ القرآن كله، وعارضها على ما يحفظه سائر الصحابة، فخلصت له النسخة المتفق على قراءتها، وترتيب آياتها!

وأمر بعد حصول هذه النسخة لديه أن ترسل من «المصحف»- كما جمعه- نسَخًا إلى الأمصارِ[2] يعتمدونها ولا يقرءون في غيرها.

وهذا بحق «عمل عثمانى» ويا لَهُ من عمل عظيم سيبقى في صحيفة عثمانَ يشهدُ له عند اللَّه يوم الدين!

وبعد.. فهذا هو عثمان.. ذو النورين: نور اليقين، ونور الأريحية والخلقِ الأمين.

ولكن الفتنةَ النائمةَ وجَدَتْ منْ أيقظَها حين تحرّك رأسُ الأفعى (عبد اللّه بن سبأ) أحد اليهود اليمنيين الذين اتخذوا الإسلام سِتارًا، وراح ينفثُ سُمَّهُ القتّال في كلِّ مكانٍ داعيا للفتنةِ فأخذ يحرض.. ويدعو.. ويقول: إن عثمانَ قد أخذَ الخلافة بغيرِ حَقِّها، وسرت دعوتُه في بعضِ الأقطارِ فكثُرت الشِّكاياتُ وكان أكثرَها من (مصر!)، و (الكوفة!) وأحاط الثائرون الذين حركتهم الفتنةُ بيته وسيوفُهم تلمَعُ تحتَ جُنْحِ الظلَّام.

وعثمان لا يخرجُ من دَاره لائذا بقرآنه يتلو آياتِه منتظرًا قضاءَ ربَّه وتسوَّروا[3] دارَه، وامتدت أيديهم إلى جَسَدِه الطاهرِ فسال دمُه الزكيُّ على كتابِ اللَّه، وصعدت رُوحه الطاهرةُ إلى بارئها تشكو ظلمَ الدَّسّاسِين الحاقدين! وهكذا تفعل الفتنةُ .. وتعمَل الدسائسُ والمؤامرات!!

رحم اللَّه عثمان.. إنه سميع قريب مجيب الدعاء.

---

(1) عارضها: قابلها وراجعها.

(2) جمع مَصْر، والمقصود بها البلاد المفتوحة.

(3) تخطوا أسوارها.

عبد الله بن جحش المجَدّع[1] في الله

صحابيٌّ جليلٌ، ابنُ عمةِ النبيّ ﷺ «أميمةَ بنتِ عبدِ المطّلبِ بنِ هاشم».

أسلم قبل دخولِ الرسول ﷺ دارَ «الأرقمِ بنِ أبى الأرقمِ» فكان من السابقين الأولين.

كان هو وأخوه «أبو أحمدَ بن جحش» من المهاجرين الأولينَ إلى الحبشة، وكان معهما أخ ثالث هو «عبيد اللَّه بن جحش»، لكن هذا الأخَ الثالث يتنصّر بأرض الحبشة ويموتُ بها نَصرانيا، أما زوجتُه «**أم حبيبة بنت أبى سفيان**» فتتمسَّك بإسلامِها، وتبقى على دينها فيكونُ فراقٌ بينه وبينها!!

ويضُمّها الرسول ﷺ إلى زوجاته لتكون من أمهات المؤمنين، إكراما لها، وتقديرا لجهادها، ووحدتها، وغربتها!

ويُصْبحُ لهذه الأسرةِ المسلمةِ شأنُها بين المسلمين فلا يكاد «عبد اللَّه» وأخوه «أبو أحمد» وأختهم «زينب بنت جحش» وأختهم «حمنة بنتِ جحشِ» لا يكادون جميعا يعودونِ إلى مكة حتى يكونوا على رأسِ المهاجرين من مكة إلى المدينة ليكونوا من أصحابِ الهجرتين، وما أدراكَ ما أصحابُ الهجرتين؟!

وكما أصبحت «أمُّ حبيبة» زوجة عبيد اللَّه الذي تنصر إحدى أمهات المؤمنين فقد نالت «زينب بنتُ جحش» أخت عبد اللّه هذا الشرف وأصبحت إحدى أمهاتِ المؤمنين كذلك!

(1) الجدْع: القطع. والمجدّع: الذي قطعت أطرافه ومُثّل بِجُثَّتِه.

وفي المدينة كان «عبدُ اللَّه» ينتظرُ الإذنَ بالقِتال لِيُلقِّنَ المشركين درسًا لا يُنس جزاءً وفاقا لموقفهِم من المسلمين ومطاردتِهم لهم حتى أخرجوهم من ديَارِهمَ!

وتَحْكى كتبُ السيرة ما كان من أمرِ «سَرِيَّة عبد اللَّه» إلى نخلةَ.

ففى شهرِ رجب من السنة الثانية أرسل النبيُّ ﷺ «عبد اللَّه بن جحش» ومعه اثنا عشر رجلا[1] كلهم من المهاجرين.

وأعطاه كتابًا مختومًا، وأمرَه ألا يفتَحه إلا بعد أن يسيرَ يومين، ثم ينظرَ فيه فيمضىَ لما أمرَه به الرسول ﷺ.

ولا يستكرهُ أحدًا من أصحابِه!

فسار «عبد اللَّه» يومين، ثم فتح الكتابَ، فإذا فيه:

«إذا نظرتَ في كتابى هذا فامضِ حتى تنزلَ «نخلةَ» بين مكةَ والطائِفِ، فترصُدَ بها قَريشًا، وتعلمَ لنا من أخبارهم»[2].

فقال «عبدُ اللَّه» بعد أن قرأ الخطاب:

سمعًا وطاعةً!

ثم قال لأصحابه: قد أمرنى رسولُ اللَّه ﷺ أن أمضىَ إلى نخلةَ أَرْصُدَ بها قريشًا حتى آتيَه منهم بخبر.

وقد نهانى أن أستكرهَ[3] أحدًا منكم، فمن كان يريدُ الشهادةَ[4] ويرغبُ فيها فلينطلِقْ معى، ومن كَرِهَ ذلك فلْيرجِعْ!

ثم عاد يقول:

(1) وقيل كان الذين معه ثمانية رجال.

(2) سيرة ابن هشام جـ 2 ص 339.

(3) أرغمه على أداء هذه المهمة وأجبره.

(4) الشهادة: الاستشهاد: الموت في سبيل اللَّه والدفاع عن دينه.

«من كان يريدُ الموتَ فلْيَمْضِ، ولْيُوصِ، فإنى مُوصٍ[1]، وماضٍ لأمر رسول اللَّه ﷺ.

استجاب الجميعُ لنداءِ البطولةِ والشرفِ، وقال الجميع لعبد اللَّه:

ونحن سنمضى معكَ فلستَ أحرصَ على الشهادةِ منا!

وهكذا تكون إثارةُ حوافزِ التضحيةِ في القلوبِ بلا إرغام ولا احتيال!

فما لاشك فيه أن النبىَّ ﷺ كان يعرف نقاءَ معدنِ هؤلاءِ الرّجالِ، ولكنه ترك لهم الخيارَ في هذا المَوْطِنِ ليزدادوا ثقةً ورِضا، وليقومُوا بما كُلِّفوا من أعمالٍ عن طواعيةٍ واختيار.

ولعله ﷺ لم يُخبرهم وهم بالمدينة بمهمتهم خوفا من شُيوع الخبر، ومسارعةِ المنافقين بالمدينةِ أو اليهود بإعلام قريش بخبرهم فنترصدَ لهم، وتنالَ منهم وخصوصًا وقد كان عددهم قليلًا!

ثم سار «عبدُ اللَّه» بمن معه إلى المكانِ الذي حدَّده له النبىُّ ﷺ حتى إذا وصلَ إلى موضعٍ يقال له: «بَحْران» تخلف عنه اثنان من أفراد السَّرِية هما: «**سعدُ بنُ أبى وقاص**»، و «**عتبةُ بن غَزْوان**» لا لسبب إلا لأن بعيرَهما الذي كانا يتعاقبانه[2] قد ضَلّ منهما فأخذا يبحثان عنه!

ومضى «عبدُ اللَّه بنُ جَحش» وبقيةُ أصحابِه حتى وصلوا «نخلة».

وهنا وقعت المفاجأة! فقد مرّت بهم عيرٌ لقريش تحمل زبيبا، وأدَما[3]، وتجارةً من تجارةِ قريشٍ وهى في طريقها إلى مكة وكانت في حراسةِ «عمرِو ابنِ الحَضرمىّ»، و «عثمانَ بنِ عبدِ اللَّه بنِ المغيرةِ»، وأخيه «نوْفَل»، و «الحكمِ ابن كَيْسَانَ».

(1) فليوصِ: يكتب وصيته في أمره وماله وعياله عند موته.

(2) يتعاقبانه: يتابدلان ركوبه واحدا بعد الآخر.

(3) الأدم: الجلد. وقد كانت تجارة الجلود ذات أهمية اقتصادية.

تُرى ماذا فَعَلَ عبدُ اللَّه وَمن مَعَه؟

لقد بعثه النبيّ ﷺ لَيَرْصُدَ تحركاتِ قريش لا لِيُقاتِلَ، ولكنه وجد نفسَه وجْهًا لِوَجه أمام أولئك الذين أخرجوهم من ديارهم وأموالِهم! تُرَى ماذا يَفْعَلُ؟

يقول ابن إسحاق:

وتشاور «عبد اللَّهِ» ومن معه في شأنِهم، وذلك في آخر يوم من «رجب» ورجب من الأَشْهُرِ الحُرُمِ التى لا يجوز فيها القِتالُ.. فقالوا:

واللَّه لئن تركتم القومَ هذه الليلةَ ليَدْخُلُن الحَرم، فليمتنعُن منكم به! (يحتمون به).

ولئن قتلتوهم لتَقْتُلُنَّهم في الشهر الحرام!

فترددوا وهابوا الإقدامَ عليهم، ثم شجّعُوا أنفسَهم عليهم، وأجمعوا على قتلِ مَن قدَروا عليه منهم، وأخْذِ ما معهم.

فرمى «**واقدُ بنُ عبداللَّه التميمى**» «**عَمْرَو بنَ الحضرمى**» بسهم فقتله!

وأسروا «عثمانَ بنَ عبد اللَّه بن المغيرة، والحكمَ بنَ كَيْسان، وهرب «نوفلُ ابنُ عبد اللَّه»[1].

ثم عاد «عبدُ اللَّهِ بنُ جحش»، ومن معه بالعِير[2] وبالأسيرين حتى قدموا المدينةَ دون أن يتمكنَ المشركون في اللّحاقِ بهم!

ولكن عندما التقى عبدُ اللَّهِ ومَن مَعه برسولِ اللَّه ﷺ قال لهم:

«**ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام!**».

فلما قال لهم ذلك: سُقِطَ في أيديهم[3]، وظنوا أنهم قد هَلَكُوا، وعنَّفَهم إخوانُهم من المسلمين فيما صنعوا!

---

(1) سيرة ابن هشام جـ 2 ص 240.

(2) العِير: ما جُلب عليه الطعام من قوافل الإبل والبغال والحمير. وفي المثل: «فلان لا في العير ولا في النفير». يضرب للرجل الصغير القدر المستهان به.

(3) سُقط في يده: ندم وتحير، وفي التنزيل ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ [الأعراف: 149].

وقالت قريش: قد استحل محمدٌ وأصحابُه الشهرَ الحرامَ، وسفكوا فيه الدّمَ، وأخذوا فيه الأموالَ، وأسروا الرجالَ، فأنزل اللَّه تعالى قوله: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: 217] . ويقول الإمام ابن كثير معلقا على هذه الآية الكريمة: «أي إن كنتم قَتَلْتُم في الشهر الحرامِ - فقد صَدّوكُم عن سبيل اللَّه مع الكفرِ به، وعن المسجدِ الحرامِ.

وإخراجكم منه وأنتم أهلُه أكبرُ عند اللّه من قَتْلِ من قَتَلْتُم منهم.

و «الفتنة أكبرُ من القتل»: أي قد كانوا يفتنون المسلم عن دينه حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه، فذلك أكبر عند اللّه من القتل، ثم هم مقيمون على أخبثِ ذلك وأعظمِه غير تائبين ولا نازعين[1]».

ويقول صاحب المواهب: «فلما نزلت هذه الآية فرّجَ اللَّهُ عن المسلمينَ وعن أهلِ السّرِيّة ما كانوا فيه!. ولكنهم ظنوا أنه إنما نفى عنهم الإثمَ ولا أجرَ لهم، فطَمِعُوا فيه، فقالوا يا رسولَ اللَّهِ، أنطمعُ أن تكون لنا غزوةٌ نُعْطَى فيها أجرَ المجاهدين؟!

فأنزل اللَّه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[البقرة : 218]

فوضعهم اللَّه تعالى من ذلك على أعظمِ الرجاء[2].

(1) تفسير ابن كثير ج1 ص 254 طبعة الحلبى.

(2) شرح المواهب للزرقانى جـ1 ص 398.

ثم بعثت قريشٌ بعد ذلك إلى رسولِ اللَّه ﷺ في فداءِ الأسيرين اللذين أسرهما المسلمون، وهما: عثمانُ بن عبد اللَّه، والحكمُ بن كَيْسان فلم يَقْبَل النبيُّ ﷺ منهم ذلك بل قال: «**لا نَفْدِيكُمُوهُما حتى يَقدُمَ صاحبانا**»يعنى: «**سعد بن أبي وقاص**»، و «**عُتبة ابن غزوان**»، **فإنا نخشاكم عليهما، تقتلوهما نقتل صاحبيكم**».

وبعد أيام قدم سعدٌ، وعتبةُ، فقبل النبيُّ ﷺ فداءَ الحَكَمِ وعثمانَ مقابلَ أربعين أوقيةً لكل منهما.

ويقول ابن هشام:

- كانت غنيمةُ «عبدِ اللَّهِ بنِ جحشٍ» ومن معه أولَ غنيمة غنمها المسلمون.
- وكان «عمرُو بنُ الحَضْرَمِيّ أولَ قتيل قتله المسلمون.
- وكان عثمان بن عبداللَّه، والحكم بن كيسان أول أسيرين أسرهما المسلمون[1].

وكان «عبدُ اللَّه بن جحش» يدافع عن الإسلام بسيفه ولسانه فلما اتّهم المشركون المسلمين بأنهم انتهكوا حرمةَ الشهرِ الحرام فقاتلوا فيه ردّ عليهم بشِعْره قائلا:

تَعَدّونَ قتلًا في الحرام عظيمةً ... وأعظمُ منه - لو يرَى الرُّشدَ راشِدُ
صُدُودُكمُ عما يقولُ مُحَمَّدٌ ... وكفرٌ به، واللهُ شاهدُ
وإخراجكمْ من مَسْجدِ الله أهلَه ... لئلا يُرَى لله في البيتِ ساجدُ
فإنا - وإن عَيَّرتمونا بقَتْله ... وءرجفَ بالإسلام باغٍ وحاسد[2]
سَقينا من «ابن الحَضْرمِيّ، رماحَنَا ... بنخلةَ لما أوقَد الحربُ واقِدُ
دَمًا، وابنُ عبدِ الله عثمانُ بينَنا ... ينازِعُه غلُّ القيد عائِدُ

(1) سيرة ابن هشام جـ2 ص 243 المكتبة التجارية.

(2) أرجف باغ وحاسد: تهيئوا للحرب.

وظل عبد اللَّه ثابتَ الإيمان مدافعًا عن الدعوةِ وصاحبِها ينتظُر الإذنَ بالقتالِ حتى يُواصلَ جهاده في سبيلِ اللَّهِ!!

وفي أول لقاءٍ عند بدر قاتل قتالَ الأبطال حتى كان النصرُ. وها هو ذا يتطلّع إلى غزوةٍ أخرى يرفع فيها لواءَ الإسلام!

ويحدثنا التاريخ أنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قبل أن يخوض غمارَ معركة أُحُد، انتحى بصديقه «سعدِ بن أبى وقّاص» جانبا، وقال له: هَلُمّ فلْندعُ اللَّهَ، وليذكر كلُّ واحدٍ منا حاجتَه في دُعائِه ولْيُؤَمِّن[1] الآخَرُ على دعاء أخيه.

ورفع سعدٌ يَديْه إلى السماء فقال: «**يارب إذا لقيتُ العدوَّ غدا، فلَقِّنِي رجلا شديدًا بأسُه، شديدا حَرَدُه[2] أقاتله فيك ويقاتلنى!**

ثم أرزقنى عليه الظَّفر[3] حتى أقتلَه، وآخذ سَلَبَه[4].

ترى ماذا كانت أمنية عبد اللَّه حين جاء دورُه في الدعاء؟

لقد ابتهلَ إلى اللَّه وقال: «اللهمّ ارزقنى غدا رجلًا شديدًا بأسُه، شديدًا حَرَدُه أقاتله فيكَ، ويُقاتلنى، فيقتُلنى، ثم يأخذُنى، فيجدّعُ[5] أنْفِى وأذنىّ، فإذا لقيتك قلت لى: يا عبدَ اللَّه، فيم جُدع أنفُك وأذناك؟! فأقول: فيكَ ياربِّ، وفي رَسُولِك!!

فتقول لى: صدقت يا عبدَ اللَّه!!»

فلما كان الغدُ.. وكانت غزوةُ أُحُدٍ حملَ عبدُ اللَّه رُوحَهُ على كفّه فداءً للَّه ورسولِه، وجاهد في سبيل اللَّهِ حقَّ جهاده حتى تحققت دعوتُه، فسقط شهيدًا، ومثَّل المشركون بجَسدِه!

---

(1) يؤمن: يقول: آمين عندما يسمع دعاء أخيه كما نفعل نحن وراء الإمام حين يدعو ونحن نؤمّن على دعائه قائلين: آمين.

(2) الحرَد: الغضب. والبأس: الشدة.

(3) الظفر: الفوز والنصْر.

(4) السّلَب: ما يحمله القتيل من مال وسلاح.

(5) جُدع: قطع. والجدع: القطع: والمجدّع: المقطع.

لقد قطعوا أنفَه وأذنيه، وحين رآه صديقُه سعدٌ قال: كانت «دعوةُ عبد اللَّهِ» خيرًا من دعوتى!

لقد رأيتُه آخرَ النهار مِن أُحد، وإن أذنَه وأنفَه مُعَلَّقَانِ في خيط!

ومن هنا أُطْلِقَ عليه لقبُ «**المُجدَّع في اللَّه**» أي: المقُطَّعِ الأطرافِ.

ورجعت نفسُ «عبد اللَّه بن جحش» إلى ربِّها راضية مرضية!

لقد كان أملُه أن ينالَ الشهادة في سبيلِ اللَّهِ!

وها هوذا قد نالها فوق الأربعين بقليل لتسعدَ روحُه مع الرفيق الأعلى من الأنبياءِ والصَّالحينَ وحَسُن أولئك رفيقا!

وحين عاد النبى ﷺ من «أُحد» جاءته «حمنةُ» أخت عبد اللَّه وزينبَ فقال لها: «احتسبى[1] أخاك عبدَ اللَّه!»

فقالت: «**إنَّا للَّه وإنا إليه راجعون**»

فقال لها: «**احتسبى خالَك حمزَةَ!**»

فقالت: «**إنا للَّه وإنا إليه راجعون!**»

فقال لها: «**احتسبى زوجَك مُصعبَ بنَ عُمَيْرٍ!**»

فقالت: واحَرَبَاه[2]!

فقال لها: «**كيف قلتِ على «مُصْعَبِ» ما لم تقولى على غيره؟!**»

قالت: ذكرتُ يُتمَ ولدِه!

وكانت قد حضرت في أحد تسقى العَطْشَى، وتداوى الجرحى[3]!

ارحم اللَّه شهداءَنا الذين رفعوا راية الإسلام!

ومن الوفاء لهم أن نسيرَ على هداهم، وأن نَقْتَدِىَ بهم!

فبهداهم اقتده يا بنى!!

---

(1) احتسبى أخاك: ادَّخرى أجره عند اللَّه، واصبرى على وفاته.

(2) يقال: «واحَرباه» عند إظهار الحزن والتأسف، والحَرَب: الويل والهلاك.

(3) أسد الغابة ص 7 ص 69 – الطبقات 8/ 175.

عبد اللهِ بن رواحة

هو ذلك المجاهدُ بلسانِه وسيفهِ حتى نال الشهادة! لقد كان شاعرًا وهب نفسَه ورُوحَه للدفاع عن الإسلام وراح يجاهدُ بلسانِه وسيفه منذ أن بايعَ الرسولَ ﷺ عند «العقبة» على السَّمْعِ والطاعة، ونَصْرِ النبى ﷺ إذا قدم إليهم، وحمايتِه مما يحمون منه أنفسَهم وأزواجَهم وأبناءهم.

وظل علي عهدِه ووعده حتى لقىَ ربّه، وكيف لا، وقد كان أحدَ نُقَباءِ الخزرج الاثنى عشر ليلة العقبة؟!

حتى إذا قدم النبيُّ ﷺ من مكةَ إلى المدينةِ كان «عبد اللَّه بن رواحة» من الأنصارِ الذين آوَوْا ونصروا وأحسنوا استقبال النبى ﷺ!

وكان إذا لَقِيَ الرجلَ من أصحابه يقول: «**تعالَ نُؤْمِنْ بربنا ساعة!**».

وفيه يقول النبيُّ ﷺ في الحديث الذي رواه أحمد في الزهد: «**رحِمَ اللَّهُ ابنَ رواحةَ! إنه يُحبُّ المجالسَ التى تَتَباهى**[1] **بها الملائكة**».

آخى الرسولُ ﷺ بينَه وبينَ «المقدادِ بن عمرو»، فكان له نعم الأخ!

يرحمه اللَّه.. كان حريصا على طاعة اللَّه ورضاه، وطاعةِ رسوله، ومما يدل على ذلك الحديث الذي أخرجه البيهقى بسند صحيح:

كان النبى ﷺ يخطب، فدخل عبدُ اللَّه بنُ رَوَاحةَ، فسمعه يقول: «**اجلسوا**».

فجلس مكانه خارج المسجد، فلما فرغ قال له: «**زادكَ اللَّهُ حرِصًا على طواعيةِ اللَّه ورسولِه**».

سُئِلَت امرأتُه عن صنيعهِ، فقالت: كان إذا أرادَ أن يَخْرُجَ من بيتِه صلى ركعتين.

وإذا دخل بيتَه صلى ركعتين.

وكان عبدُ اللَّهِ أولَ خارج إلى الغَزْو، وآخرَ قافل (عائد).

وكان عبد اللَّه بن رواحة يُمَثِّلُ إحدى الصحف في زماننا، وإن شئت فقل: لسانَ الدعوة» المدافعَ عنها!

(1) مجالس ذكر اللَّه، ومدارسة القرآن والحديث الشريف.

لقد كان شاعرا، وللكلمة آنذَاكَ أثرُها وخطرُها، وكان لقريش شعراءٌ يهجون[1] النبيَّ ﷺ وأصحابَه وينالُون من الدعوةِ ومبادئها، فكان لا بُدَّ للدعوة الإسلامية من شعراءَ يواجهون شعراء قريش ويَرُدّون كيدَهم، ويتحدثون عن محاسِنِ الدعوة الإسلامية.

وكان «عبدُ اللَّه بنُ رواحة» حاملَ لواء الدفاع عن الإسلام بشعره من الشاعِرَيْن: حسّان، وكعب!

ولا عجب، فقد كان عظيمَ القدرِ في الجاهليةِ، وكان يناقض الشاعرَ «قيسَ ابنَ الخَطيم» في حروبهم.

ولا عجبَ أن ينزلَ بشأنه قرآنٌ يُتلى؛ فقد أخرج ابن جرير والحاكم أنه لَمّا نزلت: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾[الشعراء: 224 – 226].

قال عبد اللَّه بن رواحة: قد علم اللَّهُ أنِّى مِنهم!

فأنزل اللَّه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: 227].

جاء عبد اللَّه بن رواحة.. وكعب بن مالك.. وحسان بن ثابت.. فقالوا: يارسول اللَّه، واللَّه لقد أنزل اللَّهُ هذه الآية وهو يعلم أنّا شعراء!.. هلكنا!!

فأنزل اللَّه ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الآية.. فدعاهم الرسول ﷺ فتلاها عليهم».

فاطمأنت قلوبهم، وهدأت نفوسُهم!

إن الدعوة في حاجة إلى شعراء يردون على الأعداء!

وجاء في «الطبقات» لابن سعد، و «الاستيعاب» لابن عبد البر ما يؤكد ما كان لعبد اللَّه بن رواحة من منزلة في الإسلام.. يقول عبد اللَّه: «مررت في مسجد الرسول ﷺ، ورسولُ اللَّهِ جالسٌ، وعنده أناسٌ من الصحابةِ في ناحيةٍ منه. لما رأوْنى قالوا: ياعبدَ اللَّه بن رواحة، فجئت، فقال ﷺ: «**اجلس ها هنا**».

(1) الهجاء: الذم، وهو ضد المدح.

فجلستُ بين يديه، فقال: «**كيف تقول الشعر؟**».

قلت: أنظر في ذلك، ثم أقول.

قال: «فعليك بالمشركين».

ولم أكن قد هيأتُ شيئًا، فنظرتُ، ثم أنشدتُه الأبيات فيها:

فثَبَّتَ اللهُ ما آتاك من حَسَنٍ
تَثْبِيتَ مُوسَى، ونصْرًا كالذى نصروا

قال: فأقبل بوجهه مبتسما، وقال: «**وإياكَ فثَّبَتَكَ اللَّهُ**».

ومن أحسن ما مدح به النبى ﷺ قوله:

لو لم تكنْ فيه آياتٌ مُبَيَّنَةٌ كانت بديهتُه تُنْبيك بالخبر!

وأخرج أبو يعلى بسند حسن قال: دخل النبيُّ ﷺ مكة في عمرة القضاء وابن رواحة بين يديه وهو يقو:

خَلُّوا بنِى الكفَّار عن سبيلهِ خلُّوا فكلُّ الخَيْر في سبيله
ياربِّ إنى مؤمن بقِيلهِ إنى رأيت الحقَّ في قَبُولِه
بأن خير القتلِ في سبيلهِ اليومَ نضربكم على تنزيله

فقال عمر: يابنَ رواحة؛ أفى حرمِ اللَّهِ، وبين يَدَىْ رسولِ اللَّهِ تقول الشعر؟!

فقال ﷺ: «**خلِّ عنه يا عمرُ، فوالذى نفسى بيدهِ لكلامُه أشدُّ عليهم من وَقْعِ النَّبْلِ**»[1].

وظل عبدُ اللَّهِ بنُ رواحةَ على عهدِه ووعدهِ يجاهدُ بلسانه وسيفه ينتظر الفرصةَ المواتيةَ لكن ينالَ الشهادة!

وذات يوم بعث الرسول ﷺ «الحارثَ بنَ عُمَيْرٍ الأَزْدى» بكتابه إلى «عظيم بُصْرى فعرض له «شرحبيل بن عمرو الغسانى» وضرب عنقه!

(1) رواه الترمذى، أبواب الاستئذان والأدب، باب ما جاء في إنشاد الشعر 2/ 107.

وكان قتلُ السفراءِ والرُّسُل أشبهَ ما يكون الآن بإعلان الحرب، ولقد كان لذلك أثرُه في نفسِ الرسولِ ﷺ حين بلغه قتلُ سفيرِه وحامل كتابِه!

وهنا صدر الأمرُ الكريم بتجهيز جيش قوامه ثلاثةُ آلافِ مقاتلٍ وهو أكبر جيش إسلامى يضم هذا العدد إلا في «غزوة الأحزاب» وكانت وجهةُ الجيشِ قريةَ «مؤتةَ» بينها وبين بيت المقدسِ مرحلتان وهى بأدنى بَلْقَاءِ الشام.

ورشح ثلاثةً لقيادة الجيش هم: زيدُ بن حارثة، فإن قُتل فجعفرُ بن أبى طالب، فإن قُتل فعبدُ اللَّه بنُ رواحه!

وأوصاهم أن يأتوا المكان الذي قُتل فيه «الحارث بن عُمير» وأن يدعوَ مَن هُناك إلى الإسلام.

فإن أجابوا فلا حربَ ولا قِتالَ.

وإن رفضوا وامتنعوا استعانوا باللّه عليهم وقاتلوهم، وقال لهم: أغْزُوا باسم اللَّه في سبيل اللَّه من كفر!

لا تَغْدِروا، ولا تُغيروا، ولا تقتلوا وليدًا ولا امرأة ولا كبيرًا فانِيًا، ولا مُنْعَزِلا بصومعة!

ولا تقطعوا نخلا ولا شَجَرًا ولا تهدموا بناء»[1].

ولما تهيأ الجيش الإسلامى للخروج حضر الناسُ، وسلموا على أمراء الجيش الثلاثة، وحينئذ بكى عبد اللّه بن رواحة!

فقالوا له: ما يُبكيك؟

فقال: أما واللَّه مابى حُبُّ الدنيا، ولا صبابةً بكم! ولكنى سمعتُ رسولَ اللَّه ﷺ يقرأ آية من كتاب اللَّه يذكر فيها النار: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾[مريم: 71] فلست أدرى كيف لى بالصَّدَر[2] بعد الورود؟!

(1) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد اللَّه النجدى ص 327.

(2) صدر عن المكان والورد صَدْرًا وصَدَرًا - بسكون الدال أو فتحها - : رجع وانصرف. والمعنى لست أدرى هل سأخرج بعد أن وردتها.

فقال المسلمون: صحبكم اللَّه بالسلامة، ودفع عنكم،وردكم إلينا صالحين غانمين!

فقال عبد اللَّه بن رواحة:

لكننى أســـالُ الـرحمـنَ مغفرةً وضربةً ذاتَ قَرْع نقذف الزَّبَدَا

وتحركَ الجيشُ الإسلاميُّ وخرجَ الرسولُ ﷺ مُشَيِّعًا لهم حتى بلغ ثنيةَ الوداعِ، فوقفَ وودعهم[1].

وتحركَ الجيشُ الإسلاميُّ في اتجاهِ الشمالِ حتى نزل «مَعَان» من أرض الشام مما يلى الحجاز الشمالى.

وهناك علموا بأن جيشَ «هِرَقْل» نازل بأرض البَلْقاء في مائة ألف من الروم وانضم إليهم مثلُهم، فكيف يواجه ثلاثةُ آلاف مائتى ألف على أرضهم؟

وحار المسلمون في أمرهم، وقال بعضهم: نكتبُ إلى رسول اللَّه ليرى رأيه.. وننتظر حتى يأتينا الرد!

ولكن «عبد اللَّه بن رواحة» شَجع الناسَ قائلا:

ياقوم، واللَّهِ إن التى تكرهون لَلَّتى خرجتم تطلبون الشهادة، وما نُقاتل بعَدَدٍ ولا قوةٍ ولا كثرةٍ، وما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا اللَّه به، فانطلِقوا فإنما هى إحدى الحُسنيين: إما ظهورٌ[2] وإما شهادةٌ.

وأخيرا استقر الرأى على ما دعا إليه عبد اللَّه بن رواحةَ.

والتقى الفريقان وبدأ القتالُ المَرِيرُ!

(1) ابن هشام 2/ 373، 374. وزاد المعاد 2/ 156.

(2) ظهور: انتصار وغلبة.

معركةٌ عجيبة تشاهدُها الدنيا بالدهشةِ والحيرةِ، ولكن إذا هبت ريح الإيمانِ جاءت بالعجائب!

أخذ الرايةَ زيدُ بنُ حارثةَ وظل يقاتلُ في بسالةٍ لا نظيرَ لها حتى خَرَّ صريعا.

وأخذ الرايةَ من بعدهِ «جعفرُ بن أبى طالب» ذو الجناحين!

فقاتل حتى قُتل، وبه خمسون ما بين طعنةٍ وضربةٍ!

ولما قُتِلَ «جعفر» حمل الراية «عبدُ اللَّه بنُ رواحة» وتقدم بها وهو على فَرَسِه وجعل يقول:

أقسمتُ يا نفسُ لتنزِلَنَّهْ كارهةً أو لَتُطَاوِعِنَّهْ

فقاتل حتى قتل! وحقق لنفسه ما تمناه.. ورضىَ عنه اللَّه!

وجعلَ الجنةَ مثواه!

وحمل الراية «خالد بن الوليد» فاستطاع إنقاذَ الجيش الإسلاميِّ بمكيدةٍ حربيةٍ أنقذت الجيش بعد أن استشهد منه اثنا عشر رجلا، أما الرومانُ فلم يُعرف عدد قتلاهم، وكانت هذه المعركة تمهيدا لفتح بلاد الرومان فيما بعد!.. لقد عرفوا عَدُوَّهم وكانت هذه الغزوة تدريبا عمليا لهم!

عبد الله بن سلام

•• شاهد بنى إسرائيل على نبوة محمد ﷺ

قال عنه الإمام الذهبى:

الإمام الحَبْرُ[1]، المشهود له بالجنة..

أبو الحارث الإسرائيلى، حليفُ الأنصار..

من خواصّ أصحابِ النبى ﷺ.

فكيف نال هذه المنزلة لدى الرسولِ ﷺ، ولم يكن ممن هاجروا، ولا من الأنصارِ، وإنما هو حليفُ الأنصارِ فقط؟!، ولم تَسبِقْ له رؤيةُ النبىِّ ﷺ قبل هجرتِه إلَى المدينة؟!

لقد كان اسمه: «الحُصَيْن»،فغيّره النبى ﷺ بعبد اللَّه[2] ويَحْكِي «عبدُ اللَّهِ بن سَلَام» قصة إسلامه قائلا:

لمَّا قدِمَ النبىُّ ﷺ المدينةَ، انجفل الناس عليه[3]، وكنت فيمن انجفل!

فلما رأيتهُ عرفتُ أن وجهَه ليس بوجهِ كذّاب!

فكان أولُ شيء سمعتُه يقول:

«يأيها الناسُ.. أَفْشُوا السلام..

وأطعِمُوا الطعامَ..

وصِلُوا الأرحَامَ..

وصَلُّوا بالليلِ والناسُ نيام..

(1) الحبر: العالم. بفتح الحاء، وكذلك بكسرها.

(2) المستدرك 3/ 413.

(3) انجفل الناس عليه: اجتمعوا.

تدخلوا الجنة بسلام»[1].

وراح يفكرُ فيما يدعو إليه نبيُّ الإسلام..

إنه لا يدعو إلى شَرٍّ.. يدعو إلى السلامِ.. إطعام الطعامِ.. وصلةِ الأرحامِ.. والصلاةِ بالليل والناس نيام،.. وما أجملَها من دعوة!

فيها الأمنُ.. وفيها الأمانُ.. وفيها المحبةُ وفيها التكافلُ والتعاون!

وراح يفكرُ في أمرِ الداعى والدعوة..

أَهُوَ النبى المنتظَر الذي بشَّرت به «التوراةُ».. ونجده مكتوبا عندنا؟

لا بُدَّ من اختباره ومعرفةِ مدَى صِدقِهِ..

فأتى رسول اللَّه ﷺ فقال:

إنى سائلُك عن ثلاثٍ لا يَعْلَمُها إلا نبيٌّ:

- ما أولُ أشراطِ الساعة؟
- وما أولُ ما يأكلُ أهلُ الجنة؟
- ومِنْ أَيْنَ يُشْبِهُ الولد أباهُ وأُمَّهُ؟

فقال ﷺ: «**أخبرَنى بهن جبريلُ آنفًا**»[2]

قال عبد الله بن سلام: ذاك عدوُّ اليهودِ من الملائكة!

قال ﷺ: أما أولُ أشراطِ الساعةِ، فنارٌ تخرجُ من المَشْرِقِ فتحشرُ الناسَ إلى المغربِ!

وأما أولُ ما يأْكُلُه أهلُ الجنة فزيادَةُ كبدِ الحُوتِ (زائدتها).

وأما الشَّبَهُ: فإذا سبقَ ماءُ الرجُلِ، نزع إليه الولد..

وإذا سبق ماءُ المرأةِ نزعَ إليها».

---

(1) إسناده صحيح، وأخرجه أحمد 5/ 451، والترمذى (2487) وصححه الحاكم 3/ 13. ووافقه الذهبى.

(2) آنفا: أول هذه الساعة. أو قريبا.

قال: أشهدُ أنك رسولُ اللَّه!

وأخذ «عبد اللَّه» يفكر فيما يكون عليه موقفُ يهود المدينة منه، وهو عالمهم، وحَبْرُهم وسيدُهم.

إن إسلامه سيكون له دَوِيُّه فيما بينهم!

تُرى ماذا يكون موقفهم منه؟

وفكرَ عبدُ اللَّهِ وقدَّر!

وقال لرسول اللَّه ﷺ:

يارسول اللَّه، إن اليهود قوم بُهتٌ[3].

وإنهم إنْ يعلَموا بإسلامى بهتونى[4].

فأرسِلْ إليهم فسَلْهُم عنى.

فأرسل ﷺ إليهم فقال: «أيُّ رَجُلٍ ابنُ سَلَامٍ فيكم»؟

قالوا: حَبْرُنا، وابنُ حَبْرِنا، وعالمُنا وابنُ عالمِنا!

قال ﷺ: أرأيتم إن أسْلمَ تَسْلمِونَ؟!

قالوا: أعاذَهُ اللَّهُ من ذلك!

قال: فخرج عبدُ اللَّهِ فقال: **أشهدُ أَنْ لا إِلهَ إلا اللَّهُ وأشهدُ أن محمدًا رسولُ اللَّه!**

فقال: شَرُّنا وابنُ شَرِّنا، وجاهِلُنا وابنُ جاهلِنا!

فقال: يا رسولَ اللَّهِ، ألم أُخْبرْك بأنهم قَومٌ بُهْت؟!

---

(3) أخرجه البخارى 6/ 261 في أول الأنبياء، 7/ 212 في مناقب الأنصار ونزع إليه: مال وأشبهه، وبُهُت (بضم الباء والهاء، ويجوز إسكان الهاء) جمع بهيت كقضيب وقُضُب، وقليب وقلب، وهو الذي يبهت السامع بما يفتريه عليه من الكذب.

(4) قذفونى بالباطل.

وأنزل اللَّه فيه:﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ [الأحقاف: 10][1].

ولزم عبدُ اللَّهِ بنُ سَلامٍ رسولَ اللَّه ﷺ وأصبح قريبا منه!

ويرى عبدُ اللَّهِ بنُ سلامٍ علاماتِ القَبولِ والرضا في حياتِه، فإذا الناسُ حين يَرَوْنَه يُشيرون إليه قائلين: **هذا رجل من أهل الجنة!!**

فمن أين لهم هذه البشرى التى لا ينالُها إلا المخلصون؟

جاء في الحديث الذي رواه البخارى ومسلم عن قيس بن عُباد قال: كنت في مسجد المدينة، فجاء رجل بوجهه أثرٌ من خُشوعٍ، فقال القوم: هذا من أهلِ الجنة!

فصلى ركعتين، فأوجز فيهما، فلما خرج، اتَّبَعْتُه حتى دخل منزلَه، فدخلتُ معه، فحدثتُه، فلما استأنس قلت: إنهم قالوا لما دخلت المسجد: كذا وكذا!!

قال: سبحانَ اللَّه!

ما ينبغى لأحدٍ أن يقولَ ما لا يَعْلَمُ! وسأحدّثُك:

«إنى رأيت رؤيا فقصصتُها على النبيِّ ﷺ:

رأيت كأنى في رَوْضَةٍ خضراءَ، وسطُها عمودُ حَديدٍ، أسفلُه في الأرض، وأعلاهُ في السماءِ.

في أعلاه عُرْوَةٌ، فقيل لى: اصعد عليه فصعَدْتُ حتى أخذتُ بالعُروة، فقيل لى:

استمسك بالعُرْوَة، فاستيقظتُ وإنها لفى يدى.

فلما أصبحت أتيت رسول اللَّه ﷺ، فقصصتُها عليه، فقال:

«**أما الرَّوْضةُ؛ فروضةُ الإسلام.**

(1) أخرجه الشيخان. وانظر أسباب النزول للسيوطى.

وأما العمودُ؛ فعمودُ الإسلام.

وأما العُرْوةُ؛ فهى العُروةُ الوُثقى.

أنتَ على الإسلامِ حتى تموتَ»[1].

قال: وهو عبد اللَّه بن سلام.

ويصبح ابن سلام عضوا عاملا بين المسلمين يسمع من الرسول ﷺ ويَرْوى عنه ما سَمعَه، وإذا هو أحد الثِّقاتِ الذينَ نأخذُ عَنْهُم ونَثِقُ بهم!

ففى الحديث الذي أخرجه مسلم (317) بلفظ:

«إذا دخل أحدُكم المسجدَ، فلْيُسَلِّم على النبيِّ ﷺ، وليقل:

اللَّهُمَّ افتح لى أبوابَ رحمتِك.

وإذا خرج، فلْيَقُل: اللهمُّ إنى أسألك مِنْ فَضْلِكَ».

وظل عبد اللَّهِ بن سَلام وفيًّا على عهده ووعده حتى لَقِيَ رَبّهُ سنةَ ثلاثٍ وأربعين من هجرةِ المصطفى ﷺ.

وكلما فتحنا المصحف على سورة الأحقاف ذكرتنا الآية (رقم 10) بعبد اللَّه ابن سلام، ففيه نزلت كما أخرج الشيخان.

ويروى في أسباب النزول فيما أخرجه الطبرانى بسند صحيح عن عوف بن مالك الأشجعى قال:

انطلق النبيُّ ﷺ وأنا معه حتى دخلنا كنيسةَ اليهود يومَ عيدهم، فكرهوا دخولَنا عليهم، فقال لهم رسولُ اللَّهِ ﷺ:

«يا معشر اليهود؛ أرونى اثنى عشَرَ رجلًا منكم يشهدون أن لا إله إلا اللَّهُ، وأن محمدًا رسول اللَّه- يَحُطّ اللَّهُ عن كل يهودى تحت أديم السماء الغضبَ الذي عَلَيْه» فسكتوا، فما أجابه منهم أحد، ثم انصرف!

(1) أخرجه البخارى 7/ 98 في المناقب، ومسلم (2484) وأحمد 5/ 452).

فإذا رجل من خلفه، فقال:

كما أنت يا محمدُ، فأقبلَ، فقال:

أيّ رجلٍ تعلمونني منكم يا معشرَ اليهود؟!

قالوا: واللَّه ما نعلمُ فينا رجلًا كان أعلمَ بكتابِ اللَّهِ، ولا أفقه منك، ولا مِن أبيك قبلَك، ولا من جَدِّك قَبْل أبيك!

قال: فإني أشهدُ أنه النبي الذي تجدونَ في التوراة!

قالوا: كذبتَ، ثم رَدُّوا عليه، وقالوا فيه شرًّا، فأنزل اللَّه:

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾

[الأحقاف: 10، 11].

رضى اللَّه عنه، لقد نزل في فضله قول اللَّه تعالى:

﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾

[الرعد: 43]

لقد شهد مع عمر بن الخطاب فتح بيت المقدس والجابية، وتوفى سنة ثلاث وأربعين.

وقد روى في صحيحي البخارى ومسلم عن سعد بن أبى وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «ما سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول لحى يمشى على وجه الأرض:

إنه من أهل الجنة إلا لعبد اللَّه بن سلام. قال: وفيه نزلت: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ [الأحقاف: 10].

إن الساكت عن الحق شيطان أخرس!

فمتى نقول الحق وننطق به؟!

ولنا في عبد اللّه بن سلام أسوة حسنة!

سالم مولى أبى حذيفة

من السابقين الأولين البَدْريِّين المقربينَ العالِمين.

ما رأيُك فيمن كان يَؤُمُّ المهاجرين الذي قدموا من مكة إلى المدينة؟

لقد كان أقرأهم!

وما رأيك فيمن قال له الرسول ﷺ:

«**الحمد للَّه الذي جعل في أمتى مِثْلكَ**[1]!»

وتحكى السيدة عائشة - رضى اللَّه عنها - قالت: استبطأنى رسولُ اللَّه ﷺ ذاتَ ليلة، فقال:

ما حَبَسكِ؟

قلت: إن في المسجدِ لأحسنَ مَن سمعتُ صوتًا بالقرآن!

فأخذ رداءَهُ وأخذ يَسمعُه، فإذا هو سالمٌ مَولى أبى حُذَيْفَةَ، فقال: «**الحمد للَّه الذى جعل في أمتى مثلك**» (قال الذهبى: إسناده جيد).

ولما انكشف المسلمون «يومَ اليمامةِ» قال سالم مولى أبى حذيفة:

ما هكذا كنا نفعل مع رسول اللَّه ﷺ!!

فحفر لنفسه حفرة، فقام فيها ومعه رايةُ المهاجرين يومئذ ثم قاتل حتى قُتِل.

وتنْتهى المعركة بانتصار المسلمين على عدوِّ اللَّه «مُسَيْلمَةَ الكَذَّاب» وإذا بسلام ومولاه أبى حذيفة.

رأسُ أحدِهما عندَ رِجْلى الآخر صريعين - رضى اللَّه عنهما.

هذا هو سالم.. فمن أبو حُذَيْفَةَ مَوْلَاه؟

إنه السيدُ الكبير الشهيد أبو حُذَيفة ابنُ شيخ الجاهلية عُتبةَ بن ربيعةَ بنِ عبدِ شمس بن مَناف.

دعا أباهُ عُتبَةَ «يومَ بَدْر» إلى المبارزة فقالت أختُه أمُّ معاويةَ هند بنت عُتْبة تزِّمُّه قبل إسلامها:

الأحـول الأثقل المذمومُ طائرهُ ... أبو حذيفةَ شر الناسِ في الدينِ

(1) رجاله ثقات وإسناده صحيح وأخرجه أحمد 6/ 165.

أما شكرتَ أبًا ربَّـاك من صِغَرٍ حتى شببتَ شبابا غير مَحْجون[1]

وقد عقد أبو حُذيفةَ مع سالم «عقد[2] ولاء» وتبناه أبو حذيفة وقد بلغ من منزلته أنه كان يؤم المهاجرين بقُبَاء[3] وفيهم عمرُ!

لأنه كان أكثرَهم قرآنا. وأصحاب القرآن في المقدمة!

وكان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول:

لو أدركنى أحدُ رجلين، ثم جعلتُ الأمرَ إليه، لَوَثِقْتُ به: سالم مَوْلَى أبى حذيفة، وأبو عُبيدة بن الجراح.

لقد رفعه العلم بكتاب اللَّه!

ولا عجَب فالعِلمُ يرفعُ بيتًا لا عمِادَ له!

لقد سوى الإسلامُ بينه وبين غيره، فأكرمنا عند اللَّه أتقانا!

لا فضل لعربى على عَجَمىٍّ إلا بالتقوى والعمل الصالح وقد سما بسالم عِلْمُه، وتقواه، وعَمَلُه الصالح!

وقديما قال شاعرنا:

كُـنِ ابـن مَـنْ شئت واكتسب أدبـا
يُـغـنـيـك محـمـودُه عـن الـنَّـسـبِ
إن الـفـتـى مـن يـقـول هـأنـذا
ليس الفتى مـن يـقـول: كـان أبى

لقد رفعه القرآنُ: فأخذ الرسولُ ﷺ يحمدُ اللَّهَ على أن وهب الأمَّة الإسلاميةَ مثلَ «سالم» ويظل سالم على مر الزمن منارة يهتدى بها أبناء الإسلام!

إن الطريقَ إلى الرِّفعة.. عِلْمٌ وعملٌ.. وتقوى!

فهل عرفت طريقك إلى المجد؟!

---

(1) أخرجه ابن سعد 3/ 1/ 95. حجن العود يحجنه حجنا: عطفه. والمحجن: العصا المعوجَّة.

(2) الوَلاء: النُّصْرة، لكنه خُص في الشرع بولاء العِتق!

(3) قُباء: موضع بقرب المدينة.

عبد الله بن حذافة السهمى!

أحدُ السابقين إلى الإسلام.. والمهاجرين إلى الحبشة حين اشتد الأذى بالمسلمين الأوائل!

ولما أذنِ الرسولُ ﷺ لأصحابه بالهجرةِ إلى المدينةِ هاجرَ إلى المدينة المنورة، وظلّ في انتظار الإذن بقتالِ المشركين حتى إذا كانت «غزوةُ بدر» كان من المقاتلين في سبيل اللَّه المدافعين عن دينه.

وقام يصلى ذات يوم فجهر بالقراءة فقال له النبيُّ ﷺ:

«يا بنَ حُذافةَ؛ لا تُسَمِّعْنى، وسَمِّعِ اللّهَ»[1].

وكانت فيه «دُعابة» فبينما هو في إحدى السَّرايا أميرٌ على من معه إذْ أوْقَدَ القومُ نارًا يَصْطَلُون بها، ويصنعون عليها صنيعًا لهم، إذ قال: أليس لى عليكم السمعُ والطاعةُ؟

قالوا: بلى.

قال: فإنى أعزِمُ عليكم بحقى وطاعتى إلّا تَوَاثَبْتُم في هذه النار!

فقام ناس فتحجَّزوا (تهيئوا وشدوا أوساطَهم).

حتى إذا ظن أنهم واقعون فيها قال:

أمسِكوا.. إنما كنتُ أضحكُ معكم!!

فلما قدموا على رسول اللَّه ﷺ ذكروا ذلك له فقال:

«مَنْ أمَركم بمعصيةٍ فلا تُطيعوه»[2].

ويقول ابن جُريج: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ [النساء: 59].

---

(1) أخرجه ابن سعد في الطبقات 4/ 190 ورجاله ثقات.

(2) أخرجه أحمد في المسند 3/ 67، وابن ماجة (2863) في الجهاد.. باب لا طاعة في معصية اللَّه. وصححه ابن حبان (2551) والحاكم 3/ 630، 631.

نزلت في وجوب طاعة الأمير ما لم يأمر بمعصية! (أخرجاه في الصحيح)

وجاء في تاريخ الإسلام للذهبى عن على بن أبى طالب: أن النبى ﷺ استعمل رجلا من الأنصار على سَرِيّةٍ، وأمرهم أن يُطيعوه، فأغضبوه في شيء، فقال:

اجْمَعُوا لى حطبا، فجمعوا وأمَرهم فأوقدُوه، ثم قال:

ألم يأمرْكُمْ رسولُ اللَّهِ ﷺ أن تسمعوا لى وتُطيعوا؟

قالوا: بلى.

قال: فادخلوها.

فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا:

إنما فَرَرْنَا إلى رسول اللَّه ﷺ من النارِ، فسكن غضبُه، وطُفئت النار!

فلما قَدمُوا على رسولِ اللَّه ﷺ ذكروا له ذلك فقال:

«**لو دخلوها ما خرجوا منها! إنما الطاعة في المعروف**» (أخرجاه).

وهكذا تعلمنا دراسةُ حياةِ هذا الصحابى أن لا نُطيعَ إلا من أمر بمعروف، وأنه لا طاعةَ لمخلوقٍ أيّا كان في معصية الخالق!

وكان «عبدُ اللَّهِ بنُ حُذافةَ» موثوقا به وموضعَ تقدير من النبى ﷺ وأصحابِه.. وظهر ذلك جَلِيًّا واضحا حين وقع الاختيار عليه ليحمل كتابَ النبيِّ ﷺ إلى كسرى ملك الفرس!

وحين وقع في أسر الروم أيام الخليفة عمر بن الخطاب وكان له موقف عظيم لا ينسى!

فقد أرسل الرسول ﷺ رسلًا من أصحابِه إلى الملوك والرؤساءِ يدعوهم فيها إلى عبادةِ اللَّهِ الواحدِ الأحد.

ووقع الاختيارُ على «عبدِ اللَّه بن حذافة» ليحملَ كتابَ الرسولِ ﷺ إلى كسرى مَلِك الفرس.

وقد جاء فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

«من محمد رسولِ اللَّه إلى كسرى عظيم فارسَ، سلامٌ على من اتبع الهدى، وآمنَ باللَّه ورسولِه، وشَهد أن لا إلهَ إلا اللَّه وحدَه لا شريكَ له وأن محمدًا عبدُه ورسوله.

وأدعوك بدعايةِ اللَّه، فإنى أنا رسولُ اللَّه إلى الناس كافة ليُنذرَ من كان حيًّا ويَحقَّ القولُ على الكافرين..

فأَسْلِمْ تَسْلَم، فإن أبيتَ فإن إثمَ المجوسِ[1] عليكَ».

وكما يحمل السفراء رسائلَ من الملوك والرؤساء في أيامنا هذه حمل «عبد اللَّه بن حذافةَ» كتابَ النبى ﷺ إلى كسرى، فلما قُرِئَ الكتاب على كسرى مزّقه!

وعاد عبدُ اللَّهِ بنُ حُذافةَ فأحاط النبيَّ ﷺ علمًا بما حدث!

فقال ﷺ: «**مزّق اللَّهُ مُلكَه!**».

وقد استجاب اللَّه لدعاء النبى ﷺ فقد قامت ثورة كبيرة ضد كسرى من داخل بيته بعد أن لاقت جنودُه هزيمةً منكرة أمام الروم!

وقام «شيرويه بن كسرى» بقتل أبيه والاستيلاء على الملك بعده!

وأسلم الكثيرون من أهل فارس باليمن بعد أن تبين لهم صدقُ النبيِّ ﷺ!

وهناك تجربة في حياة «عبد اللّه بن حُذافةَ» حدثت في أيام الخليفةِ عمرَ بنِ الخطاب في حرب الروم..

وقد تَعلَّم أن لا يُطيعَ مخلوقًا في معصيةِ الخالق مهما كانت منزلةُ هذا المخلوق!

لقد وقع في أسرِ الروم!

فذهبوا به إلى مَلِكِهم، فقالوا:

إن هذا من أصحابِ محمد.

فقال: هل لك أن تتنصَّر وأُعطيك نصفَ مُلكى؟!

---

(1) المجوس: عبدة النار والكواكب.

قال عبد اللَّه بن حُذافة: لو أعْطَيْتَنِى جميعَ ما تملك، وجميع مُلك العرب ما رجعتُ عن دينِ اللَّه طرفةَ عين!

قال: إذن أقتُلك.

قال عبد اللَّه: أنت وذاك[1].

فأمَرَ به فصُلب، وقال للرماة:

ارموه قريبا من بدنه، وهو يعرض عليه ويأبى!

فأنزله، ودعا بقِدْر فصُبّ فيها ماءٌ حتى اشتد غليانُها، ودعا بأسيرين من المسلمين، فأمر بأحدهما فألقى فيه، وهو يعرض عليه النصرانية، وهو يأبى. ثم بكى!

فقيل للملك: إنه قد بكى.. فظن أنه قد جَزِع[2]!

فقال: رُدّوه. ثم سأله:

- ما أبكاك؟

قال: قلت: هى نفس واحدة تُلْقَى في النار الساعة، فتذهَبُ، فكنت أشتهى أن يكون بعدد شعرى أنفُسٌ تُلْقَى في النار في اللَّه!

فقال له الطاغية:

هل لك أن تُقَبِّلَ رأسى، وأُخَلّىَ عنك؟!

فقال له عبدُ اللّه: وعن جَميع الأُسارى؟!

قال: نعم.

فقبّل رأسَه.

وقدِم بالأسارى على عُمرَ، فأخبرَه خبَرَه، فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: حَقٌّ على كل مُسْلم أن يُقَبّل رأسَ ابن حُذافة، وأنا أبدأ، فقبَّل رأسَه[3].

وقد لقى ابن حذافة ربّه في خلافة عثمان رضى اللَّه عن الجميع! وسيظل ابن حذافة نموذجا يُحتذى!!

---

(1) افعل ما ترى! (2) لم يصبر على ما نزل به.

(3) أخرجه ابن عساكر في تاريخه من طريق البيهقى، وكذا الحافظ في الإصابة، وابن الأثير في أسد الغابة (3/ 212).

عبد الله بن عبد الله بن أُبَيِّ بن سلول

أبوه ذلك المنافق الكبير الذي كان يُبطنُ العداوةَ لرسول اللَّه ﷺ وللمسلمين!

كانت الظروفُ تحولُ دونَ أن يجهرَ بعدائِه ويُحاربَهم وجهًا لِوَجْهٍ فاضْطُرَّ إلى إظهارِ الوُدَّ والصَّفَاءِ!

لقد كانت الأوسُ والخَزْرَجُ قد اجتمعوا على سيادته بعد «حَرْبِ بُعاث»[1]، ولم يكونوا قد اجتمعوا على سيادة أحد قَبْلَه!

وكانوا قد نَظَمُوا له الخرَزَ لِيُتَوّجوه ويُملّكوه.

وكان على وَشْك أن يصيرَ مَلِكا على المدينة لولا قدومُ الرسولِ ﷺ وانصرافُ قومِه عنه إليه...

فكان يَرى أن الرسولَ ﷺ قد استلَبه مُلْكًا وحَرَمَه سُلطَانًا فكانت العداوةُ!! وكان الحقدُ الدفينُ!!

ولما لم يجد أن الظروفَ لا تساعِدُه أظهرَ إسلامَه بعد بدرٍ.. وإن ظَلَّ يُبْطنُ الكُفْرَ!

وها هو ذا في «غزوة أُحُد» يخرج من الجيش ومعه ثَلَاثُمائةِ مقاتل حتى اقتربوا من العدوِّ حيث كان يراهم ويَرَوْنَه - يُعلن تمردَه وانسحابه بنحو ثُلُثِ العَسْكَر قائلا:

ما ندرى علامَ نَقْتُل أنْفُسَنا؟!

لقد أراد بهذا أن يُحدِثَ البلبلةَ والاضطرابَ في جيشِ المسلمين على مَرْأى ومَسْمَع من عَدُوِّهم حتى ينحازَ عامةُ الجيشِ عن النبيِّ ﷺ، وتنهار معنوياتُ مَنْ يَبْقى مَعَه، بينما يتشجعُ العدوُّ وتعلو همتُه لرؤية هذا المنظر، فيكونُ ذلك أسرعَ إلى القضاء على النبيِّ ﷺ وأصحابِه المخلصين، ويصفو بعد ذلك الجوُّ لعودةِ الرياسة إلى «كبير المنافقين» في المدينة وأصحابِه المتآمرين!

(1) موضع قريب من يثرب، وفيه كانت آخر موقعة بين الأوس والخزرج في الجاهلية وهو «يوم بُعاث».

وكاد المنافقُ الكبيرُ ينجحُ في تحقيقِ بعضِ ما كان يهدفُ إليه، فقد همت طائفتان: بنو حارثة من الأوس وبنو سلمة من الخزرج أن تفشلا!

ولكن اللَّه تولاهما فثَبَّتَا بعد ما سَرَى فيهما الاضطرابُ وهَمَّتَا بالرجوع والانسحابِ، وعنهما يقول اللَّه تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[آل عمران: 122].

وكان ابنُه قد أسلمَ وحَسُنَ إسلامُه فتبرأ من أبيه وما كان يصنعُه ويقومُ به أولئك المنافقون ضدَّ الإسلام ورسوله.

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾[المنافقون: 8]

وذات يوم وقف على باب المدينةِ واستل سيفَه فلما جاء أبوه قال له: واللَّه لا تَجَوّلْتَ من هاهنا حتى يأذنَ لك رسولُ اللّه ﷺ فإنه العزيزُ وأنتَ الذليل! فلما جاء النبيُّ ﷺ أذنَ له فخَلّى سبيلَه!

وكان عبد اللّه بن عبد اللَّه بن أُبَيٍّ قد قال لرسول اللَّه ﷺ: يا رسول اللَّه، إن أردت قتلَه فمُرْنِي بذلك فأنا واللَّهِ أحملُ رأسَه إليه!

وجعل قومُه كلما أحدثَ حدثًا يعُنّفونه ويُعاتبونه!

وكان عمر قد أشار على الرسولِ ﷺ بقتل رأسِ الفتنة «عبد اللَّه بن أُبَيَّ بن سلول» من قبلُ!

فقال رسول اللّهَ ﷺ لعمر:

«كيف ترى يا عمر؟ أما واللَّه لو قتلتُه يومَ قلتَ لى اقتُلْه لأرعدت له أُنُف[1]، ولو أمرتَها اليوم بقَتْلهِ لقَتَلَتْه!»

قال عمر: قد علمت - واللَّه- لأمرُ رسولِ اللَّه ﷺ أعظمُ بركةً من أمرى[2].

(1) هددوا وتوعدوا بالشر. (2) ابن هشام 2/ 392.

ولما تُوفِّيَ «عبدُ اللَّه بن أُبَيّ» أتى ابنهُ «عبدُ اللَّه بن عبد اللَّه» إلى رسولِ ﷺ فسأله أن يُعطيه قميصَه ليُكَفِّنَه فيه، فأعطاه، ثم سأله أن يصلىَ عليه، فقام رسول اللَّه ﷺ يصلى عليه!

فقال عمر: يا رسولَ اللَّه، أتصلى عليه، وقد نهاك اللَّه عنه؟ فقال: إن ربى خَيّرنى فقال: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ﴾ [التوبة : 80].

وسأزيد على السبعين، فقال: إنه منافق!!

فانظر كيف عرف الابن طريقه إلى اللَّه فهداه ورعاه وكيف أمعن الأب في عداء رسول اللَّه!

وكان الرسول كريما مع الأب يقابل السيئة بالحسنة من أجل الابن الذي أخلص قلبَه للَّه!

فسبحان اللَّه يُضلُّ من يشاء ويَهدى من يشاء!

فاسأل اللَّه الهداية!.. لك ولمن معك..

إنه سميع قريب مجيب الدعاء.

واعلم أنه لا طاعةَ لمخلوقٍ في معصيةِ الخالق!

النَجَاشِى ملك الحبشة

شخصيةُ النجاشيِّ ملك الحبشةِ واسمه «**أَصْحَمَة**» شخصيةٌ فريدة لا نظيرَ لها بين صحابةِ النبى ﷺ!

ولعلك تَعجبُ كيف عُدّ من الصحابة، ولم يهاجرْ ولا رُؤيَة له؟

صحيح أنه أسلمَ وحَسُنَ إسلامُه، وقد تُوفِّيَ في حياة النبى ﷺ فصَلّى عليه بالناس «صلاة الغائب!» ولم يَثْبُتْ أَنّه ﷺ صَلَّى على غائبٍ سواه!

ويقال: إنه صحابيٌّ من وجه، تابعيٌّ من وجه!

ولو نظر كُلُّ واحد من الزاوية التى ينظر منها الآخر لاستراح كثير من الناس!، ولم يختلفوا.

وما كان لنا أن نضعَ بين يديك مواقف من حياة الصحابةِ دون أن تكون «مواقف أصحمة» بين تلك المواقف، فحسبه[1] أنه عرَف الحقَّ فاتّبعه!

وحسبه أنه كان مثلا للصلابةِ في دينهِ وعدلِه في حكمِه.

وحسبُه أنه وقفَ إلى جانِب المهاجرينَ إلى الحبشةِ الذين فَرُّوا بدينهِم، وأتاح لهم عبادةَ اللَّهِ على الوجهِ الأكملِ في الوقت الذي طاردَتْهم قريشٌ وَعذَّبتهم!

وحَسْبُه أنه رفض تسليمَهم إلى قريشٍ، وردَّ هدية قريش إليه التى كان يحملها «عمرو بن العاص» إليه قبل إسْلامه!

هذه الصُّوَرُ العظيمة وتلك المواقفُ الرائعةُ هى التى رشحت «أصحمةَ» ليكونَ بين هذه النماذج!

وأراك تقول:

ما سرُّ صلاةِ الرسولِ ﷺ عليه «صلاةَ الغائب»؟ ويقول الإمام الذهبى:

وسبب ذلك أنه مات بين قومٍ نَصارى، ولم يكن عنده مَن يُصَلّى عليه، لأن الصّحابةَ الذين كانوا مُهاجرينَ عِنْدَه خرَجُوا من عندِه مُهاجرينَ إلى المدينةِ «عامَ خيبر!».

(1) حسبه: يكفيه.

ويكفيه شهادةُ الرسول ﷺ بالصلاح في الحديثِ الذي أخرجه البخارى؛ حين مات:

«مات اليوم رجلٌ صالحٌ، فقُوموا فصَلُّوا عَلى أخيكم أصْحَمَة!».

وما زالت كلماتُه لعمرو بن العاص نورًا على الطريق لمن يريدون النجاة، ويُرَاقِبون اللَّه!

لقد قال له:

«فواللّه ما أخذَ اللَّهُ منِّي الرِّشوةَ حين ردَّ عليَّ مُلكى!

وما أطاعَ الناسَ فيَّ، فأُطيعَ الناسَ فيه!

ويَروى ابن إسحاق عن «أمِّ سلمةَ» زوجِ النبى ﷺ ما حدث من قُريش، وموقفَ «أصحمةَ» من مبعوثِها إليه يحملُ الهدايا حتى يُعيدَ المهاجرين إلى الحبشة، ويُسَلِّمَهم إلى قريش!.

فمَنْ هذا الملكُ الذي أسلم قلبَه للَّه وآمن برسوله؟ لقد كان أبوه ملكَ قومِه، ولم يكن له ولد إلا «النجاشى»

وكان للنجاشىّ عمٌّ له من صُلْبه[1] اثنا عشر رجلا.

وكانوا أهلَ بيتِ مَمْلكَةِ الحبشة.

فقالت الحبشةُ فيما بينها: لو أنّا قتلنا أبا النجاشى، وملّكْنا أخاه، فإنه لا ولدَ له غيرَ هذا الغلام!

وإن لأخيه اثنا عشر ولدا، فتوارثوا مُلْكَه من بعدِه، فبقيت الحبشةُ بعدَه دَهْرًا.

فعدَوْا على أبى النجاشى، فقتلوه، وملَّكُوا أخَاه، فمكثوا على ذلك!

ونشأ النجاشىُّ مع عمِّه، وكان لبيبًا حازمًا من الرجال.

فغلب على أمرِ عمِّه، ونزل منه بكُلِّ منزلة!

فلما رأتِ الحبشةُ مكانَه منه، قالت بينها:

واللَّهِ إنَّا لنَتَخَوّفُ أن يُمَلّكه!، ولئن ملّكه علينا ليقتلُنا أجمعين!

لقد عرف أنا نحن قتَلْنَا أباه!

---

(1) من صُلبه: من ذريته.

فمشَوْا إلى عَمِّه، فقالوا له:

إما أن تقتلَ هذا الفتى، وإما أن تُخرِجَه من بين أظهرِنا!

فإنا قد خِفنا على أنفسِنا منه!

قال: وَيْلَكُم!

قتلتُم أباه بالأمسِ، وأقتُله اليوم! بل أخرجوه من بلادِكم!

فخرجوا به فباعوه من رجلٍ تاجرٍ بستمائة درهم، ثم قذفه في سفينة، فانطلق به حتى إذا كان المساءُ من ذلك اليوم هاجت سحابةٌ من سَحابِ الخريف، فخرج عمّه يستمطرُ[1] تحتَها، فأصابته صاعقة فقتلته!

ففزعت الحبشة إلى وَلَدِه؛ فإذا هم حَمْقَى ليس في ولدِه خير، فمرج[2] على الحبشة أمرُهم، فلما ضاق عليهم ماهم فيه من ذلك قال بعضهم لبعض:

تعلمون - واللَّهِ- أن مَلِكَكُم الذي لا يُقيمُ أمرَكم غيرُه الذي بعتموه غَدْوةً!

فإن كان لكم بأمرِ الحبشةِ حاجةٌ فأَدْرِكوه.

قال: فخرجوا في طلبِه حتى أدركوه، فأخذوه من التاجر!!

ثم جاءوا فعقدوا عليه التاج، وأقعدوه على سرير الملك، وملَّكوه!

فجاءهم التاجرُ، فقال:

إما أن تُعطونى مالى، وإما أن أكلِّمَه في ذلك!

فقالوا: لا نُعطيك شيئا.

قال: إذن - واللَّه - لأكَلِّمنَّه!

قالوا: فدُونَك!

فجاءه، فجلس بين يديه، فقال:

أيها الملكُ! ابْتَعْتُ غلامًا من السُّوق بستمائة درهم، فأسْلَموه إليّ، وأخذوا دراهمى حتى إذا سِرْتُ بغلامى أدركونى، فأخذوا غلامى، ومنعونى دراهمى.

(1) يستمطر: يطلب المطر.

(2) التبس واختلط.

فقال لهم النجاشى: لَتُعْطُنّه دراهمَهُ، أو لَيُسَلَّمَنَّ غلامَه في يديه، فلَيَذْهَبَنّ به حيث يشاء!

قالوا: بل نُعطيه دراهمَه.

قالت عائشة - رضى اللَّه عنها - في ردها على ابن أختها «عُروةَ» حين سألها عن معنى قول النجاشيّ: «**ما أخذ اللَّه منى الرِّشوة حين ردَ عليَّ مُلْكي، فآخذَ الرِّشوةَ فيه**».

وكان ذلك أول ما خُبِر من صَلابته في دينه وعدلِه في حكمه!

أخرج ابن هشام في السيرة:

«**أنه لما مات كان لا يزالُ يُرى على قَبره نور!**».

ترى ماذا كان موقفه من المهاجرين إلى بلاده فرارا بدينهم؟

جاء في المسند لأحمد بن حنبل عن أم سلمة زوج النبى ﷺ قالت:

لما نزلنا بأرض الحبشة جاورْنا بها خيرَ جار: النجاشى.

أمِنَّا على ديننا، وعَبَدْنا اللَّهَ تعالى لا نؤْذَى ولا نسمع شيئا نكرهُه!

فلما بلغ ذلك قريشًا ائتمروا أن يبعثوا إلى النجاشى فينا رجلين جَلْدَين.

وأن يُهدوا للنجاشى هدايا مما يُستطرف[1] من متاع مَكَّةَ.

وكان من أعجبِ ما يأتيه منها إليه الأَدَمُ[2]، فجمعوا له أَدَمًا كثيرا ولم يتركوا من بطارقتِه بِطريقًا[3] إلا أهدَوْا إليه هدية، ثم بعثوا بذلك «عبدَ اللَّهِ بنَ أبى ربيعةَ ابنِ المغيرة المخزومى» و «عمرَو بنَ العاص» السَّهمى.

وأمروهما أمرَهم، وقالوا لهمَا:

ادفعوا إلى كُلِّ بِطريق هديتَه، قبل أن تُكَلِّموا النجاشىّ فيهم.

ثم قدِّموا له هدايَاه، ثم سَلُوه أن يُسلمَهم إليكم قبل ان يُكَلِّمَهم.

---

(1) يُعدو طريفا لطيفا.

(2) الجلد المدبوغ.

(3) رئيس رؤساء الأساقفة.

قالت: فخرجا، فقدَما على النجاشي، ونحن عنده بخيرِ دارٍ عندَ خيرِ جَار، فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديتَه، وقالا له:

إنه قد ضَوَى[1] إلى بلدِ الملِكِ منها غِلمانٌ سفهاءُ، فارقوا دينَ قومهم، ولم يدخُلوا في دينك، وجاءوا بدين مبتَدَع، لا نعرفه نحن، ولا أنت!

وقد بعثَنَا إليك أشرافُ قَومِهم من آبائهم، وزعمائهم، وعشائرهم لتردّهم إليهم، فهم أعلى بهم[2] عينا، وأعلم بما عابوا عليهم.

فقالوا لهم: نعم.

ثم إنهما قربا هدايا النجاشي، فقبلها منهم، ثم كلماه فقالا له: أيها الملك! إنه قد ضَوَى إلى بلدِك منا غِلمانٌ سُفهاءُ، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك. وجاءوا بدين مبتدَعٍ[3] لا نعرفُه نحن ولا أنت.

وقد بعثَن إليكَ أشرافُ قومِهم من آبائهم وأعمامهم، وعشائرهم لتردَّهم إليهم، فهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم فيه.

قالت: ولم يكن شيء أبغضَ إلى «عبد اللَّه» و «عمرو» من أن لا يسمعَ النجاشيُّ كلامهم.

فقالت بطارقتُه حولَه:

صَدَقوا أيّها الملك، فأَسْلِمِهْم إليهما.

فغضبَ النجاشيُّ، ثم قال:

«لا ها اللَّه إذًا لا أُسَلِّمُهم إليهما ولا أُكاد[4]».

---

(1) ضوى إليك فتية: أي: أووا إليك، ولاذوا بك.

(2) أعلى بهم عينا: أبصر بهم وأعرف.

(3) مبتدع: أنشأه على غير مثال سابق، ولا علم لنا به.

(4) ولا أُكاد- بضم الهمزة - فعل مبنى للمجهول. أي: ولا يكيدني أحد. قال في اللسان يقولون - إذا حمل أحدهم على ما يكره - لا واللَّه لا كيدًا ولا هَمًّا: يريد لا أُكاد ولا أُهَمُّ. ولا هالله!: قسم، وأهل العربية يقولون: لا هالله ذا. والهاء بدل من واو القسم. أي: لا واللّه لا يكون ذا. وقيل: بل حذفت واو القسم، وفصلت «ها» من ذا فتوسطت الجلالة. ونصبت لأجل حذف واو القسم.

قومًا جاورونى، ونزلوا بلادى، واختارونى على من سِوَاى حتى أدعوَهم فأسألَهم!

ثم أرسل إلى أصحاب رسول اللَّه ﷺ فدعاهم، فلما جاءهم رسولُه، اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض:

ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟

قالوا: نقول - واللَّه - ما علمنا، وما أمرنا به نبينا ﷺ كائنا في ذلك ما كان.

فلما جاءُوه وقد دعا النجاشى أساقِفتَه[1]، فنشروا مصاحِفَهم حوله، سألهم، فقال:

ما هذا الدينُ الذي فارقتم فيه قومَكُم، ولم تدخلوا في دينى، ولا في دين أحد من هذهِ الأُمَم؟!

قالت: والذي كان يُكلِّمُهُ جعفرُ بن أبى طالب، فقال له:

أيها الملك! إنا كنا قومًا أهلَ جاهلية:

نعبدُ الأصنام، ونأكلُ الميتةَ، ونأتى الفواحشَ، ونقطعُ الأرحامَ، ونُسيءُ الجِوار، ويأكلُ القويُّ منا الضعيفَ!

فكنا على ذلك حتى بعث اللَّه إلينا رسولًا مِنَّا..

نعرف نسبَه، وصِدقَهُ، وأمانتَه، وعَفَافَه..

فدعانا إلى اللَّهِ لِنُوحِّدَه، ونعبدَه، ونَخْلَعَ ما كنا نعبد وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان.

وأمَرنا بصدقِ الحديث، وأداءِ الأمانةِ، وصلةِ الرحم، وحُسنِ الجوار، والكفِّ عن المحارِمِ والدِّماءِ.

ونهانا عن الفواحِش، وقولِ الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة[2].

وأمرنا أن نعبدَ اللَّه لا نشرك به شيئا..

---

(1) الأساقفة: جمع أسقف: لقب دينى لأحبار النصار فوق القِسّيس ودون المطران. المصاحف: صحفهم وأناجيلهم.

(2) المحصنة: الحرة العفيفة. وقذفها: رمْيُها بالفاحشه وإتهامها في عفافها.

وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام.

قالت: فعدد له أمورَ الإسلام - فصَدّقناه، وآمنا به واتبعناه، فَعَدَا علينا قومُنا فعذبونا، وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادةِ الأوثانِ، وأن نستحلَّ ما كنا نستحلُّ من الخبائثِ[1].

فلما قهرونا وظلمونا، وشَقُّوا علينا، وحالوا بيننا وبين دينِنَا خرجْنَا إلى بلدِك. واخترناك على مَن سواك.

ورغِبْنا في جوارِك، ورجَوْنَا أن لا نُظلَم عندك أيها الملك.

قالت: فقال:

هل معك مما جاء به عن اللَّهِ شيءٌ؟

قال: نعم.

قال: فاقرأه عَلَيَّ، فقرأ عليه صدرا من ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ فبكى - واللَّه - النجاشي حتى أخْضَلَ[2] لحيتَه، وبكت أساقفتُه حتى أخضلوا مصاحفَهم[3] حين سمعوا ما تُلِيَ عليهم.

ثم قال النجاشي:

إن هذا والذى جاء به موسى لَيَخرُجُ من مِشكاةٍ[4] واحدة!

انطَلقا، فواللَّه لا أُسَلِّمُهم إليكما أبدا ولا أُكاد!

فلما خرجا قال عمرو بن العاص - وكان لا يزال على دين قريش - واللَّه لأُنبئنَّه غدًا عيبَهم، ثم أَسْتَأْصل خضراءَهم[5]!

فقال له عبد اللَّه بن ربيعة، وكان أتقى الرجلين فينا:

لا تفعلْ؛ فإن لهم أرحامًا وإن كانوا قد خالفونا!

---

(1) ما ليس طيبا وكل ما هو فاسد ردىء مكروه تعافه النفس.

(2) أخضل لحيته: بلها.

(3) جمع مصحف: وهو مجموع من الصحف في مجلد. وغلب استعماله في القرآن الكريم بعد ذلك.

(4) المشكاة: كوة في الحائط غير نافذة يوضع فيه مصباح. وما يحمل عليه أو يوضع فيه القنديل أو المصباح.

(5) أستاصل خضراءهم: أبيدهم وأقضى عليهم.

قال: واللَّه لأخبرنّه أنهم يزعمون أن عيسى عَبْدٌ!!».

ثم غدا عليه فقال:

أيها الملك! إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولا عظيما. فأرسلْ إليهم، فسَلْهم عما يقولون فيه، فأرسل يسألُهم.

قالت: ولم ينزل بنا مثلُها، فاجتمع القومُ. ثم قالوا:

نقول - واللَّه - فيه ما قال اللَّه تعالى كائنًا ما كان!

فلما دخلوا عليه، قال لهم:

ما تقولون في عيسى؟

فقال له جعفر: نقول فيه الذي جاء به نبيُّنا:

هو عبدُ اللَّه ورسولُه، وروحُه وكلمتُه ألقاها إلى مريم العذراء البَتُول[1]!

فضرب النجاشي يدَه إلى الأرض، فأخذ عودا ثم قال: ما عدا عيسى ما قلتَ هذا العودَ

فتناخرت[2] بطارقتُه حوله، فقال:

وإن نخرتُم واللّه!

اذهبوا فأنتم سُيُومٌ بأرضي - والسيوم: الآمنون- من سَبَّكم غُرِّم، ثم مَن سَبّكم غرِّم!

ما أحب أن لي دَبْرَي ذهبا، وأني آذيتُ رجلًا منكم - والدبر بلسانهم: الجبل- رُدُّوا عليهما هداياهما، فواللَّه ما أخذ اللَّه مني الرِّشوةَ حين ردَّ عليَّ ملكي!

فآخذ الرشوة فيه!

وما أطاعَ الناسَ فيّ فأطيعهم فيه!

فخرجا مقبوحين[3] مردودًا عليهما ما جاءا به.

وأقمنا عنده بخيرِ دارٍ مع خير جار..

---

(1) العذراء: المنقطعة عن الزواج إلى اللَّه.

(2) تناخرت: النخير: صوت من الأنف. وقيل النخير: ضرب من الكلام.

(3) مقبوحين: مبعدين عن كل خير.

فواللَّه إنا على ذلك، إذ نزل به، يعنى من ينازعه في ملكه، فواللَّه ما علمنا حربا قط كان أشدَّ من حربٍ حربناه، تخوفا أن يظهر ذلك على النجاشى، فيأتى رجل لا يعرف من حَقّنا ما كان النجاشىّ يعرفُ منه.

وسار النجاشى وبينهما عرض النيل.

فقال أصحابُ رسولِ اللَّه ﷺ: مَن رجلٌ يخرجُ حتى يحضرَ وقعةَ القوم ثم يأتينا بالخبر؟

فقال الزُّبَيْر: أنا، وكان من أحدث القوم سِنًّا، فنفخوا له قربة، فجعلها في صدره، ثم سبح عليها حتى خرج إلى مكان الملتقى، وحضر.

فدعونا اللَّهَ للنجاشى بالظهور على عدوه، والتمكين له في بلاده، واستوسق له أمرُ الحبشة، فكنا عنده في خير منزل، حتى قدمنا على رسول اللَّه ﷺ وهو بمكة[1]!

وكذلك قدم الزبير بن العوام، وعبد اللَّه بن مسعود، وطائفة من مهاجرى الحبشة مكةَ.

ومَلُّوا من سُكنى الحبشة، ثم قدم طائفة منهم على رسول ﷺ لما عرفوا بأنه هاجر إلى المدينة، ثم قدم جعفر بن أبى طالب بمن بقى ليالى خيْبَر.

وعندما أرادوا الرحيل زودهم النجاشى بما يحتاج إليه المسافر وأرسل معهم رسولًا ليخبرَ النبىَّ ﷺ بما صنعَ لأصحابه، وطلب من جعفر أن يستغفرَ له رسولُ اللَّهِ ﷺ بعد أن أعلن إسلامَه وشهدَ أن لا إلهَ إلا اللَّهُ وأن محمدًا رسولُ اللَّه.

ويقول جعفر: فخرجنا حتى آتينا المدينة فتلقانى رسولُ اللَّه ﷺ فاعتنقنى فقال:

«**ما أدرى أنا بفتح خيبر أفرح، أو بقدوم جعفر**» ثم جلس فقام رسول النجاشى، فقال:

---

(1) تعنى نفسها وزوجها.

هو ذا جعفر، فسله ما صنع به صاحبُنا، فقلت: نعم، يعنى ذكرته له.

فقام رسول اللَّه ﷺ فتوضأ، ثم دعا ثلاث مرات:

«**اللهمَّ أغفر للنجاشى**».

فقال المسلمون: آمين.

فقلت للرسول: انطلق، فأخبِرْ صاحبَك بما رأيت»[1].

وبعد، فهذه مواقف النجاشى من صحابة الرسول ﷺ. ومن محاسنه أن «أم حبيبة»: رملة بنت أبى سفيان بن حرب الأموية أم المؤمنين حين أسلمت مع زوجها: «عبيد اللَّه بن جحش الأسدى» قديما، فهاجر بها زوجها، فانملس[2] بها إلى أرض الحبشة، فولدت له «حبيبة» ربيبة[3] النبى ﷺ.

ثم إنه أدركه الشقاء، فأعجبَه دينُ النصرانية، فتنصَّرَ، فلم يَنْشَبْ أن ماتَ بالحبشة.

فلما وفت العدةَ بعثَ الرسولُ ﷺ يخطبُها، فأجابت فنهض في ذلك النجاشى، وشهد زواجَها بالنبى ﷺ.

وأعطاها الصّداقَ عن النبى ﷺ من عنده أربعمائة دينار، فحصل لها شيء لم يحصل لِغَيرها من أمهات المؤمنين، ثم جهزها النجاشى[4].

وأصحمة بالعربى: «عطية» ولما تُوفى قال النبى ﷺ للناس:

«**إن أخًا لكم قد مات بأرض الحبشة**».

فخرج بهم إلى الصحراء وصفهم صفوفا، ثم صَلّى عليه[5]» وعندما يموت غريب نصلى عليه صلاة الغائب ونذكر النجاشى ونترحم عليه!

---

(1) ذكره الهيثمى في المجمع 6/ 29 – 30، وقال: رواه الطبرانى.

(2) انملس بها: أفلت.

(3) الربيبة: بنت امرأته من غيره.

(4) انظر ابن هشام 1/ 224، 2/ 362، وانظر طبقات ابن سعد 8/ 70، وذكر أبو داود والنسائى حديث زواجها.

(5) سبق تخريجه في أول ترجمته.

أم حكيم زوج عِكرمة بن أبى جهل

كانت نعمَ الزوجةُ لزوجها؛ أخذت بيدِه من الظُّلماتِ إلى النور، وأنقذته مما كان فيه من جهلٍ وضلالٍ!

لقد فتحت «أمُّ حكيم» عينَيْها على رسولِ اللَّه ﷺ حينما كان يُبَلِّغ قومَها رسالةَ ربه!

ولم تكن ترضى عن موقفهم منه، وإيذائهم للمؤمنين والمؤمنات دُون ذنب جَنَوْه إلا أن يقولوا: رَبُّنَا اللَّه!

وتمنّت أن يذهبَ أبوها «الحارثُ بنُ هشام» إلى النبى ﷺ فيُعلنَ إسلامَه ويشهدَ أن لا إلهَ إلا اللَّه، وأن محمدًا رسولُ اللَّه حَقًّا وصِدقًا!

ولكنه لم يفعل.. ولم يُهاجرْ مع من هاجروا وظل على كُفرِه!

وكان عدمُ إسلامه عقبةً في طريق «أم حكيم» وتمنت ثانيا أن يهدىَ اللَّه بنَ عَمِّها زوجَها عِكرمةَ بنَ أبى جَهلٍ لكنه ظل على كُفرِه وعِنادِه حتى تم فَتْحُ مكةَ!

فماذا تفعل، وقد فقدت الأملَ في أبيها وفي زوجها؟!

كان الجوّ يفرضُ عليها أن تجارىَ زوجَها «عِكرمَة» الذى كان يخوضُ المعاركَ في مواجهةِ المسلمين ليثأرَ لأبيه وأمثالِه ممن قُتلوا في غزوة بدر!

وكان عليها أن تؤيدَه وتُسانِدَه، وتقفَ إلى جانبه!

لكن نورَ الإيمان قد أخذ يتسلل إلى قلبها بعد سنوات من هجرة الرسول ﷺ!

فلما كان فتحُ مكةَ شرحَ اللَّهُ صدرَها للإسلام فإذا هى تسارعُ إلى النبى ﷺ معلنةً إسلامها غيرَ عابئةٍ بما كان ينالها من زوجها حينما كانت تُحدِّثُه عن الإسلام!

وتأزّم الموقف بعد إسلامها!

إن زوجَها عِكرمة لم يُلْقِ سلاحَه بل شهرَه في وجهه المسلمين المسالمين!

ولم يقل مع القائلين للنبى ﷺ:

أنت أخٌ كريمٌ وابنُ أخٍ كريمٍ!

بل آثَرَ الفرارَ مُنهزمًا أمامَ خالدِ بن الوليد الذي راح يتتبع الفارّين إلى الحبشة الذين أهدر الرسولُ ﷺ دمَهم!

وهنا يأتى دورُ «أم حكيم».. دورُ الزوجةِ المسلمةِ.. دورُ المرأة العاقلة.. لقد آثرت أن تقومَ بدوْرٍ عظيم يتناسبُ مع قلبها الكبيرِ الذي امتلأ إيمانًا ويقينًا وحُبًّا للَّه ورسوله! وهكذا تكون المرأةُ المسلمةُ!!

إنها لم تفقدِ الأملَ في إسلامِه! ويا لها من خَسَارة كبيرة تلك التى تحلُّ بالمسلمين إذا لم يُسْلِم أمثالُه!

لقد كان بطلًا من أبطالِ العربِ المرموقين.. ومازال في الزمن لحظاتٌ أجمل من الماضى بأسرِه!

إن مِثْلَه جديرٌ بأن ينضمَّ إلى صُفوف المسلمين!

فَلْتُحاوِلْ.. وما ذلك على اللَّه بعزيز.. وبين غمضة عين وانتباهتها يُغَيِّر اللَّهُ من حال إلى حال!!

لقد دعا الرسولُ ﷺ من قبلُ أن يُعز اللَّهُ الإسلامَ بأحد الرجلين: عمرو بن هشام: أبى جهل، أو عمرَ بن الخطاب، وشرحَ اللَّهُ صدرَ عُمَرَ، ولم يكن لأبى جهل في الخير نصيب!

فلم لا تحاول «أمُّ حكيم» مع الرسول ﷺ لكى يعفوَ عن زوجها عكرمة؟! لعل اللَّهَ يُعزّ به الإسلامَ!

وربما كان الابنُ خيرًا من أبيه!

إن النبيَّ ﷺ بالمؤمنين رءوفٌ رحيمٌ ولن يبْخَلَ بالعفو عن زوجها إنْ أتاه تائبًا طائعًا مختارا..

واستجاب الرسولُ ﷺ لرغبتها ودعا لزوجِها أن يُلهمَه اللَّهُ الصوابَ ويَهديَه إلى الإسلام!

وأسرعت أم حكيم إلى زوجِها الهاربِ حتى لحقت به!

وأخذت تُناديه:

عُدْ ياعكرمة فقد عَفَا عَنْك رسولُ اللَّه!

وعكرمةُ لا يكاد يُصَدَّق ما يَسْمَع!

ولكنها أخذت له الأمان من رسولِ اللَّهِ ﷺ!

وعاد «عكرمةُ» مع زوجه «أمِّ حكيمٍ» إلى رسول اللَّه ﷺ ليفتحَ صفحةً جديدةً في نورِ الإسلام!

ولم يجد الزوجان أمامَهما إلا أن يَقْضيا حياتَهما في الدفاع عن دينِ اللَّهِ ونشرِ الإسلام، ورفعِ رايته!

وشاهدَ المسلمونَ أمَّ حكيم وزوجَها عكرمةَ يقاتلان أجنادَ الروم في معركة «أجنادين» ويُظهران شجاعةً فائقة!

ويَلْقَى عِكرمةُ ربّه شهيدا مع الرفيق الأعلى!

وأمام موقفِها البُطولى تقدم البطلُ «خالدُ بن سعيد» إليها يطلب يدَها، وفي صبيحة يوم عُرسه يلقَى رَبَّه شهيدا وهى إلى جَانِبه!

فتأخذ «عَمودَ الخَيْمةِ» التى قُتِل فيها زوجُها الثاني وتقتحمُ صفوفَ الأعداء كالنمرة المهتاجَة، وتقتلُ بذلك العمودِ سبعةً من أجناد الروم!

وتقديرا لشجاعتها وتخليدا لهذا العمل البطولى الرائع سُمِّيَت القنطرة التى دارت المعركة إلى جانبها:

«قنطرة أُمِّ حكيم».

هذه أم حكيم، وهذا دورها:

وهكذا تكون الزوجة!

وهكذا تكون المرأة المسلمة.

فسبحان مقلب القلوب القائل في كتابه لرسوله:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص : 56].

إن باب التوبة مفتوح على مصراعيه!

ومازال في الزمن لحظات أجمل من الماضى!

وعلينا أن نحاولَ؛ فالحياة الأملُ، والأملُ الحياة!

رملة بنت أبى سفيان

نَموذَجٌ فريد بين النساء!

أبوها أبو سفيانَ بنُ حَرْبٍ..

وأخوها مُعاويةُ بنُ أبى سفيان..

ولأبى سُفيانَ ماضٍ في الكفر والعِناد، فهو زعيم قريش الذي لا يُردّ رأيُه، ولا يخرجُ أحدٌ على سلطانه مهما كان.

لقد كان سيدَ مكةَ المُطاعَ!

ولكن وآه مما بعد لكن... لكن ابنته «رملة» أم حبيبة قد خرجت على هذا السلطان! فتحدّت أصنامَهم، وكفرت بآلهتهم، وآمنت هى وزوجُها عُبَيْدُ اللَّه بن جَحش - باللَّه ورسولِه، وأن ما جاء به هو الحق!

ولقد أحدث إعلانُ إسلامها دَوِيًّا في مكةَ وحاول أبوها أبو سفيانَ بكل الوسائل أن يردّها هى وزوجَها عن إيمانهما فلم تُفلح محاولاتُه!

لقد دخل الإيمانُ قلبهما..

وإذا حَلَّتِ الهدايةُ قلبًا نشطتْ للعبادةِ الأعضاءُ

وظلت قريشٌ تراقبُ هذه التجربةَ الإيمانية، وهى خائفةٌ على آلهتِها بعد أن تسرّب الإسلامُ إلى العمقِ..

إلى بيت أبى سفيانَ بعد أن كان مُقْتصرا على العبيد والمستضعفين!

ولما أحست قريشٌ من أبى سفيانَ سُخْطًا على رملةَ وزوجِها- امتدتْ أيديها بالأذى إلى رملة وزوجها!

وضيقت عليهما حتى أصبحت حياتُهما لا تُطاق بمكة!

فإلى أين يا تُرى؟!

لقد انتظرا حتى أذنَ الرسولُ ﷺ للمسلمين بالهجرة إلى الحبشة وكانت رملةُ وزوجُها «عبيدُ اللَّه» وطفلتهما الصغيرة «حبيبة» على رأسِ المهاجرين إلى الحبشة الفارّين إلى اللَّهِ بدينهم عند النجاشى ذلك الملك الذي لا يُظْلَم عنَده أحَدٌ.

وفي الحبشة طاب لهما المُقام، وأحسَّا بالأمان والاطمئنان على دينهما، فسَعِدا ونَعِما بحياتهما الجديدة لولا شوقٌ إلى لقاءِ الرسول ﷺ والاستماع إليه، وتلَقّى العلمَ والحكمةَ على يديه!

ولكن عند صفو الليالى يحدثُ الكَدَرُ!

فلم يهدأ لأبى سفيانَ بالٌ، ففكَّر وقدَّر، وأرسل رسلَه إلى النجاشى يُحَرّضُه على المهاجرين جميعا ويطلب أن يُعيدهَم إلى مكة!

ولم يكتفِ بهذا بل أخبره أنهم يقولون في المسيح وأمِّه قولًا لا يُرْضيه!

فبعث النجاشى إلى زعماء المهاجرين واستمع إلى ما جاء في «سورة مريم» فبكى وقال:

إن هذا الذي أنزله اللهُ على نبيكم محمد، والذي جاء به عيسى بن مريم يخرجان من مصدر واحد!

ثم أعلن إيمانَه باللَّهِ الواحِدِ الذي لا شريكَ له وصدّق برسولهِ محمدٍ ﷺ!

وأحاطهم علما بأنهم في حمايته، ولا خوفَ عليهم من أذى قريش!

وما كادت «أم حبيبة» تشعرُ بالأمانِ والاطمئنان حتى مرت بتجربةٍ قاسية عَرَّضَتْها لكثيرٍ من الحرج!

فلقد أعلن زوجُها عُبَيْد اللَّه تَنَصُّرَه وارتد عن دينه وخيّرها بين أمرين أحلاهما مر:

إما أن تتنصّر!!

وإما أن تُطَلَّق!!

وإلى أين تذهب إن هى طُلِّقَتْ؟!

لا سبيلَ إلى عودتها لبيت أبيها في مكة فهو ما زال قَلعةً للكفر فضلًا عن شماتةِ القومِ فيها!

ليس أمامها إلا أن تبقى في الحبشة وحيدةً هى وابنتُها بلا أهل.. ولا وطن.. ولا مُعين من الناس!

ولكنها مع اللَّه!

ومن كان مع اللَّه كان اللَّهُ معه لا يُضَيِّعُه!

لا حلّ إلا أن تبقى في الحبشة حتى يأتِيَها الفرجُ من عند اللَّه!

وما كادت عِدّتُها تنقضى من زوجَها حتى أتاها الفرج!

فإذا بالبابِ طارقٌ.. وإذا وصيفةُ النجاشِيِّ ملكِ الحبشة تحييها بلُطفٍ وأدبٍ قائلة:

إن الملكَ يُحَيِّيك، ويقولُ لك:

إن محمدًا ﷺ قد خطبَك؛ لنفسِه.

وإنه قد بعث بخطاب يُوَكِّل فيه الملكَ بأن يَعقدَ له عليك، فَوَكِّلى عنك من تختارين!

لقد علمت أم حبيبة أن اللَّهَ لن يُضَيِّعَها! ووكَّلت عنها عثمانَ بن عفّانَ؛ فهو أقربُ الناسِ إليها!

وفي قصر النجاشىّ اجتمع المسلمون المهاجرون إلى الحبشة لِيشْهَدوا عقدَ أمِّ حبيبةَ على رسول اللَّه ﷺ!

وتصدَّر النجاشىّ المجلسَ، وخطبهم وأعلن إسلامه فيهم وقال: أما بعد.. فإن رسولَ اللَّه ﷺ طلب منى أن أزوجَه أم حبيبة بنت أبى سفيان، فأجبته إلى ما طلب، وأمْهَرْتُها نيابة عنه أربعَمائةِ دينارٍ ذهبا! (أعطيتها مَهرًا).

على سُنةِ اللَّهِ ورسوله!

وقال عثمانُ بنُ عفانَ وكيلُ الزوجة:

قد أجبتُ طلبَ رسولِ اللَّه ﷺ وزوّجتُه مُوكِّلتى أمَّ حبيبة بنتَ أبى سفيان، فبارك اللَّه لرسولِه بزوجته!

وهنيئا لأم حبيبةَ بما كتب اللَّهُ لها من الخير!

وتقول أم حبيبة:

ثم إنى حُمِلْتُ إلى رسول اللَّه ﷺ بالمدينة، فلما لقيتهُ أخبرتُه بما كان من أمر الخِطْبةِ وما قام به النجاشىُّ.

فسُرَّ بذلك سُرورًا عظيما.

وستظل حياة أم حبيبة مثلًا أعلى للتضحية في سبيل عقيدتها ودينها! وأملًا لكل من أوذِىَ فصبر!

أسد الله الغالب

عليُّ بن أبى طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

لعليٍّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ منزلةٌ عظيمةٌ في نفوسِ الناشئين من أطفالِ المسلمين!

فهو أولُ مَن أسلمَ من الصِّبيان، وثالثُ المسلمين بعد النبيِّ ﷺ وزوجهِ خديجةَ أُمِّ المؤمنين!

ولا عجبَ؛ فقد وُلِدَ في رِحَابِ الكعبةِ المشَرَّفة!

وكرّم اللَّهُ وجهَه عن السجودِ لآلهتهم المزَيَّفَة!

وشاء القدرُ أن يقومَ النبيُّ ﷺ برعايتِه وتربيتِه تقديرًا ووفاءً لعَمِّه أبى طالب الذي رعاه بعدَ موتِ أمِّه وأبيه، وجَدِّه عبد المطلب.

ولا يعرفُ الفضلَ لأهلِ الفضل إلا ذَوُو الفضلِ!

يوم وُلِدَ قال الناسُ: هاشميٌّ يولَدُ من أبوين هاشِميَّيْن.

ويوم صار خليفةً قال الناس: أولُ خليفة هاشميّ الأبِ والأم.

فأبوه أبو طالب بنُ عبدِ المطلب بنِ هاشمٍ بنِ عبدِ مناف، وأمه فاطمَةُ بنتُ أسدِ بنِ عبدِ مناف!

ولهاشم في مكةَ تاريخٌ يذكر..

ونظرا لما كان لأَبوَيّ عليٍّ من فضل عظيمٍ في رعاية النبيّ ﷺ بعد موت أمه وأبيه وجده عبد المطلب!..

نظرًا لهذا لم ينسَ النبيُّ ﷺ فضلَهما عليه، ورعايتهما له، فساهم في تربية عليٍّ، تقديرًا للجميل، وتخفيفًا عن عَمّه أبى طالب الذي كان كثيرَ الأولاد!

وضم بيتُ محمد ﷺ وخديجَةَ - رضى اللَّه عنها - عليّا ليكون ثالثَهما.

وكأنما أعدّه القدَرُ على مَهل حيث تَرَبّى في بيتِ النبىّ ﷺ، فلا عجبَ أن يفتديَه بنفسِه ليلةَ هجرتِه من مَكّةَ إلى المدينة بالنوم على فِراشةِ، ولا عجبَ أن يقومَ برَدّ الأمانات إلى أهلِها في مكةَ قبلَ أن يلحقَ برسول اللّه ﷺ بالمدينة المنورة يوم وُلِدَ سمته أمُّه «حَيْدَرَةَ» فأبوها أسد وحَيْدَرَةُ اسم من أسماء الأسد.

أما أبو طالب فسماه «عَلِيًّا» رجاءَ أن يكونَ له من اسمِه نصيبٌ فيكون عالىَ الشأنِ عندَ اللَّهِ والناسِ!

وفي ذلك يقول:

سميتُه بعَلِيٍّ كَيْ يَدُومَ له ... عِزُّ العَلاء، وخيرُ العِزِّ أدْوَمُه

وتحقَّقَتْ أمنياتُ أبيه، فقد تحمَّلَ مع النبى ﷺ عِبْءَ الدعوة.. وشهدَ غَزَواتِه كُلَّها إلا «غزوةَ تبوك» فإنه ﷺ خلَّفه في أهل بيته، فقال: يا رسولَ اللَّهِ، تُخَلِّفُنى في النساءِ والصِّبْيان؟!

فقال: «**أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارونَ من موسى غير أنه لا نَبِىّء بعدى**[1]؟!».

فهدأت نفسُه، وهو الذي أَحْسَنَ البلاء في جميعِ الغزواتِ فكان أولَ المبارزينَ يومَ بدر.

وكان ممن ثبتوا يوم حُنَيْن!

وفي يوم خيبر قال عليه الصلاة والسلام:

«**لأعْطِيَنَّ الرايةَ غدا رجلا يحب اللَّهَ ورسولَه ويحبانه**» (البخارى ومسلم).

فأعطاه الراية، فكان الفتحُ على يديه!

وفي السنة التاسعة أرسله الرسولُ ﷺ ليبلغَ الناسَ أوائل سورة براءة، وهى «ثلاثَ عَشْرَ آية» وقال:

«**لا يؤدى عَنِّى إلَا رَجُلٌ مِنِّى**» (أخرجه أحمد والترمذى والنسائى).

نعم، لقد سماه أبوه «عليا» ليدومَ له عِزُّ العَلاء!

(1) أخرجه الشيخان.

وهل هناك أعظمُ من أن يعتبره النبيُّ ﷺ أخًا له ؟ فقد روى الترمذى عن ابن عمر قال:

آخَى النبى ﷺ بين أصحابه، فجاء عليٌّ تدمَعُ عيناه، فقال: يا رسولَ اللَّه، آخيتَ بين أصحابِك، ولم تؤاخِ بينى وبين أحد؟!

فقال ﷺ: «**أنت أخى في الدنيا والآخرة!!**» (أخرجه الترمذى).

ويا له من شرف عظيم ذلك الذى ناله عليٌّ بمصاهرة الرسول ﷺ وزواجه من ابنته السيدةِ الفاضلةِ الزهراء فكان منها نسلُه الشريفُ!

وأصبح بعد حيدرةَ وعليٍّ «أبا الحَسَنِ» وأبا الحُسَيْنِ.

لقد كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند حُسْنِ الظَّن به!

نعم كان مضربَ المثَل في القوةِ والشجاعةِ!

اقتلع «هُبَلَ» من ظهر الكعبة، وكان شيئا هائلا، فرمى به إلى الأرض!

وقلَع بابَ خيبر، وقد عجزت عُصْبةٌ من الناسِ أن تُحَرِّكَه..

ولم يَفرَّ في حربٍ قَطُّ..

ولم ينهزمْ قَطُّ..

ولا بارزَ أحدًا إلا غَلَبه.

أما عن تَقْواهُ، وخوفِه من اللَّهِ، فقد كان غايةَ الغايات في التقوى والزهدِ والوَرَع، والتقشفِ والحلمِ، والتمسكِ بالحقِّ، والصرامةِ في تنفيذ أحكام الدين.

وحَسْبُه أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يرجعُ إليه في كثيرٍ من المسائل، ويقول عنه: «**لولا عليٌّ لهلكَ عُمَرُ!**».

ويقول:

«**لا يُفْتِينَّ أحدٌ في المسجد وعليٌّ حاضر!**».

وكثيرا ما يقول عندما تتعقد الأمور: «**قضية ولا أبا حَسَنٍ لها!**».

وليس هذا بعجيب!

فإنه لما بعثه الرسولُ ﷺ إلى اليمن قاضيا دعا له قائلا:

«**اللهم اهدِ قلبَه، وثَبِّتْ لسانَه**» (أخرجه الحاكم وصححه).

فقال عليٌّ: «ما شككتُ بعدها في قضاء بين اثنين».

وقد قيل لابن عباس: أين علمُك من علمِ ابنِ عَمِّك عليّ؟

فقال: كنِسْبَةِ قَطرةِ المطرِ إلى البحرِ المحيط!

وقد صرح «ابن عباس» وهو حَبْر الأمة وعالمُها بأن كُلَّ عِلْمِه في التفسير أخذه عن عليٍّ رضى اللَّهُ عنهما.

لقد كان عليٌّ - كرّم اللَّهُ وجهَه- أمةً[1] وحدَه!

وكيف لا وهو أسدُ اللَّهِ الغالب وصاحبُ الأوليات؟!

إنه أول الصِّبيان إسلاما!

وأول المبارزين «يوم بدر»!

وأول الثابتين «يوم أحد»!

وأول الفاتحين «يوم خيبر»!

وأول السابقين «يوم فتح مكة»!

وأحد العشرة المبشَّرين بالجنة!

ولقد ظل على وفائه وولائه حتى لقيَ الرسولُ ﷺ رَبَّه، فكان أحدَ السِّتةِ الذين مات الرسولُ ﷺ وهو عنهم راضٍ.

وكيف لا وقد كان نَمُوذَجًا للأدب والتواضع.. سأله ابنه محمدُ بنُ الحنفية ذات يوم: يا أبتِ، أيّ الناسِ خيرٌ بعدَ رسول اللّه ﷺ؟

قال: أبو بكر.

فقال: ابنُه: ثم من؟

قال: عمرُ.

فخشِيَ ابنُه أن يقولَ له: ثم من؟ فيقولَ: عثمانُ!

فقال له: ثم أنت!

(1) الأمة: الرجل الجامع لخصال الخير، وقد كان سيدنا إبراهيم أمة.

فقال عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما أنا إلا رجلٌ من المسلمين!!

وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى جانب تواضعه، وشجاعته، وعلمه، زاهدًا في الدنيا أمينًا على أموالِ المسلمين: كانت الأموالُ تُجبى إليه من جميع البلاد ولكنه ظل أخشنَ الناسِ مَأكَلا ومَلْبَسا!

جاءه أخوه «عَقيل» وعليه دَيْن يُريدُ أن يَسُدَّه عنه عليٌّ خليفةُ المسلمين القابضُ على بيتِ المال!!

تُرى ماذا كان موقفُه منه؟!

أضافه، ودعا بعَشائه، فإذا هو خُبْزٌ، ومِلح، وبَقل.

فقال عَقيلٌ متسائلا عن الوليمةِ التى كان ينتظرها:

ما هو إلا ما أرى[1]؟!

فأخبره عليٌّ أنه لا سبيلَ إلى تغيير هذا الطعام!

فقال عقيلٌ: فتَقْضى دينى؟

قال: وكم دينُك؟

قال: أربعون: ألفا.

قال على: ما هى عِندى، ولكن اصبر حتى يخرجَ عطائى، فإنه أربعة آلاف درهم فأدفعَه إليك.

قال عَقيل: بيتُ المال بيدك وأنت تُسَوّفنى بعطائك؟!

فقال عليٌّ: تأمرنى أن أدفعَ إليك أموالَ المسلمين وقد ائتمنونى عليها؟!

إنها الأمانةُ التى عرضها اللَّهُ على السمواتِ والأرض فأبَيْن أن يحملنَها وحملَها الإنسانُ!

ويتجلّى خُلُق الإيثارِ في «الإمام على» فبينما كان يمرُّ بسوق البَصرة، ومعه غلامُه «قُنْبَرُ» إذا به يتوقف عند بائع ثياب ويسألُه: أعندك ثوبان بخمسة دراهم؟

فقال بائع الثياب: عندى ثوبٌ بثلاثةِ دراهمَ.. وعندى ثوبٌ بدرهمين..

(1) أليس عندكم غير هذا؟!

وهنا أعطى الإمامُ عليٌّ غلامَه قُنْبر أغلى الثوبين، وأخذ لنفسه الثّوبَ ذا الدرهمين، وهذا قِمةُ الإيثار!

روى الخطيب البَغدادى: أن رسول اللَّه ﷺ قال لعلى: «**من أشقى الأولين؟**»

قال: عاقرُ الناقةِ.

قال: «**فمن أشقى الآخرين**»؟

قال: اللَّهُ ورسوله أعلم.

قال: «**قاتلُك**».

وتحققت نبوءةُ الرسولِ ﷺ، فقد ذكر ابنُ جَرير أن ثلاثةً من الخوارج وهم:

1 - عبد الرحمن بن مُلجم.

2 - والبُرَك بن عبد اللَّه التميمى.

3 - وعمرو بن بكر التميمى.

اجتمعوا وقرروا الخَلاص من (على، ومعاوية، وعمرو بن العاص) وتكفل ابن ملجم بعلى، والبُرك بمعاوية، وعمرو بن بكر بعمرو بن العاص.

وتعاهدوا وتواثقوا أن لا يَنْكُصَ[1] رجلٌ منهم عن صاحبه حتى يقتلَه أو يموتَ دونه!

فأخذوا سيوفَهم فَسَمَّمُوها، وخرج كلٌّ منهم إلى حيثُ شاء على أن تكون ليلةُ السابع عشَرَ من رمضانَ هى الليلة الحاسمة.

وقصد ابن مُلْجم «الكوفةَ» وفي الليلة المتفق عليها وبينما كان عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوقظُ الناسَ لصلاةِ الفجر إذْ ضربه ابن مُلجم بالسيف فسال دمُه على لحيته!

(1) ينكص : يتراجع.

أما معاويةُ وابنُ العاص فقد شاء اللَّهُ لهما أن ينجوَا وأمسك الناسُ بابن مُلجم وحُمِل عليٌّ إلى بيته.

وجيء بابن ملجم، فوقف مكتوفا أمام عليٍّ فسأله: أيْ عدوَّ اللَّه، ألم أُحْسِنْ إليك؟

قال: بلى.

قال: فما حملك على هذا؟

قال: شَحَذْتُه أربعين صباحا، وسألت اللَّهَ أن يقتلَ به شرَّ خَلْقِه!

فقال علي: لا أراك إلا مقتولًا به، ولا أراك إلا من شَرِّ خلقِ اللَّهِ!

ثم قال: إن متُّ فاقتلوه، وإن عشتُ فأنا أعلم كيف أصنعُ به؟

فقال جُندُبُ بنُ عبدِ اللَّه: يا أميرَ المؤمنين، إن مت نبايع الحسنَ.

فقال: لا آمركم ولا أنهاكم أنتم أبصرُ!

وكانت آخرُ وصاياه: «**قولوا للناس حسنا كما أمركم اللَّه.**

وإياكم والتقاطع والتفرق».

﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [المائدة:2].

﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾[الزلزلة: 7، 8] وصعدت روحُهُ إلى باريها مع الانبياء والصديقين وحسن أولئك رفيقا سنة أربعين هجرية.

وسوف يظل مثلا يقتدى به!!

الزُّبَيْرُ بن العوّام

ذات يوم أشرقت مكةُ بنور ربِّها حين نزل جبريلُ على النبى محمد ﷺ ليبلغَه أمرَ ربه بأن يحملَ أمانةَ الدعوة، ويكونَ للناس بشيرا ونذيرا، ويمحوَ ظلماتِ الشركِ والوثنية بنورِ القرآن الكريم!

ولكنه ﷺ بعد ثلاثةَ عشرَ عامًا لم يجد من قريش الاستجابة التى كان يرجوها، بل وجدهم يُحاصرون الدعوة، ويُلاحقون من آمنوا بها، ويكادون يقضون عليها!

ولم يكن أمامَ الرسول ﷺ وأصحابِه إلا أن يُهاجرَ من مكةَ إلى المدينةِ فِرارًا من أذى قريش، وبحثا عن أرض جديدة يجدُ المسلمون فيها متنفّسًا، ويُبَلِّغوا رسالةَ ربهم، لتكونَ كلمةُ اللَّهِ هى العليا، وكلمةُ الذين كفروا السفلى!

وكان الزبيرُ بنُ العوّامِ واحدًا من هؤلاء الذين استجابوا للَّه وللرسولِ، ووقف في وجهِ أعداءِ الدعوةِ الجديدةِ وخصومها، وهاجر مع مَنْ هاجروا ليكون إلى جوار الرسولِ ﷺ ولا عجبَ، فهو حواريُّ الرسول ﷺ وابن عمته صفية، وأحدُ العشرة المشهودِ لهم بالجنة، وأحدُ الستةِ أصحابِ الشُّورى.

وفي أولِ مواجهةٍ بين الإسلام وأعدائه تجلّت ألوانٌ من البطولاتِ في مَعركةِ بدرٍ!

وتدفّقت ملائكةُ النصر تؤيدُ المسلمين، وتساندُهم والرسولُ ﷺ يدعو ربَّه: «**اللهمَّ إن تهلك هذه العصابة**[1] **من أهلِ الإسلام لا تُعْبَدُ في الأرضِ**»[2].

(1) العصابة: الجماعة.

(2) السيرة النبوية لابن هشام.

واستجاب اللَّه دعاءَ الرسولِ ﷺ وأنزل عليه بُشرى النصر: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: 9، 10].

وفي هذا اليومِ العظيم لقى الزُّبيرُ عُبَيْدةَ بنَ سعيد بن العاص، وكانَ مشهورًا بشدته وبطولته.

وكانت قريشٌ تضعه في الصف الأول من صفوفها لبطولته النادرة، وفروسيته الفذّة[1].

ورأى الزبيرُ بطلَ قريش مُدَجَّجًا[2] بالسلاح من قمّةِ رأسِه إلى أَخمصِ[3] قدميه، لا يُرَى منه إلاعيناه!

تمهلَ الزُّبير، وراح يفكر: كيف يمكن غلبةُ هذا الفارسِ المدرّع؟!

وهداه اللَّه إلى ثُغْرةٍ قاتلة!

دار حولَه مرةً وأخرى، وإذا هو يُوَجِّه إليه طعنة قاتلة بعنَزَته[4].

واخترقت هذه الطعنةُ عينَه، ونفذَت إلى مُؤَخِّر رأسِه!

وصرخ بطلُ قريش، وخرّ على الأرض جسدًا ما فيه روح!

وصاح المسلمون: اللَّه أكبر! وتدفقوا كالموج يقتلون ويَأسِرون!

وسمع الرسولُ ﷺ بعَنَزَةِ الزُّبير، فطلبها منه، فأعطاه إياها، ولما مات احتفظ بها أبو بكر، ثم عمرُ، ثم عثمان، ثم عليٌّ.

ثم جاء ابنُه «عبدُ اللَّهِ» وأخذها من عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ!

---

(1) الفذة: التى لا نظير لها.

(2) مدججا: لابسًا سلاحه.

(3) أخمص القدم: باطن القدم الذي يتجافى عن الأرض.

(4) العَنَزة: الرمح القصير.

وتمر الأيام والزبيرُ يلازم الرسولَ ﷺ كظِلِّه ويحرسه، وذات يوم أخذته ﷺ سِنةٌ من النوم، وكان الزبير بجانبه، وغلب النعاس عينى الرسول ﷺ، وأخذ الزبير يدفع عن وجهه الشريف، حتى استيقظ الرسولُ ﷺ من نومه، وقال:

«يا أبا عبد اللَّه، لم تَزُل[1]؟!

قال: لم أزُل - بأبى أنت وأمى[2] - يا رسولَ اللَّه!

قال ﷺ: **«هذا جبريلُ يقرئك السلام، ويقول لك: أنا معك يوم القيامة حتى أَذُبَّ[3] عن وجهك شررَ جَهَنَّمَ»**.

ولا تسل عن فرحته بهذه البشرى!

لقد أسرع إلى بيته يحمل البُشرى إلى زوجتِه السيدةِ أسماءَ بنتِ أبى بكر الصديق ليُبَلِّغَها هذه البشرى!

ودارت الأيام، وأعدت قريش عُدتَّهَا، ومعها بعضُ القبائل، وحالفها كثير من اليهود، وتجمعت هذه الأحزابُ لمحاصرة المدينةِ.. مدينةِ الرسول ﷺ للقضاء عليها!

فراح الرسول ﷺ يدعو الأنصار والمهاجرين لملاقاة الأحزاب، ومواجهةِ كيدِهم، وردِّ عُدْوانهم!

وكان «الزبيرُ بنُ العوام» أولَ من أجاب دعوةَ النبى ﷺ فنظر إليه الرسول ﷺ، وافترَّ ثَغْرُه[4] عن ابتسامة وقال:

«لكلِّ نبى حَوَارِىٌّ، ومن حوارِيَى الزُّبَيْر»[5].

---

(1) لم تَزُل: لم تتحرك.

(2) بأبى أنت وأمى: أفديك. جملة دعائية.

(3) أَذُبّ: أدفع وأبعد.

(4) افتر ثغره: انفتح.

(5) حوارى: صاحب وناصر.

وأسرع الصحابةُ بعدها إلى الرسول ﷺ، وأخذوا يحفِرون الخندقَ حولَ المدينة، والزبيرُ يحفِرُ معهم حتى سال عرقُه!

وجاءت قريشٌ وحلفاؤُها وأنصارُها، ولكنها فوجئت بالخندق، فلم يستطيعوا اقتحامَه، فانتظروا أياما، وجاء النصر من عند اللَّه!

فأرسل عليهم ريحا صرصرا[1] أطفأت نيرانُهمُ وقلبت قدورَهم، وقلعت خِيامَهم، فتفرقوا، وكفى اللَّهُ المؤمنين القتالَ!

وظل الزبيرُ على عهده ووعده..لم يتخلف عن الغزوات التى غزاها رسولُ اللَّه ﷺ! حتى كان جسدُه مُجَدّعا[2] بالسيوف، وفيه أمثال العيون من الطعن.. ما فيها جُرح إلا مع رسول اللَّه ﷺ وفي سبيل اللَّه!

وفي موقفه «يوم اليَرْمُوكِ» أصدقُ دليل على شجاعته، وما كان يمتاز به من حماسة وإدام لا يهاب أحدًا إلا اللَّه!

كان الرومُ يومَ اليرموكِ أشداءَ أقوياءَ، فاجتمع إلى الزُّبيرِ جماعةٌ من الأبطالِ، وقالوا له:

ألا تَحملُ[3] فنَحملَ معك؟!

قام: نعم.

وانطلق الزبير كالشهاب[4] والأبطال معه حتى إذا واجهوا الصفوف أحْجَمُوا[5] ومُلئت قلوبُهم رُعْبًا وفزَعًا.

ورأى الزبيرُ إحجامَ نفر من قومِه، وتخلفَهم، فتركهم وانطلق وحدَه بين الصفوف، وهو يلعب برمحه وسيفه، حتى قَتلَ عددًا كبيرًا منهم!!

---

(1) شديدة الصوت، أو شديدة البرد.

(2) مجدعا: ممزقا من كثرة الطعن.

(3) تحمل: تهجم.

(4) الشهاب: الشعلة الساطعة.

(5) أحجموا: تراجعوا.

ولما عاد إلى مكانه جاءه جماعة من الأبطال، وقالوا له: احمِلْ فنحْمِلَ معك!

فقال: إنكم لا تَثْبُتُون!

فقالوا: سنثبتُ إن شاء اللَّه!

وحمَل الزبيرُ، وانطلق كما ينطلق السهم، لا يَصُدُّه صادّ، ولا يردّه رادٌّ حتى إذا لقى الروم دخل بين الصفوفِ وهو يحملُ خلفَه على فرسِه ابنَه: عبدَ اللَّه!

وكان يحملُه دائما معه في غزواته حتى يَشِبَّ قويا مُدَرّبَا على فنون الحرب والقتال! ومن شابه أباه فما ظلم!

وصال الزبيرُ وجال، وحاور وداور، وراح يُعمِلُ سيفَه في رقابِ الروم غيرَ هيَّاب ولا وَجِل[1].

يقاتل العدوَّ بنفس لا تعرفُ الخوفَ!

وكيف يخافُ، وهو يعلم أن نفسَه بيد اللَّه؟

ولقى ربّه بنفس راضيةٍ مطمئنة.

وبقيتْ ذكراه خالدةً مع الزمان.

لقد كان الزبيرُ أمة وحدَه، وركنًا من أركان الإسلام كما وصفه أميرُ المؤمنين عمرُ بن الخطاب!

لقد كان مثلا أعلى فبهداهُ اقتدِهْ!

(1) الوجَل: الخوف.

حمزة بن عبد المطلب

ابن هاشم بن عبد مناف بن قُصَيّ بن كلاب عمُّ الرسولِ ﷺ وأخوهُ من الرّضاعة، وقريبُه من أمه، الإمام البطل الضِّرغام أسدُ اللَّهِ وسَيِّدُ الشهداء!

فمتى أسلم حمزة؟

وماذا كان وقعُ إسلامِه على قُرَيْشٍ؟

وكيف كان حالُ المسلمين قبل إسلامه؟

يقول ابنُ هشام: حدثنى بعضُ أهلِ العِلم أن أَشَدَّ ما لَقِيَ رسولُ اللَّه ﷺ مِن قُرَيْش.. أنه خرج يومًا، فلم يَلْقَه أحدٌ من الناس إلا كذّبه وآذاه، لا حُرٌّ ولا عبدٌ!

فرجع رسولُ اللَّه ﷺ إلى منزله فتدثَّر[1] من شدة ما أصابه، فأنزل تعالى عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ [المدثر: 1، 2].

وأراد اللَّهُ لنبيِّه ﷺ أن يكونَ إلى جانِبه من أهِله مَن يَحميه ويمنَعُه من ذلك الأذَى حتى يقومَ بإنذار قومِه على الوجه الأكمل!

ويقول العرب في أمثالهم:

«رُبّ ضارَّةٍ نافعة!».

فقد مَرّ أبو جهلٍ برسولِ اللَّهِ ﷺ عند الصَّفَا، فآذاه، وشتمه، ونالَ منه بعضَ ما يكره من العيب لدينه، والتضعيف لأمره!

فلم يُكَلِّمْه رسولُ اللَّهِ ﷺ! لكن مولاةً لعبدِ اللَّهِ بن جُدعان كانت في مسكنٍ لها تسمعُ ذلك!

ثم انصرف أبو جهل عن النبى ﷺ فعَمَد إلى نادٍ[2] من قريش عند الكعبة، فجلس معهم.

---

(1) تدثر: تغطى بالثياب.

(2) النادى: مجلس القوم. وقد يسمى القوم المجتمعون ناديا، ومنه قول اللَّه تعالى: ﴿فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ﴾ [العلق: 17].

فلم يلبث حمزةُ بنُ عبدِ المطَّلِب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن أقبل مُتَوَشِّحًا[1] قوْسَه، راجعًا من قَنَص[2] له.

وكان صاحبَ قَنَص برميه، ويخرج له.

وكان إذا رجع من قَنصِه لم يصلْ إلى أهلِه حتى يطوفَ بالكعبة.

وكان إذا فعل ذلك لم يَمُرَّ على نادٍ من قريش إلا وقف وسلّم، وتحدث معهم.

وكان أعزَّ فتًى فى قريش، وأشدّ شكيمة.

فلما مرّ بالموْلَاةِ، وقد رجعَ رسولُ اللَّه ﷺ إلى بيته، قالت له:

يا أبا عُمارة، لو رأيتَ ما لَقِيَ ابنُ أخيك محمدٌ ﷺ آنفا من أبى الحكم بن هشام: وجَدَه ها هنا جالسًا. فآذاه وسَبّه، وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف عنه، ولم يُكَلِّمْه محمد ﷺ.

تُرَى ماذا فعل حمزةُ؟

لقد احتمل الغضبَ لما أراد اللَّهُ به من كرامته، فخرج يسعى، ولم يقفْ على أحد!

لقد أعد لأبى جهل ما هو كفيلٌ برَدْعِه وزَجْرِه حتى لا يعودَ لمثلها.. لقد عزم على الإيقاعِ به!

فلما دخل المسجدَ، نظر إليه جالسًا في القوم، فأقبل نَحْوَه، حتى إذا قام على رأسِه رفع قوسَه فضربه بها فشجّه شجةً مُنْكَرةً، ثم قال:

أتشتُمه وأنا على دينِه أقولُ ما يقولُ؟!

فُرَّد ذلك علىّ إن استطعت!

---

(1) متوشحا: متقلدا.

(2) القَنَص: (بالفتح وبالتحريك): الصيد.

فقامت رجالٌ من بنى مَخْزُوم لينصروا أبَا جَهْل، فقال أبو جهل: دَعُوا أبا عُمارة؛ فإنى قد سببتُ ابنَ أخيه سبًّا قبيحًا!

وظل حمزةُ على إسلامِه، وعلى ما تابع عليه رسولَ اللَّهِ ﷺ من قوله.

فلما أسلمَ حمزةُ عرفَتْ قريشٌ أن رسولَ اللَّهِ ﷺ قد عزّ وامتنَع، وأن حمزةَ سيمنعه[1]، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه!

وإذا هو يحمد اللَّه على نعمة الإسلام قائلا:

حمدتُ الله حين هَدَى فؤادى
إلى الإسلامِ، والدينِ الحَنيفِ
لدينِ جاء من ربٍّ عزيزٍ
خبيرٍ بالعبادِ بهم لطيفِ
إذا تُلِيَتْ رسائله علينا
تحدَّر دمعُ ذى اللُّبِّ الحصيفِ
رسائلُ جاء أحمدُ من هُداها
بآياتٍ مُبَيَّنةِ الحُروف

وكان إسلام حمزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وإسلامُ عمرَ بن الخطاب من بَعد بداية مرحلةٍ جديدةٍ في حياةِ المسلمين المستضعفين، حيث أشار عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على النبى ﷺ بالخروج من دار الأرقم وهم يومئذ نَيِّفٌ وأربعون عدا من هاجر، فخرج المسلمون في صَفين: حمزة على أحدهما، وعمر على الآخر، وهو يهتف قائلا:

لا إلَه إلا اللَّهُ محمدٌ رسولُ اللَّهِ.

ولما وصلوا إلى الكعبة طافوا حولها علانية! فعَلَت الوثنيةَ كآبةٌ لم تُصِبْهم من قبل!

وظل حمزة إلى جانب رسولِ اللَّه ﷺ يمنَعُه ويَحْميه من أن تمتدَّ إليه يدٌ بأذًى حتى كانت الهجرةُ إلى المدينةِ المنوَّرةِ، وهناك كان حمزةُ في المقدمةِ،

(1) سيمنعه: سيحميه.

ففى شهر رمضانَ من السنةِ الأولى أرسل النبيُّ ﷺ عمَّه حمزةَ بنَ عبد المطلب في ثلاثين رجلًا من المهاجرين وعقد له لواءً أبيضَ.. وكان الهدفُ من إرسالِ هذهِ السَّرِيةِ اعتراضَ عِيرٍ لقريش قادمةٍ من بلاد الشام في طريقها إلى مكةَ بقيادة أبى جهل بن هشام ومعه ثلاثمائة رجل من المشركين فسار حمزةُ ومن معه إليها حتى وصل ساحلَ البحر..

فالتقى بتجارة قريش هناك.

واستعدّ الفريقان للقتالِ مع أن عددَ المسلمين كان عُشْرَ عددِ المشركين تقريبا!

ولكن القتالَ لم يتم فقد حجزَ بين الفريقين: «مجدى بن عمرو الجهنى».

وعند ذلك توجه أبو جهل ومن معه إلى مكة..

وعاد حمزةُ وصحبُه إلى المدينة!

لقد بدأت مرحلةٌ جديدة بعد أن شرَعَ اللَّهُ لنبيه القتالَ في سبيله من أجلِ إعلاءِ كلمتِه، ورفْع الظلم الذي نزل بالمسلمين من أعدائهم حيث قال اللَّه لنبيه: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: 39، 40].

ومن أجل هذا بادر النبيُّ ﷺ بإرسال بُعوثه وسراياه إلى مختلف الأماكِن لمقاصِدَ ساميةٍ، وحكمٍ عالية، وأهداف نبيلة..

ففيها شفاء لصدور المؤمنين الذين كانوا يعيشون في مكة آمنين مطمئنين، فأخرجوا منها بغيرِ حَقٍّ إلا أن يقولوا: ربُّنا اللَّه..

وفيها - أيضا - تعويض لهم عما فقدوه من أموال انتهَبها المشركون منهم ظلمًا وعُدوانًا.

ومادام إذن اللَّه قد صدر للمسلمين برد العدوان فقد آن الأوانُ أن يخرجَ النبيُّ ﷺ إلى «بدر» في ثلاثمائة من أصحابه ليعترضوا عِيرًا لقريش بها بعضُ أموالِهم ليستردّوا بعضَ ما حصَلَتْ عليه قريشٌ من أموال المسلمين ظلما وعداونًا!

ولكنهم لم يستعدوا لحرب، فلم يكن معهم إلا سلاحُ المسافر.. سيوفُهم في أغمادها.. وليس معهم إلا سبعين بعيرًا وفرسين!

ولكن قافلةَ قريش أفلتت بما عليها حيث سلَكت طريقا آخر هو طريقُ البحر!

لكن الموقف لم ينتهِ بعدُ.. فقد خرجت قريشٌ كلُّها ومعها قبائل مكة في جيش بلغ تعدادُه ألفا من المقاتلين، ومعهم من أسلحةِ الحرب وعُدَّتِها ما لم تشهدْه البلادُ من قبل..

كان معهم ستُّمائةِ بعير، ومائتا فرس..

وكانوا يتحصنون بدروعِ الحديدِ حتى لا يبدو غيرُ أعينهم!!

إنها معركة حياة أو موت!

لابد أن يُلَقِّنُوا المسلمين درسا لا يُنسى لكيلا تقوم لهم قائمة بعد اليوم!

لقد كان المسلمون يُعَسْكِرونَ حول ماء يسمى «بَدْرا» ليمنعوا أعداءَهم منها، وأقاموا حولَ البئر حَوضا.

والتقى الجيشان عند بدر.. وبدأ التناوُشُ!

ودفعت قريشٌ برجل شرس سَيِّئ الخُلق اسمه «الأسود بن عبد الأسد المخزومى» إلى الحوض الذي أقامه المسلمون!

وأقسم أن يشربَ منه أو لَيَهْدِمَنّه، أو لَيَمُوتَنّ دُونَه!

وانطلق إلى الحوض!

وكان أسدُ اللَّهِ حمزةُ بنُ عبدِ المطلب في انتظاره فانطلق إليه بسيفِه فقطع قدمَه بنصف ساقِه وهو على الحوض فوقع على ظهرِه والدم يندفعُ من رجله.. وعند ذاك هاج وماج واندفع كالوحش الثائر نحو الحوض ليَبَرَّ بقسَمِه، ويفىَ بوعده، ولكن حمزةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان له بالمرصاد فعاجله بضربةٍ قاضية!

واستولى الذهول على القُرَشيين، وراح بعضُهم ينظر إلى بعض.. وكأنهم يقولون:

ما لهذا خرجنا!!

ما هذا الذي نراه؟!

وعندما أفاقوا من ذُهولهم تقدم «عُتبةُ بنُ ربيعةَ»

وأخوه «شيبةُ»، وابنُه «الوليدُ» للمبارزة كما هى عادتهم في القتال!

ونادوْا؛ يا محمد، أَخْرِجْ إلينا أكفاءنا من قومنا!

فقال رسول اللَّه ﷺ:

قم يا عبيدةَ بنَ الحارث..

قم يا حمزةُ ..

قم يا عليُّ..

وصاح عتبةُ بنُ ربيعةَ مرة أخرى يقول:

من أنتم؟

فقال حمزةُ: أنا حمزةُ أسدُ اللَّه، وأسدُ رسوله!

ورد عليه عُبَيْدةُ وعليٌّ.

فقال: أكفاءٌ كِرامٌ.

وكان العربيُّ يأنف من مُنَازَلة من هو أقلُّ منه شأنا؛ ويرى ذلك عارًا ومَنْقَصَةً!

وما هى إلا جولةٌ حتى قتلهم حمزةُ وصاحباه!

والتقى الجمعان.. وحَمِيَ القتال.. وحمزةُ يفتكُ بالمشركين، والكتائبُ تنهارُ أمامَه، والأبطالُ يُوَلُّون الأدبار.. والمسلمون يَقْتُلون ويَأسِرُون!

وكان من بين الأسرى «أميةُ بنُ خلف» الذي أسره «عبد اللَّهِ بن مَسعود»، وبينما هما في الطريق يقول أمية لعبد اللَّه: لقد فعل حمزةُ بنا الأفاعيلَ!!

وعادت قريش بالخِزى والعارِ في أولِ لقاء، والحقدُ الأسودُ يغلى في قلوبهم على حمزةَ الذي قتلَ رجالَهم، وجندلَ فُرْسانَهم، وأهان شرفَهم، وداسَ كرامتَهم وبينما كان حمزةُ يعودُ إلى المدينة شاكرا اللَّه أنعُمَه لنصرِه أولياءه ودَحْرِه أعداءه- كانت قريش تعود إلى مكةَ تجترُّ أحزانَها، وتفكر في الانتقام لقتلاها!

ودار العامُ دورتَه.. وأخذت قريشٌ تفكر وتدبر في يوم يُعَوِّضُهم عَنْ يَومِ بَدْرٍ، يغسلون فيه عارًا، ويستردون شرفا!

وعرفوا أن حمزةَ لا يُمكن النيلُ منه وجهًا لوجه فليس أمامَهم إلا سلاحُ الغدر والخديعة!

فقبْل أن يتحركَ جيشُهم دعا «**جبير بن مُطعم**» غلاما له حبشيًّا يقال له: «وَحْشيّ» يُجيدُ القذف بحربته كما يفعل الأحباش، ولا يكاد يُخْطِئ، وقال له:

سوف تخرجُ من المقاتلينِ فإن استطعت أن تقتلَ حمزةَ عمَّ محمدٍ بعَمِّى طعيمةَ بنِ عديٍّ فأنت حُرّ!

وفي الطريق مرّ وحشيٌّ على أبى سفيانَ ومعه امرأتهُ هندٌ فراحت تحرضه على قتل حمزةَ بأبيها وأخيها وعمها! وله عندها كلُّ ما يطلبه من مال!

وكان اللقاء عند جبل أحد!

وتجلت بطولة حمزةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ففرق جمعَهم، وشتت شملَهم، وقتل حاملَ لوائهم كل ذلك وَوَحْشِيٌّ كامنٌ له.. حيث لا يراه أحد!

وجاءت اللحظةُ الرهيبةُ، ورأى وحْشِيٌّ الفرصةَ سانحةً فهز حَرْبَتَهُ وقذفها نحو حمزةَ، وهو مشغول بمواجهة أعداء اللَّه!

لقد اخترقت الحربةُ جسدَه الطاهر فاندفع نحوه يحاول القضاءَ عليه ولكن الحربةَ أجهزت عليه فخرّ صريعا، وهو الذي قتَلَ في أُحُد وحدَها واحدًا وثلاثين بطلًا.

وعند ذلك تُقْبِلُ هند بنتُ عتبةَ على حمزةَ فَتُمَثِّل بجثته وتشفى غيظَها منه، وتقف على صخرةٍ عالية وتُنْشِد:

نحنُ جَزَيناكم بيومِ بدرِ
والحربُ بعد الحرب ذاتُ سُعْر

ما كان لى عن عُتْبَةَ من صبرِ
ولا أخى وعمه بَكْرِ

شفيتُ نفسى، ووفيت نذرى
شفيتَ وحشىُّ غليلَ صَدْرى

فشكرُ وحشىٍّ علىّ عُمْرى
حتى تَرِمَّ أعظُمى بقَبْرى

وحين رآه الرسول ﷺ تأثر كثيرا من تمثيلهم بجثته، وخطر له أن يَنْتَقِمَ من قتلاهم، ولكن القرآن نزل عليه:

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾[النحل: 126، 127].

وتطمئن القلوبُ بقول اللَّه تعالى:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: 169، 170].

خالد بن الوليد «سيف الله المسلول»

أحدُ إخوةٍ من الذكور قيل: إنهم عشَرةٌ!

كان أبوه زعيمًا بين زعماءِ مكةَ، وأغنى أبناءِ زمانِه فلم يُنَافِسْهُ في ثَرائِه أحدٌ في مكةَ، ومن أجل هذا سُمى بالوحيدِ، ولُقّبَ بريحانةِ قريش!

وفيه نزلت آياتٌ من القرآنِ الكريمِ من «سورةِ المدّثر» يقول اللَّه فيها لنبيه ﷺ:

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا﴾ [المدثر: 11 - 14].

هذا هو أبوه، ومن شابه أباه فما ظلم!

لقد قام النبى ﷺ ذاتَ يومٍ في المسجدِ الحرامِ يُصلى، والوليدُ بن المُغيرة على القربِ منه يَسْمَعُ قراءَته حتى إذا انتهى النبيُّ ﷺ من قراءتِه انطلقَ الوليدُ إلى مجلسِ قومِه من بنى مخزوم فقال:

«واللَّهِ لقد سمعتُ من محمدٍ آنفًا كلامًا ما هو من كلامِ الإنسِ، ولا من كلامِ الجن.

واللَّهِ إن لَه لحلاوةً، وإن عليه لَطَلاوَةً، وإن أعلاهُ لَمُثمِر، وإن أسَفلهُ لَمُغْدِق.. وإنه يَعْلُو.. وما يُعْلَى عليه..»

ثم انصرف إلى منزلِه: وهنا جُن جنونُ قريش؛ هذا زعيمُهم يقول فيما سمعه من محمدٍ مثلَ ما قالَ!

معنى هذا.. أنه صَبَأ، وخرج عن دينِ آبائِه..

وسوف تَتْبَعُه قريشٌ، فبعثوا إليه أبا جهلٍ لصرفِه عن الإسلامِ إن كان قد نوى الدخولَ فيه!

ومازال به حتى قام مَعَهُ إلى مجلسِ قومِه، وهنا قال لهم:

- تزعمونَ أن محمدًا مجنونٌ: فهل رأيتُموه يُخْنَق قَطّ؟

• تزعمون أنه كاهنٌ فهل رأيتُموه قَطُّ تَكَهَّنَ؟

• تزعمون أنه شاعرٌ، وما فيكم أحدٌ أعلمَ بالشعر منى، فهل رأيتموهُ ينطق بشعرٍ قط؟!

• تزعمون أنه كذابٌ، فهل جرّبتم عليه شيئًا من الكذبِ؟

وأخذ يسألُهم وهم يُجيبون عن كل سؤال: كلَّا.. كلَّا.. لا شيء من هذا.. ولما أعياهم أن يردّوا كلامَه سألوه رأيَه في بلاغةِ القرآنِ ففكَّر. وقدّر.. ثم قال:

ما هو إلا سِحْرٌ يُؤْثَر!

أمَا رأيتمُوه يفرّقُ بين الرجلِ وأهلِه وولدِه ومواليه؟

فهو ساحر، وهذا هو السحر المُبين!

ويصوَّر القرآن ما حدث بقوله: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر: 18 – 25].

وفي هذا الجو نشأ خالد.. نشأ في بيت الوليد بن المغيرة، وهو سيد بَني مخزوم، وأحد السادات المعدودين في قريش، وصاحبُ الكلمةِ التى يتعلقُ بها قومُه فيما يتعلقُ بالدين!

وبدت عليه مَخَايلُ الفروسيةِ منذ صباه الباكر، فرأيناه يومَ أُحُد على رأس فُرسانِ قريش الذين قاموا بحركة التفاف، وأحاطوا برُماةِ المسلمين من ورائهم فحلّت الهزيمةُ بجيش المسلمين بعد انتصاره! ولا عجب!

فقد كان خالد فتًى ناشئا يوم ظهر النبيُّ ﷺ بالدعوة الجديدة!

فنفَرَ منها، وتجرّد لها بعزيمةِ الفُتوة، وشجاعةِ البطولة، حتى وجد الفرصَة سانحةً يوم أُحُد فقاد الفرسانَ وتولّى الهجمةَ التى رجّحت كِفَّةَ قُريشٍ فانتصروا بعد هزيمة!

وظل على عداوتهِ وكراهيتِه للإسلام كما كان أبوه!

فلما صالح النبيُّ ﷺ قريشًا ودخل مكةَ في «**عُمْرة القضاء**» تغيَّبَ خالدٌ من جِوار البيت؛ ريثما يَعتَمِر المسلمون، ويَرجعون من حيث أَتَوْا وكانت له بعدئذ وقفة مع نفسه فأخذ يسائلها:

فيم هذا العِداءُ والنِّضالُ؟

أمن أجلِ الكعبةِ؟

إن محمدا يرعاها ويَحُجُّ إليها، ويحترمُ جوارَها!

أمِن أجْلِ الكرامةِ، ومحمدٌ يَصونُ للعزيز كرامتَه، ويعرفُ للحسيب قدرَه؟

ومن أين لمحمد ذلك النصرُ المبين؟ ومن أين له تلك المهابة؟

ومن أين له ذلك العَوْنُ حيث تُحيط به الهزيمة من كل فجٍّ؛ فإذا هو الظافر المنتصر؟

وفي تلك اللحظات الحاسمة جاءته رسالةٌ من أخيه الوليد الذي سبقه إلى الإسلام يقول فيها:

«أما بعد .. **فإنى لم أرَ أعجبَ من ذهابِ**[1] **رأيك عن الإسلام، وعقلُك عَقْلُك**[2].. **ومِثلُ الإسلام لا يجهلُه أحَد؟!**».

ثم مضى يقول له: «**سألنى رسولُ اللَّه ﷺ فقال: «أين خالد؟» فقلت: يأتى اللَّهُ به، فقال: «مَا مِثلُ خالدٍ يَجْهَلُ الإسلامَ!!**».

وكانت هذه الرسالة هى الدعوة التى جاءت في أوانها!

وكان إسلام خالد هو الواجب.

وكان معه عمرو بن العاص.

وأحسَّ المشركون بعد إسلامِهما أن المسلمينَ قادمون!

وأنهم زاحفون عليهم لا محالةَ في كلِّ اتجاهٍ!

---

(1) ذهاب رأيك: انصرافك.

(2) شهد لك به الجميع.

من كان يُصَدِّقُ أن خالدًا قد أصبح سيفَ اللَّهِ المسلول؟ وأنه سوف يواجهُ جُنُودًا في جيوش المشركين كانوا بالأمس رُفقاءَ سلاحٍ؛ فيرمونه ويرميهم. وقد كانوا معًا يرمون المسلمين من قوسٍ واحدة؟

إن الهدى هدى اللَّه!

وإذا حَلَّتِ الهدايةُ قلبًا نَشَطَتْ للعِبادَة الأَعْضَاءُ

ما أغلى تلك اللحظاتِ الباقية من العمر!

لقد آن الأوان أن ينصرَ خالدٌ الإسلامَ على الجاهلية القُرشيةِ، وأن يحاربَ في صفوفِ الإسلام عربَ الجزيرة، وعربَ العراق والشام!

وآن الأوان ليحاربَ الفرسَ والرومَ.. وكُلَّ من برز للمسلمين!

أما «عمرو بن العاص» فقد شهدت أرضُ الشام وفِلَسطينُ زَحْفَهُ وانتصاراتِه، وكان على موعد مع الأيام ليفتحَ مِصْرَ، وليكون أميرَها.

لقد صحب خالدٌ النبيّ ﷺ ثلاثَ سنواتٍ، وعَهدَ إليه النبيُّ ﷺ في كثير من الأعمال الصغيرةَ، وأشركه في بعض الأعمال الكبيرة؛ ومنها: «غزوة مُؤْتَةَ»، و«غزوة حُنَيْن»، وسَرِيّة بَنى جَذيمة!

ولقد عرَفَ النبى ﷺ أنه سوف يكون له شأنٌ من الشأنِ، وانه جديرٌ بلقب «**سيف الإسلام**».. هذا اللقب الذي لا يعلوهُ لقبٌ في الإسلام!

سماه «**سيفَ اللَّه المسلولَ**» قبل أن يهزِمَ المرتدين.. وسماه «**سيفَ اللَّه المسلول**» قبل أن يهزم الفُرْسَ والرومَ.

وسماه «**سيفَ اللَّه المسلول**» قبل أن يصونَ للإسلام جزيرةَ العرب، ويضمَّ إليها العِراقَ والشام.. وهى الأعمال الجِسام التى من أجلها يدعى اليوم «سيفَ الإسلام».

إنها رؤية النبوة...وما ينطق عن الهوى!

لقد اندقت في يد خالد يوم مُؤْتَةَ تسعة سيوف، ولم تصبر معه إلا «صفيحة يمانية»[1] بعدما تولى القيادة في حِينِها، وصنع لساعته خيرَ ما يصنعُ الصانعون، وحقق للجيش الارتدادَ المأمونَ حتى قَفَلَ إلى المدينة بسلام، وعُرف خالدٌ آنذاك بلقبه الذي أضفاه عليه النبى ﷺ وهو «سيف اللَّه».

وكيف لا وقد كان تراجعُه المحميُّ بشجاعةِ المستميت غطاءً صالحا للجيش الصغير في مواجهة الجيش الكبير!

وعاد الناس يقولون مع النبى ﷺ «**إنهم الكُرار بإذن اللَّه وليسوا بالفُرَّار**».

ومن المهام الصغيرة التى ندب لها خالد في حياة النبى ﷺ تسييره في ثلاثين فارسا لهدم «العُزّى» بعد فتح مكة ببضعة أيام.

وهى الصنمُ الذي كان أبوه يتمسَّح به، وينحرُ له الإبل والغنم.

وأصلُه ثلاثُ شجرات بأرضِ نخلةَ يزعمون أن ربَّهم كان يشتو بها لحَرِّ تِهامةَ، ويَصيفُ باللَّاتِ عند الطائِف لبردِها!

ويقالُ: إنه لما وصل إليها جرّد سيفَه فخرجت امرأةٌ سوداءُ عُريانةٌ ناشرةً شعرَها، فجعل السادن[2] يصيح بها:

أَعُــزّى إذا لم تقتُلى المـرءَ خالدًا ... فبوئى بإثم عاجلٍ أو تَنَصَّرى

فأخذ خالدًا «اقشعرارٌ في ظهرِه» وضربها بالسيفِ فشَقَّها.

ثم لقى النبىّ ﷺ فقال له: الحمدُ للَّه الذي أكرمَنا بك، وأنقذنا بك من الهلَكَة. لقد كنتُ أرى أبى يأتى العُزّى بخيرِ مالِه من الإبلِ والغنمِ، فيذبَحُها للعزى، ويقيمُ عندها ثلاثا ثم ينصرف إلينا مسرورا، ونظرت إلى ما مات عليه أبى وإلى ذلك الرأى الذي كان يُعَاشُ في فضله، وكيف خُدعَ حتى صار يَذبحُ لما لا يَسمع ولا يُبصر ولا يَضر ولا ينفع.

(1) الصفيحة: وجه كل شيء عريض كوجه السيف أو اللوح.

(2) السادن: الخادم والحاجب.

فقال ﷺ: «**إن هذا الأمر إلى اللَّه فمن يسره للهدى تيسر، ومن يسره للضلالة كان فيها**» وفي سبع سنينَ قِصَار فتح العربُ كل ما اقتحموه من بلاد الفرس والروم، فتقوضت في الشرق دولة الأكاسرة!

وتداعت في الشمال والغرب دولة القياصرة!

وزال سلطانُها من الشام وفِلَسْطين، ومِصرَ وإفريقية الشمالية، وشُغِلَتْ بنفسِها زمانًا عن الفاتحين وما فتحوه!!

ويالها من عجيبة من عجائب التاريخ!

وانتصرت العقيدةُ الجديدةُ.. ورفرفت أعلامُ الإسلام في كل مكان!

وبعد هذا الجهاد.. وذاك الكفاح.. كانت النهاية العجيبة!

أن يموتَ على فِراشهِ .. وقد أحزنه أن يموتَ في غير ميدانِ القتال وهو الذي خاض نيِّفًا وخمسين زحفًا وليس في جسده موضعٌ إلَّا وفيه ضربةُ سيفٍ، أو طعنةُ رمحٍ!

ولم يوجد في بيته غيرُ فرسِه وغُلامِه وسلاحٍ وقَفَه للجهاد في سبيل اللَّه! فلما بلغ ذلك عمرَ قال:

رحم اللَّه أبا سليمان كان على غير ما ظنناه به!

ويقول عمر: لو أدركت خالدا، ثم وليتُه، ثم قدمت على ربى، فقال لى: من استخلفت على أمة محمد؟ لقلت: سمعت عبدك وخليلك يقول: «**لخالد سيفٌ من سيوفِ اللَّه سَلّه اللَّهُ على المشركين!**».

أم أيمن - بركة الحبشية

لقد فتح التاريخُ لها إحدى صفحاته لما قامت به من حضانةِ الرسول ﷺ في صغره، ورعايةٍ له في كِبَره حتى تزوج «خديجةَ أمَّ المؤمنين» فأعتقها ووفّر لها حياة كريمة!

إنها مولاةُ رسولِ اللَّه ﷺ وحاضنتُه التى ورثها عن أبيه، فقامت بحضانته ورعايته خيرَ قيام، وكانت له أُمًّا بعدَ أُمِّه!

وشتان بين ما قامت به أمُّ أيمنَ وما تقوم به حاضناتُ اليوم ومُربياتُ الأطفال!

لقد كان للنبى ﷺ عندها منزلةٌ خاصةٌ!

وكان لها في نفس النبى ﷺ منزلةٌ خاصة!

لقد غرس اللَّهُ حُبَّه في قلبها، وكيفَ لا وقد قال له: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ [الضحى: 6]؟.

فهذه الأمةُ الحبشيةُ عاصرت مولِدَه، وابتهج قلبُها حين شهدته لأولِ مَرّة، فإذا هو قد شَغَفَها حُبّا، وإذا هو قُرَّةُ عين لها!

وإذا هو يُؤنسها بعد وَحْشَةٍ، ويُضيء حياتَها بعد ظُلْمة، وإذا هى تحضُنُ الطفلَ وتحنو عليه، ولا تُطيقُ له فِرَاقًا!

فسبحانَ اللَّهِ! إنها عنايةُ اللَّهِ!

وإذا العناية لاحظتْكَ عيونُها نَـمْ فـالمـخـاوِفُ كلُّهن أمـانُ

إن ربّنا سبحانَه هو الذي خلقه.. ولن يَنْسَاه!

لقد أصبحت أُمُّ أَيْمَنَ أُمَّه بعدَ أُمِّه التى لقيت ربّهَا بعد رحلتها إلى المدينة وهى عائدةٌ إلى مكةَ!

لقد ذهب أبوه عبدُ اللَّه!، ومن بعده ذهبت أُمُّه آمنة! ولم يعد هناك من يَرعاه غيرُ حاضنته «بَرَكة» أمُّ أيمن، وأمُّ أسامةَ بن زيد فيما بعد!

وعادت «أم أيمن» بالطفل اليتيم إلى جَدّه وأعمامِهِ يحوطُه قلبُها بما أودعه اللَّهُ فيه من عطفٍ وحنان!

وتفرغت له لتكون أمَّه بعدَ أُمِّه!

لقد أصبح شغلَها الشاغل!

ولا يَضيعُ جميلٌ أينما وُضعَ!

ولا يذهب العُرفُ بين اللَّه والناسِ؟

وكيف يضيع عند من قال ربه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4].

فكيف كانت مكافأة من أصبحت أمّا له بعد أُمِّه؟

لقد أعتقَها حين اقترنَ بالسيدة خديجة ووجد عندها ما كان يحتاج إليه من عطف وحنانٍ ورحمة!

لقد هيأ لها حياةً كريمة، فأتيح لها أن تتزوجَ من أهلِ يثربَ وقد كان مقيما بمكة، فعاشا سعيدين، ثم رحلَت معه إلى يثربَ.. ورزقهما اللَّهُ أيمنَ ولكن عِنْدَ صفو الليالى يحدث الكدرُ، فقد لقى الزوجُ ربَّه!

ووجدت «أم أيمن» نفسها وحيدةً، فتعودُ إلى ابنها الأول، ومعها أيمن ليقوم الرسولُ ﷺ على رعايتهما.

ويفكرُ الرسول في إسعادِها كما أسعدته فيقول:

«من سَرّه أن يتزوجَ امرأةً من أهلِ الجنةِ فلْيتزَوَّجْ أمَّ أيْمَنَ».

ويُلبى «زيد بن حارثة» مولى رسول اللَّه ﷺ هذه الدعوةَ فيتخذَها زوجة له وعاش الزوجان سعيدين بما أنعم اللَّه عليهما من نعمة القرب من الرسولِ ﷺ ورضائِه عنهما!

وأصبحت لا تطيقُ فراقَ الرسول ﷺ في سِلْم أو حَرْب فتلازمه في غزواتِه تشهدُ الحربَ مع المسلمين.. تطوف بالماء.. تسقى الجرحى ومن مسهم الجَهدُ!

ويَلْقَى ابنُهما «أيمن» ربَّه شهيدًا في «غزوة حُنين» فَتُوَدِّعُه على أملِ اللقاء مع النبيين والصِّدّيقين والشهداء والصالحينَ وحسن أولئك رفيقا!

ويشاءُ اللَّهُ أن يكون ابنها «أسامة بن زيد» مِلءَ القلب والعين!

وأن تجد فيه ما يعزيها عن فقد ابنها «أيمن!».

ويلقى أبوه «زيد بن حارِثَة» ربَّه شهيدًا في «غزوة مؤتة» ليُصبح ابنُه أسامَةُ الحِبُّ بنُ الِحبِّ على رأسِ الصحابة في انتظار النداء حين يدعو الداعى!

ويقود أسامة بعد موتِ الرّسُول ﷺ جيشا من ثلاثة آلافٍ فيهم كبارُ الصحابة لِلِقاءِ الرُّوم.

وتحقق بَعْثَةُ أسامة أهدافها فيعود وتسعد أم أَيمن بلقائه!

وذات يوم تبكِى «أمُّ أيمن».

وتَحْسِبُ مَن حولَها أنَّها تبكى لاستشهاد ابنها «أيمن» أو زوجها «زيد بن حارثة» في غزوة مؤتة.. أو لموت ابنها الأول «رسول اللَّه ﷺ» فتقول: لقد علمتُ أن الرسولَ ﷺ سَيَمُوتُ!

ولكننى أبكى على الوحى الذي انقطع عنا من السماء!

وعاشت لتشهدَ عهدَ عثمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وتتمنى اللحاق بزوجتيه: «رُقية» «وأمِّ كُلثوم»، ولقيت ربها وقد كانت شاهدة على العصر!

المقدادُ بنَ عمرو

سوف نحيا مع واحد من أربعة أمر اللَّهُ نبيَّه ﷺ بحبهم، وفي ذلك يقول النبى ﷺ:

«**إن اللَّهَ - عز وجَلّ - أمرنى بحبَ أربعةٍ، وأخبرنى أنه يحبهم:**

علىٌّ، والمِقداد، وأبو ذَرٍّ، وسَلمانُ» (أخرجه التِّرمذى وابن ماجة وسنده حسن).

وماذا نقول فيمن زوّجه النبىُّ ﷺ بنتَ عمه «ضُباعةَ بنتَ الزبير بن عبد المطلب»؟.

وماذا نقول في أول من قاتل على فرس في سبيل اللَّه؟

وماذا نقول فيمن وقف يوم بدر يتحدث باسم المهاجرين - بعد أن تحدث أبو بكر وعمر - مؤيدا الرسولَ ﷺ فيما يراه من مواجهةِ قريشٍ قائلا له:

«يا رسولَ اللَّه، امضِ لما أمركَ اللَّهُ فنحن معك!

واللَّهِ لا نقولُ لك كما قالت بنو إسرائيلَ لموسى- عليه السلام: اِذْهَبْ أنت وربُّك فقاتلا إنَّا هاهنا قاعدون!

ولكن نقول لك: اذهب أنت وربُّك فقاتلا إنَّا معكما مقاتلون!

فو الذي بعثك بالحق لو سرتَ بنا إلى (بَرْك الغماد)[1] لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه».

إنه صحابى له شأنُه، صاحبُ قولٍ سديدٍ وعملٍ مَجيد سجّلَه التاريخُ بأحرف من نورٍ في صفحات المجدِ والفَخارِ.

تُرى من هذا الرجلُ الذي يُحبّه اللَّهُ، وأمَر النبىَّ ﷺ أن يُحِبَّه؟!

من هذا الرجل الذي أكرمه النَّبِىُّ ﷺ وزوّجَه بنتَ عمه؟

---

(1) برك الغماد: مدينة بالحبشة وفي القاموس: موضع باليمن، أو وراء مكة بخمس ليال، أو أقصى معمور الأرضَ!

إنه صاحبُ الرسولِ ﷺ، وأحدُ السابقين الأولين! «المقدادُ بن عمرو».

ويقال له: المقداد بن الأسود، لأنه رُبى في حَجْر الأسود بنِ عبدِ يغوثَ فتبناه، فلما نزلت الآية الكريمة:

﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ ﴾ [الأحزاب: 5] قيل له: المقداد بن عمرو.

أسلم قديما، وهاجر الهجرتين، وشهد بدرا والمشاهدَ.

ويقول عبدُ اللَّهِ بن مَسعود: «أولُ من أظهَر إسلامَه سبعة»، فذكر فيهم المقدادَ.

وأولَ من قاتلَ على فرسٍ في سبيل اللَّه المقدادُ بن الأسود، وكان ذلك يوم بدر.

لقد وُلد المقدادُ بنُ عمرو في قبيلة «بَهراءَ» إحدى قبائل اليمن.. وكان أبوه عمرٌه أحدَ أعيان تلك القبيلة وشخصياتها البارزة!

ولقد شبّ على حبِّ الفُروسيةِ والقتالِ حتى إنه كان يبطشُ البطشةَ بخصومه فَتَنْخَلعُ لَها قلوبُ الآخرين!

وذات يوم سدد ضربةً لأحدِ خصومه فقتله فحاول أهلُ القتيل أن يفتكوا به ثأرًا لدم ابنهم فلم يجد بُدًّا من الخروج، وساقته قدماه إلى مكةَ فدخل في حِلف أحد زعمائها البارزين وحمايته وهو:

«الأسود بن عبد يغوث».

وكان المقدادُ صادقًا مخلصا فأحبه الأسودُ، وتبناه ونسبه إلى نفسه، فأصبح يُعرف منذ ذلك الحين بالمقداد بن الأسود.

وكأنما كان قدومه إلى مكة خُطوةً على طريق مستقبلٍ مشرقٍ بالإيمانِ هو به جديرٌ!

فمَا إن أشرقت في مكةَ شمسُ النبوة، وسطع نورُها حتى وجدناه يُبادرُ إلى حِمَى الدين، ويعلنُ إسلامَه بين يدى خاتم الأنبياء والمرسلين.

وأصبح المقدادُ خَلْقا جديدًا، وَنموذجًا فَريدا للتضحية والصبر والتَّحَمُّلِ فلقى في سبيل إيمانه باللَّهِ ورسوله عنَتًا شديدا وعذابا أليما، وتحمّل كلَّ ذلك راضيًا مَرْضيا، فكلُّ شيءٍ يهونُ إذا سَلمت العقيدةُ ونجا الإنسانُ بدينه!

وحين صدر الإذنُ بالهجرةِ للمسلمين المطارَدين إلى الحبشة حملَ المقداد متاعَه على ظهره، وإيمانَه في قلبه، وهاجر مع المهاجرين إلى الحبشةِ بلدِ النجاشى. ذلك الملكُ الذي لا يُظلَمُ عنده أحدٌ!

ومكث بالحبشة ما شاء اللَّهُ حتى جاءته الأخبارُ بأن المسلمين في مكةَ قد عَزُّوا بإسلام عمرَ والحمزة رضى اللَّه عنهما.

فعاد إلى مكةَ ليكونَ إلى جانبِ الرسول ﷺ والذين آمنوا به، لكنه وجد أن قريشًا ما تزال مُصِرّة على شِرْكِهَا، متماديةً في جهلها، مستمرةً في مقاومتها للإسلام والمسلمين، فظل صابرا متحملا حتى أذن اللَّهُ للمسلمين بالهجرةِ من مكةَ المكرمةِ إلى المدينةِ المنورةِ، وظلّ في مكةَ حتى أُتيحت له الفرصة ليهاجرَ إلى المدينة آمنا من بطشِ قريشٍ حتى يلحقَ برسولِ اللَّه ﷺ.

وفي المدينة كانت «غزوة بدر» أولى المعاركِ التى خاضها البطلُ المقدادُ بنُ عمرو فكان البطلَ الذي لا يُقهر، والفارسَ الذي لا يُغلب!

جال وصال، وجندلَ الأبطالَ فكانوا يفرون من بين يديه!

وانتصر المسلمون، وانهزم المشركون!

وعرف النبيُّ ﷺ شجاعةَ المِقدادِ وفروسيتَه كما عَرف إخلاصَه فقدّمه وَبَوَّأه المكانه التى تجدُرُ به!

لقد فرَّ الفُرَّار (يومَ أُحد) وثبت المقدادُ!

وانهزم المنهزمون (يوم حُنين) وظل المقدادُ كالطودِ الشامخ يحمى الرسول ﷺ ويدافع عنه:

ويذكر الإمام الذهبى عن المقدادِ أنه قال:

استعملنى رسول اللَّه ﷺ على عملٍ، فلما رجعت، قال:

«**كيف وجدتَ الإمارة؟**»

قلت: يارسول اللَّه! ما ظننت إلا أن الناسَ كلَّهم خَوَل لى (خدم وعبيد) واللَّه لا ألي على عملٍ ما دمتُ حيًّا[1]!

كان كلُّ هَمِّه أن ترتفعَ رايةُ الإسلامِ عاليةً، وأن يواجهَ أعداءَ اللَّهِ في كُلِّ ميدان! لا مطمعَ له في الإمارة والحُكم!

وظل على عهدهِ ووعدهِ حتى لحق النبيُّ ﷺ بربّه وتولى أبو بكر الصديقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وخاضَ معركةَ الإيمان في جزيرة العرب حتى يوقفَ المرتدين، ويقضىَ على الفتنةِ التى كادت تعصفُ بدولةِ الإسلامِ في مَهْدها !

وما كان للبطل أن يغيبَ عن الميدان على الرغمِ من تقدّم سِنِّه واقترابِه من العَقْد السادسِ من عمرِه!

فقد ظل الوفيَّ المخلصَ لدينهِ وأمانتِه، فحملَ سلاحَه حتى قيَّضَ[2] اللَّهُ للمسلمين النصرَ!

وراح يخوض معاركَ الفتح، وكلّ هَمّه أن يكونَ جُنْديًّا من جنود اللَّه!

إنه لم يكن يقاتلُ من أجل المركز أو الجاه، ولكن لإعلاء كلمة اللَّه! وهكذا يكونُ جهادُ المؤمن!

ولقد ظل ينتقلُ من نَصْر إلى نصر حتى تم فتحُ مصرَ، وسجّلَ على أرضها أروعَ صفحاتِ البطولةِ والنصر!

وظل على عهدِه ووعدهِ حتى أطلت الفتنةُ برأسها في زمن الخليفةِ الثالثِ عثمانَ بن عَفانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهنا نراه يؤثر[3] العُزلةَ ويبتعد عن فتنة تهددَت البلادَ

(1) هو في الحلية 1/ 174. وأخرجه الحاكم 3/ 349، 350 وصححه ووافقه الذهبى.

(2) قيَّض اللَّه للمسلمين النصر : هيأه لهم.

(3) يؤثر العزلة: يفضلها.

نيرانُها حتى توفاه اللَّه وقد بلغ من العمر سبعين عامًا. رضىَ اللَّهُ عن المقدادِ فارسِ بدر، وحبيبِ اللَّهِ ورسولِه!

وبعد؛ فهذا هو المقدادُ بن عمرو كان رائعًا وعظيما في حبه لدينه يدافع بالسلاح.. وبالكلمة الحاسمة الموفقة في الوقت المناسب، وبالمهمة يقومُ بها على فرسِه تنفيذا لأمرِ رسول اللَّه ﷺ.

وكان حبُّه لدينهِ عظيمًا أيضا عندما يندفع لإصلاح خطأ وقع فيه أحدُ المسلمين.

كان يومًا في إحدى الغزوات، وشاهد رجلا يبكى، وعندما سأله عن بكائه أجابه الرجل قائلا:

لقد ظلمنى أميرُ السرية!

وعندما تأكد له صدقُ الرّجُل أخذه، وذهبَ به إلى الأمير يقول له: لقد ظلمتَ الرجلَ فمَكّنه من القصاص منك!

وحين أبدى الأميرُ استعدادَه لأخذِ القِصاص منه تنازل المظلوم عن حقه مُسَامحًا وهنا قال المقداد: واللَّه! لأموتَنّ والإسلام عزيز!!

وهكذا يكون المسلم!

وأنْعِمْ بالمقدادِ قدوة!!

الرُّميصاء أم سُليم

وصفها أبو نُعَيْم فقال:

هى المستسلمة لحكم المحبوب، والطاعنة بالخناجر في الوقائع والحروب!

وليس أدلُّ على منزلتها مما رواه جابر قال:

قال رسول اللَّه ﷺ:

«رأيتُنى دخلتُ الجنة، فإذا أنا بِرُمَيْصَاءَ امرأةِ أبى طلحة»[1].

وهل هناك أدلُّ على رضاها بالقضاءِ والقدرِ، وتسليمها لحكم المحبوب مما رواه أنسُ بنُ مالك قال:

مَرِض ابن لأبى طلحةَ مِن أمِّ سُلَيم، قال:

فمات الصبيُّ في المَخْدَع فسَجّتْه[2]، ثم قامت فهيأت لأبى طلحة إفطارَه، كما كانت تهيئ له كل ليلة!

فدخل أبو طلحة، وقال لها: كيف الصّبيُّ؟

قالت: بأحسنِ حال!

فحَمِد اللَّهَ!

ثم قامت فقرّبت إلى أبى طلحَة إفطارَهُ!

ثم قامت إلى ما تقوم إليه النساء، فأصاب أبو طلحة من أهله!

فلما كان السَّحَر، قالت:

يا أبا طلحَة؛ ألم ترَ آلَ فلان؟!

استعارُوا عاريةً، فتمتّعوا بها، فلما طُلبت منهم شقَّ عليهم!

قال: ما انصفوا!

قالت: فإن ابنَك كان عاريةً من اللَّه - عزَّ وجَلّ- وإن اللَّه تعالى قد قبضه!

فحمِد اللَّهَ، واسترجع!

---

(1) أبو نُعيم، في الحلية.

(2) سجته : غطته، والمخدع: السرير.

ثم غدا على رسولِ اللَّهِ ﷺ، فقال له رسول اللَّه ﷺ: «**يا أبا طلحة بارك اللَّه لكما في ليلتكما**»[1].

فحَمَلَت بعبد اللَّه بن أبى طلحة.

وليس ذلك بعجيب من «أم سُلَيْم» فقد وهبت نفسَها للإسلام!

لقد أسلمت قبلَ أبى طلحة، فخطبها، فقالت:

إنى أسلمتُ!

فإن أسلمتَ نكحتُك[2]!

فأسلم، فكان صداقُ[3] ما بينهما الإسلام!

لقد قالت له حين خطبها:

أَمَا إنى فيك لَرَاغِبَة، وما مثلُك يُرَدُّ!

ولكنك رجلٌ كافر، وأنا امرأةٌ مسلمة!

فإن تُسْلِم فذلك مهرى؛ لا أسألُك غيرَه!

فأسلم أبو طلحة فتَزَوَّجَها.

قال ثابت: فما بلغنا أن مَهْرًا كان أعظمَ منه!

ومنذ ذلك الحين وأمُّ سُليم لا تفارق أبا طلحة في سِلْم أو حَرْب!

ففى غزوة حُنَيْن رآها أبو طلحة تحملُ خِنجرا فقال لهاً أبو طلحة:

ما هذا يا أُمَّ سليم؟

قالت: اتخذتُه إن دنا منى بعضُ المشركين بعَجْتُه به!

فقال أبو طلحة: يا رسولَ اللَّه، أما تسمعُ أمَّ سُلَيْم تقول كذا وكذا؟!

قال ﷺ: «**يا أمَّ سليم؛ إن اللَّه - عز وجل - قد كفى وأحسن**»[4].

---

(1) أبو نعيم في الحلية.

(2) تزوجتك.

(3) مهر.

(4) أبو نعيم في الحلية.

ولأم سليم ماض مجيد، ومكانة عظيمة في الإسلام فقد قُتِلَ أخوها مع النبى ﷺ فصبرت ورضيت، فعن أنس: أن النبى ﷺ لم يكن يدخل بيْتًا بالمدينة غيرَ بيتِ أُمِّ سُلَيْم إلاّ علَى أزواجه!

فقيل له في ذلك: فقال: «**إنى أَرْحَمُها: قُتِل أَخُوهَا مَعِى**» (رواه مسلم).

ويشهد التاريخ بموقفها العظيم يوم أُحد، ويدل على ذلك ما رواه الشيخان عن أَنس بن مالك قال:

لما كان يومُ أُحُد رأيت عائشةَ وأمَّ سُلَيْم وإنهما مُشَمِّرَتانِ أرى خدم سوقهما (خلاخيل السيقان) ينقلان القرب على مُتونهما (ظهورهما) ثم تُفْرِغَانِها في أفواه القوم.

إنها امرأة مباركة، فعن أنس قال: أتانا النبى ﷺ فقَال.. (أي: نام وقت القَيْلُوله: عندنا) فعَرِقَ، وجاءت أم سليم بقارورة نَسْلِتُ العرقَ فيها، فاستيقظ النبى ﷺ فقال:

«**يا أم سليم، ما الذي تصنعين؟**».

قالت: هذا عرقك نجعله في طيبنا، وهو أطيب الطِّيب[1]!!

هكذا كان للرسول ﷺ عند النساء المسلمات منزلة عظيمة سواء منهن المهاجرات والأنصاريات!

وليس أدل على ذلك من أن الرسول ﷺ مَرَّ بعد غزوة أُحد بامرأةٍ من الأنصارِ قد أُصيبَ أبوها وزوجُها فلما نُعيَا لها قالت: «كان مُصِيبَةٍ بعدك: جَلَلٌ»[2].

ولا تعجب! إنه الإيمان!

وهكذا كان للمرأة دورٌ إيجابى في السلم والحرب وبمثل هؤلاء النسوة ازدهرت الدعوة، ووجدت أبناء مخلصين رضعوا الإيمان، فكان لهم شأنهم في كل مكان!

فهل آن لنا أن نتخذ من هذه النماذج الطيبة قدوة لنا؟!

---

(1) أبو نعيم في الحيلة.

(2) جلل: هينة. وكلمة جلل من كلمات الأضداد التى تفيد المعنى وضده حسب سياق الكلام. فقد تكون بمعنى عظيم وعكسه.

طلحة بنَ عبيد الله
الشيهدُ الحَىّ التَّيْمى

مِن تَيْم قبيلةِ أبى بكرٍ الصِّديقِ، عرفَ التِّجارة شابًّا ففاق الشيوخَ في خبرتِهم لما كان يتمتع به من ذكاء ومهارة في البيع والشراء!

ففى كل رحلة من رَحَلاتِ الشِّتاءِ والصّيفِ إلى اليمن والشَّام كنْتَ تراهُ يَعُودُ مُحَمّلًا مِن تجارتِه بالخَيْر الوَفير، والكَسْبِ العميمِ!

وذات يوم كان في «سُوقِ بُصْرى» بالشّام إذا راهب ينادى في الناس.. ولفت نظر طلحة، واسترعى سمعَه ما يقول:

إنه يسألُ عن أهلِ الحَرَم؟!

ويقُصُّ علينا «طلحَةُ» ما حدث فيقول:

كنت قريبًا منه، فأسرعتُ إليه، وقلتُ له:

أنا من أهل الحَرم!

وهنا قال لى:

هل ظهر فيكم أَحْمَدُ؟

فقلت: ومَن أَحْمَدُ؟!

قال: أحمدُ بنُ عبدِ اللَّهِ بنُ عبد المطلب.

ثم قال:

هذا شهرُه الذي يظهرُ فيه.. وهو آخرُ الأنبياء.. فإياك أن يسبِقَك أحدٌ إليه!

ويقول طلحة:

فكان لكلماته وقعٌ في نفسى، وعُدتُ سريعًا إلى مكةَ لكىْ أظفرَ بما لم يَظْفَرْ به أحدٌ قبلى!

وفي مكةَ يلتقى بصديقهِ الزُّبَيْرِ بنِ العَوّام، ويسألُه عما حدث فيقول له الزبير:

محمّد الأمينُ تَنبّأ!

- وهل تبعه أحدٌ مِنْ قَوْمِه؟

- نعم.. تبعه أبو بكر بنُ قُحافَةَ..

ونظر طلحة فإذا هو (بعثمانَ بن عفانَ وعبدِ الرحمن بن عَوْف، وسعدِ بن أبي وقّاص، وعامر بنِ الجراح، وعُبيدةَ بنِ الحارِث، وعثمانَ بن مظعون) يلتفون حَوْلَ الزُّبَيْرِ..

وإذا هو يسألُهم عن موقعِ دعوِته من نفوسِهم، وما موقفهم منها؟

وإذا هم جميعًا يُعْلمونَه أنها وقعت من نفوسِهم أحسنَ موقع!

وإذا هو يقول:

واللَّه لا يسبقُنى إليه أحدٌ بعد الآن، ولست بذاهب إلى بيتى إلا مؤمنا باللَّه وبرسوله!

وإذا قدماه تقودانه إلى بيت أبى بكر ذلك التاجر الذي يعرفه الجميع بُحسْنِ خُلُقِه واستقامتِه!.. فيقول:

فذهبتُ إليه وسألتُه عن أخبارِه، فجعلَ يَقُصُّ عليّ خبَره ويُرَغِّبُنى في الإيمانِ باللَّه ورسولِه، والدخول في دينِه.. وقال: هَيَّا بِنا إليه..

فمَضَيْتُ معَه.. فعرض عليّ الإسلامَ.. وقرأ على شيئا من القرآن، وبشَّرَنى بخيرَيِ الدنيا والآخرة!

فشرحَ اللَّهُ صدرى إلى الإسلام، وقصَصْت عليه قصةَ «الراهب».. ثم أعَلنْتُ على يديه إسلامى ونطقتُ بالشهادتين!

أشهدُ أن لا إلهَ إلا اللَّهُ وأنّ محمدًا رسولُ اللَّهِ.. فكنتُ من السابقين الأَوّلين!

وفرِح الرسولُ ﷺ بإسلامِه لما تَوَسّمه فيه من صدقٍ وصفاءٍ وإخلاصٍ!

ولكنّ أُمَّه العجوزَ حَزِنَتْ أشدَّ الحُزْنِ لتَرْكِه دينَ آبائه فراحت تُحَرِّض عليه قومَه ليَصْرِفُوه عن الدينِ الجديدِ، ولكنّه كان قَوِيّ الإيمانِ!

فجرَّبُوا معَه اللينَ أحيانًا، والشدةَ أحيانا، فما لانَ ولا استكانَ، وظل ثابتًا كالطودِ الشامخِ!

أوْثَقُوهُ بالحِبال، وأوثقوا معه أبا بكر الصديق، وقرنوهما بحبل واحد، وأسلموهما إلى سفهاءِ مكةَ ليُذيقُوهما أشدَّ العذاب حتى يعودا إلى أصنامهِمَا!

وكم كانت دهشةُ كُفارِ قريشٍ حين رأوْا الحبلَ المشدودَ بقوة يَسْقُط وحدَه!

وإذا «القرينان»: أبو بكر وطلحة قائمان يصليان ويسجدان للرحمن في خشوع وخضوع وإيمان!

وتحَمَّلَ طلحةُ ما كان منهم من تَضييق على المسلمين وحصارِهم في شِعب[1] أبى طالب ثلاثَ سنوات لا يبايعونهم ولا يُزَوِّجونَهُم، وإذا هو يشارِكُهم، ويتبرعُ لهم بنصف ما يملكُ من التّجارة!

ومرت ثلاثُ سنوات عصيبة، ولكنه خرج منها أعظم قوة، وأثبت بُنيانًا، وأصدقَ عَزْمًا!

فلما أذن الرسولُ ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى المدينة المنورة كان طلحة في مقدمةِ من هاجَر تاركا أموالَه ومتاعَه لينجوَ بدينه فهو أغلى من الدنيا كُلِّها!

وما قيمة الدنيا كلها إذا خسر الإنسان دينَه؟!

وفي المدينة المنورة لمح الرسولُ ﷺ مَخَايِلَ[2] الإخلاص والصدق واليقين في طلحة فاختاره ليكون «**رجل المهمات الصعبة**»..

(1) الشِّعب: بكسر الشين – انفراج بين جبلين.

(2) دلائله ومظنته.

فكان أولَ ما طلَب إليه أن يقومَ هو و «سعيد بن زيد» بمتابعة تحركات قافلة المشركين قبيل «غزوة بدر»، فقاما بالمهمة خير قيام وقدما بيانات دقيقة تمثل الواقع في صدق وأمانة!

وقامت «غزوة بدر»، وانتصر المسلمون فيها انتصارا عظيما وقسم الرسولُ ﷺ الغنائمَ على من حضرها واشترك فيها، وعاد طلحة وسعيد- والرسول ﷺ وأصحابه في عودتهم من أرض المعركة - فلم يجدا غيرَ نصرِ اللَّهِ، وغنائم الحربِ، واعتبرهما الرسول ﷺ مِثْلَ المجاهدين سواءً بسواء، وعدّهما الرسولُ ﷺ ممن شهد بدرًا.

وشهد طلحة الغزوات كلَّها مع رسولِ اللَّه ﷺ لم يفارقه، ففى غزوة أُحُد تجلى دورُه العظيم في الدفاع عن رسول ﷺ وافتدائه بنفسه!

فحين خالف الرماةُ أمرَ الرسول تحول موقفُ المسلمين من نصر إلى هزيمةٍ وأحاط بهم المشركون، وتفرقت جموعُ المسلمين، وإذا الكفار يحصدونَ المسلمين بسيوفهم، ثم يُقبلون على الرسول ﷺ يريدون قتلَه ويثأرون لقتلاهم في بدر.. وهنا أسرع طلحةُ إلى الرسول ﷺ، وراح ينادى أصحابَه للبيعة على الموت دفاعًا عن رسولِ اللَّه، والتفَّت حول رسول اللَّه ﷺ فئةٌ أحاطت به إحاطةَ السِّوارِ بالمِعصم[1]!

وأخذوا يتلقَّوْن عنه السيوفَ والرماحَ بصدورهم وظهورهم فبدَوْا من حوله كالقنافذ تستقرُّ في أجسادهم الرماح والسهام والنبال

وتحول طلحةُ إلى الهجومِ بسلاحِه حتى أصابَه سهْم في يده فشَلّها، وآخرُ في رأسه فنزعَه بيده!

وظن المشركون أن الرسولَ ﷺ قد قُتل.. فتراجعوا!

(1) المِعصم: - بكسر الميم - موضع السوار من اليد.

لقد كان طلحةُ أحدَ أربعة وصفتهم كتب السيرة بأنهم أبلَوْا بلاءً حسنًا في غزوة أُحُد:

منهم: سيف اللَّه الغالب عليّ بن أبى طالب، وحمزةُ بنُ عبد المطلب سيدُ الشهداء، وأبو دُجَانَةُ صاحبُ عِصابةِ الموت، وطلحةُ بن عبيد اللَّه الشهيد الحى!

لقد قاتل طلحةُ في أولِ المعركةِ ما قاتل!

وحينما أقبلت ساعةُ الهولِ، وتحولَ الانتصارُ إلى انكسار، ثبت طلحةُ إلى جوارِ الرسولِ ﷺ مع القِلَّةِ التى ثبتت .. لم يَفِرَّ.. ولم يتراجَعْ.. بل ظل يقاومُ ويُدافعُ.. ويحرص على حراسةِ الرسولِ، وصدِّ كُلِّ عدوان عنه حتى اطمأن إلى نجاتِه!

وتذكر كتبُ السيرةِ أنه حينما سقطَ النبىّ ﷺ في إحدى الحفر، والسيوفُ والرماحُ، والنبالُ، والسهامُ، تتجاوبُ، وتتراشقُ عن يمينٍ وشمالٍ سارعَ طلحةُ، فاحتضن رسولَ اللَّهِ ﷺ وظل محتضنًا له حتى خرج الرسولُ ﷺ من الحُفْرَةِ!

وعاد الرسولُ ﷺ إلى وقفته الثابتةِ المناضلةِ!

وتعددت الإصاباتُ في جسم النَّبِىِّ ﷺ برغمِ الجُهد الذي بذَله طلحةُ وكان على الرسولِ ﷺ دِرعان، وبه تعب، فأراد أن يعتلىَ صخرةً ليُشرفَ منها على سَيْرِ المعركة، ولكنه لم يَستطعْ أن يعلوها فانحنى له طلحَةُ، وصَعِدَ الرسولُ ﷺ فوقَ ظهرِه، ثم ارتفع به طلحةُ شيئا فشيئا حتى بلغَ الصخرة، واستوى عليها!

وحينما رأى طلحةُ ضربةً أثيمةً مُوجَّهة إلى الرسول ﷺ سارع فوقَى الرسولَ منها بيده فأصابها الشَّللُ وقُطعت إحدى أصابعها وهنا قال سيد الخلق الناطقُ بالصدقِ: «**أوجَبَ طلحة**».

أي: فعل ما يوجب له الجنة عند ربه!

وكيف لا وقد تكاثرت الجِراح في جسم طلحة يومئذ حتى أصابه بضع وسبعون ما بين ضربةٍ بسيف، أو طعنةٍ برمح، أو رميةٍ بسهم!

وحينما دنا أبو بكر وأبو عبيدةَ من الرسول ﷺ ليعالجا ما أصاب وجهَه الكريم من جِراحٍ أشار لهما إلى طلحة وقال لهما:

«**عليكما بصاحبكما.. دونكما**[1] **أخاكما**».

وفي أعقاب المعركة أصيب طلحة بإغماء، فصب أبو بكر ماء على وجهه فلما أفاق واستعاد وعيَه قال:

ما فعل رسولُ اللَّه؟

فأجابه أبو بكر: إنه بخير!

فتهلّلَ وجهُه وفَرِحَ وهو يقول: **الحمدُ للَّه كُلُّ مُصيبةٍ بعده جلَلٌ (أي: قليلة)**.

وهكذا يكون صدقُ الحُبِّ والإخلاص للَّهِ ورسولِه، ولهذا كان أبو بكر إذا ذُكرَ يومُ أُحُد قال:

«**هذا يومٌ كان كلُّه لطلحةَ!**».

ولا عجب فطلحةُ أحد الثمانية السابقين إلى الإسلام في أوله. وأحد العَشرة المبشَّرين بالجنةِ..

وأحد الستةِ أصحابِ الشورى الذين مات النبيُّ ﷺ وهو عنهم راضٍ.

وحسبه ما نزل فيه من قرآن فقد جاء في أسباب النزول للنيسابوري ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾[الأحزاب: 23] نزلت في طلحة بن عبد اللَّه ثبت مع رسول اللَّه ﷺ يوم أحد حيث أصيبت يَدُه، فقال رسول اللَّه ﷺ «**اللهم أوْجِب لطلحةَ الجنة**».

وعن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالوا أخبرنا عن طلحةَ قال: ذاك امرؤٌ نزلت فيه آية من كتاب اللَّه تعالى ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾[الأحزاب: 23] طلحة ممن قضى نحبه لا حساب عليه فيما يُسْتَقْبَل.

(1) دونكما أخاكما – اسم فعل بمعنى خذاه والزماه.

ولقد بشره النبى ﷺ بالجنة بقوله: «**طلحة والزبير جاراى في الجنة**»[1].

وياله من شرف ما بعده شرف!

وعندما تاب اللَّه على «**كعب بن مالك**» أحد الثلاثة الذين خُلِّفوا في غزوة تبوك سارع طلحةُ إلى تهنئته بفضل اللَّه عليه، مما كان له أثرُه في نفس كعب حتى قال وهو يروى قصته:

«**واللَّه ما قام إلىّ رجل من المهاجرين غيرهُ**».

وكان كعبٌ لا ينسى لطلحةَ هذا الصنيع!

وكان طلحة يبذل من ذات نفسه لا ينتظر سؤلا ولا يدخرُ ما تُدره تجارتُه عليه من أموالٍ بل يجعلُها في سبيل اللَّه!

ولهذا استحق أن يُسميَه الرسول ﷺ:

«طلحة الخير» و «طلحة الجود» و «طلحةَ الفياض» تقديرا لما قدم في سبيل اللَّه.

وكان كذلك يُسَمّى «طلحةَ الطَّلحَاتِ».

إن سيرتَه مليئةٌ بالقدوة ومواطنِ الأُسوة فما أَجْدَرَنا بأن نستلهمَ من ماضينا لحاضرنا، وأن نمضىَ على طريقِ سَلَفِنَا فتؤمنَ كما آمنوا، ونجاهدَ بالنفسِ والمالِ كما جاهدوا لنفوزَ برضوان الله كما فازوا!!

وأراك تقول مع الشاعر:

يجـود بالنَّفْسِ إن ضَـنَّ البخيلُ بها
والجــودُ بالنفسِ أقـصى غايةِ الجـودِ

(1) أخرجه الترمذى في المناقب (3741) والحاكم 3/ 364.

أسامة بن زيد

نموذجٌ من النماذج الفاضلة لأبناء الصحابة الأخيار فأبوه «زيدُ بنُ حارثةَ» حِبُّ رسولِ اللَّه (حبيبُه).

وأمهُ بَركَةُ «أمُّ أيمن» حاضنةُ رسولِ اللَّه ﷺ.

فهو الحِبُّ[1] ابنُ الحِبّ! وكان الرسول ﷺ يقول لأمه: «**أنت أمى بعد أمى**» قُتل أبوه في «**غزوة مؤتة**»، وكان الرسولُ ﷺ حريصًا على أن يتولى أسامةُ جيشًا يتولّى الثأرَ لأبيه، ويؤدبُ المعتدين على حدود الدولة الناشئة قبل أن يَلْقَى رَبَّه!

وفي أخريات صَفر من السنة الحادية عشرة للهجرة - وذلك قبل وفاةِ الرسولِ بأسبوعين تقريبا - صدر الأمرُ الكريمُ بالتهيؤ لغزو الروم على أن يكونَ «أسامةُ بنُ زيد» الحِبُّ بنُ الحِبِّ قائدًا لهذا الجيش وحاملًا للوائه ولَمّا يبلغ من العمر عشرين سنة!

وقال له: «سِرْ إلى مَوْضعِ قَتْلِ أبيك، فأوطِئْهم الخيل، فقد وليتُك هذا الجيش! فاغزُ صباحا أَهل أُبْنَى[2].. وأسْرِع السيرَ لتسبِقَ الأخبارَ.. فإن أظفرَكَ اللَّهُ عليهم فأقِلَّ اللَّبْثَ فيهم.. وخُذْ مَعَكَ الأَدِلَّاء[3].

وقَدّمِ الطلائعَ والعيونَ[4] معك».

كان هذا التوجيهُ الكريم «يومَ الإثنين»، فلما كان «يومُ الأربعاء» بدأ بالرسول ﷺ مرضُه فحُمّ[5] وصُدِعَ!

---

(1) الحِب - بكسر الحاء - الحبيب.

(2) في قرية مؤتة على مشارف الشام. وأُبنى: موضع بفلسطين بين عسقلان والرملة. وقيل: قرية بمؤتة.

(3) الأدلاء: جمع دليل من يعرف الطرق والمسالك.

(4) العيون: الجواسيس.

(5) أصابته الحمى، وحل به صدع!.

ولكنه في «يوم الخميس» تحامل على نفسه فخرج وسلم اللواء (العلم) بيده إلى أسامة، وقال له: «**اغزُ باسمِ اللَّه، وفي سبيل اللَّه، وقاتلْ مَن كَفَر باللَّه**»

فخرج أسامة بالجيش وفيهم أبو بكر وعمر، وأبو عبيدة بن الجراح، وسعد ابن أبى وقاص وأمثالُهم من خيار الصحابة وكبارِهم، وعَسْكرَ خارج المدينة!

وكان كُلُّ شيء حولَ القائِد أسامةَ يقولُ له، ويهتف به: أنت يا أسامةُ شابٌّ، والشبابُ المسلم أهلٌ لأن يُكلَّف معالىَ الأمورِ، وعظيمَ التضحيات لاستغلال طاقاتهِ الهائلةِ في بناء مجد الإسلامِ، وتحصينه من الفَراغ القاتِل، وما يتبعه من وساوس الشيطان!

أنت يا أسامةُ سوف تثأرُ لوالدك الشهيدِ الحبيبِ زيدٍ!

وتثأر لجعفرَ بن أبى طالب البطلِ الشهيدِ الذي يطير في الجنة بجناحين من النُّور!

جعفر.. راعى المسلمينَ في الحبشةِ، والمدافعُ عنهم ضدّ مؤامرات قريش مع حداثة سِنّه، ذلك الذي كان أشبَه الخَلْق برسولِ اللَّهِ ﷺ خَلْقًا وخُلُقا!

وأنت يا أسامةُ سوف تثأرُ للبطل الشيهدِ الشاعرِ «عبدِ اللَّه بن رَواحة» الذي دفع ثلاثة آلاف من المسلمين لمقابلةِ مائتين وعشرين ألفا من جنود الروم وحلفائهم قائلا للمسلمين في عِزَّةٍ وشمُوخ حين علموا بكثرة عدوهم: نحن لا نقاتلُ النَّاس بكثرة العَدَدِ أو العُدّة.. وإنما نقاتلهم بهذا الدين الذي أكرمنا اللَّه به.. وإن الشهادة في سبيل اللَّه هى التى خَرَجْتُم لها طالبين».

وأخذ أسامةُ يستعرضُ صورَ هؤلاء الأبطال وهم يحملون الرّايةَ وينالون الشهادة في سبيل نُصرةِ دين اللَّه! واحدا بعد الآخر: وعسْكَرَ جيشُ أسامةَ في الجُرف.. قرب المدينة.. في انتظار إشارة الانطلاق!

وتحت إمرته: أبو بكر.. وعمرُ.. وأبو عبيدةَ وأمثالُهم.

فتكلم قوم وقالوا: يَسْتَعْمِلُ هذا الغلامَ على هؤلاء؟!

وبلغ النبيَّ ﷺ قولُهم هذا فقال: «**إن يطعنوا في إمارته فقد طعنوا في إمارة أبيه.**

وايمُ اللَّه إن كان لخليقا[1] للإمارة.

وإن كان من أحبِّ الناس إليّ، وإن ابنَه هذا لمن أحبِّ الناسِ إليَّ بعدَه!»[2].

وبينما كان الجيش يتأهب للمسير إذ مَرِضَ الرسولُ ﷺ مرَضَ الموت فوقف الجيشُ انتظَارًا لشفاءِ الرسولِ ﷺ ورغبةً في تلقى تعاليمه وهَدْيِه!

ولكن الرسولَ ﷺ كان قد بلّغ الرسالةَ وأدى الأمانةَ، فصَعِدتْ روحُه إلى بارئها بعد أن هيأ الجزيرةَ كُلّها لحمل لواءِ الإسلام ونشرِ حضارته وتعاليمه في كُلِّ الدنيا.

وليس بعثُ جيشِ أسامَة إلا رسالةً مُوَجَّهة إلى الروم على الحدود تقول لهم: نحن هنا..

هنا دولة إسلامية كتب اللَّهُ لها النصرَ والغلبةَ والفوزَ.

ولقد كانت «بَعْثَةُ أسامةَ» العنوانَ الأولَ لسياسة عامّة في الدولةِ الإسلاميةِ هى في ذلك الوقت خيرُ السياسات.

كان قِوامُها كلُّه طاعةَ ما أمرَ به رسولُ اللَّهِ ﷺ، وفي ذلك الخير كُلُّ الخير!

وها هو ذا أبو بكر يضربُ المثلَ في الطاعةِ فُيشَيِّع البعثة وهو ماشٍ على قدميه، وعبدُ الرحمن بن عوف يقود دابته بجوارِه.

فقال أسامةُ: يا خليفةَ رسولِ اللَّه!

واللَّهِ لتركبَنّ أو لأنزلنَّ!

فقال: واللَّهِ لا تنزلُ.. وواللَّهِ لا أركبُ!

وما عليّ أن أُغَبِّرَ قدمَيّ في سبيل اللَّه ساعة!

---

(1) لخليقا: لجديرا بأن يكون أمير سرية أو جيش. وايم: قسم مثل؛ يمين اللَّه. ويستعمل الغلام: يوليه.

(2) متفق عليه.

ثم استأذن أسامةَ قائلا:

إن أردتَ أن تُعينَنى بعُمرَ فافعل!

ثم قال لأسامة: اصنعْ ما أمرَك رسولُ اللَّه ﷺ ولا تُقَصِّرَن في شيءٍ مما أمرَ رسولُ اللَّه ﷺ.

وسار الجيشُ على بركة اللَّهِ تنفيذًا لأمر رسولِ اللَّه ﷺ فحقق الهدف، وأمّن الطريق، وأشاع الهيبة في النفوس!

وتستطيع أن تقول: إن «بعثة أسامة» كانت بَعثة تأديبية لردع القبائل التى تعبَثُ في الطريق بين الحِجازِ والشام؛ تأمينا لتلك الطريق..

وتوطيدًا لهيبة الإسلامِ في نفوسِ تلك القبائل على الحدود!

وحققت البَعثَةُ أهدافها وعادت بعد أربعين يوما في قول بعض المؤرخين، وسبعين في قول آخرين!

وحَمِدَ الناسُ لأبى بكر حُسْنَ تدبيره في إرسالِ جيش أسامة إلى غرضه في الوقت الذي ارتدّ فيه العرب حولَ المدينة، وكانت الدولةُ في حاجةٍ إلى جيشِ أسامَة لتأديب المرتدين!

لكن أبا بكر نفّذ ما أرادَه الرسولُ ﷺ فقد كان لجيش أُسامةَ أثرهُ في نفوس الأعراب الذين كانوا يَنْوُون مُهَاجَمةَ المدينة!

وقالوا: لو أن بالقومِ ضعفا وقِلّةً لما أخرجوا هذا الجيش الكبير في تلك الظروف.

ولقد ثبت آخرون على الإسلام!

وسارع بعض مانعى الزكاة إلى إرسالها إلى المدينة لما رَأَوْا قوةَ هذا الجيش الزاحف إلى الحدود!

وعاد أسامة بمغانمَ كثيرة بعد ان أغار على قاتلى أبيه وهزمهم شر هزيمة هكذا كان للشباب دورهم القيادى إلى جانب الشيوخ!

ونعود فنسأل: بم استحق أسامةُ بنُ زيد هذه المنزلة؟

تقول كتب السيرة: لما بلغ أسامةُ بنُ زَيْد أَشُدَّهُ بدت عليه مظاهرُ النجابة والذكاءِ والعقلِ والاتزانِ مما جعله جديرا بحب رسول اللَّه ﷺ والذين آمنوا معه.

لقد كان ذكيا حادّ الذكاء، عفيفا، نقيا، وَرِعًا، شجاعا مِقدامًا..

ففى يوم أحد أقبل أسامةُ بنُ زيد مع نفرٍ من أصحابه على رسول اللَّه ﷺ يُريدونَ الجهادَ في سبيل اللَّه!

فأخذ الرسول ﷺ بعضَهم وردّ آخرين، وكان أسامةُ ممن ردّهم الرسول ﷺ لصغر سنهم فعاد وعيناه تَفيضان بالدمع حزَنا حيث حُرِمَ من الجهاد تحتَ رايةِ رسولِ اللَّه ﷺ.

وظل ينتظرُ حتى «يوم الخندق» وكان يومًا عصيبا فذهب إلى رسولِ اللَّه ﷺ ومعه فِتيةٌ من أمثالِه من أبناءِ الصحابة.. يريدون الدفاع عن مدينتهم التى حاصرتها جُيوشُ الأعداء.

وأخذ أسامةُ يَشُدُّ قامتَه إلى أعلى حتى يكون من المقبولين!

فرقّ له النبيُّ ﷺ وسَمح له بأن يكون جُنْديًّا يحملُ السلاح جهادًا في سبيلِ اللَّه وهو ابن خمسَ عَشْرة سنة!

وفي «يوم حنين» حين انهزم المسلمون كان أسامةُ بن زيد مع الثابتين حولَ الرسول.. مع عمه العباس وابن عمه أبو سفيان بن الحارث وستةِ نفرٍ آخرين.

واستطاعت هذه الفئة المؤمنة الباسلة أن تُحَوِّلَ الهزيمة إلى نَصْرٍ، وأن تحميَ المسلمين من أن يفتك بهم المشركون!

وفي «مؤتة» كان لأسامة وجودُه وحضُوره مع أبيه زيد بن حارثة وتحت لوائه، وسنه لم تتجاوز الثامنَة عَشْرَة!

لقد رأى بعينيه مصرعَ أبيه فما ضعف ولا استكان، ولكنه أخذ يقاتلُ تحت لواء القائد الثاني «جعفر بن أبى طالب» حتى شاهد مصرعه على مقربة منه!

وظل ثابتَ القلبِ يدافع تحت لواء «عبد اللَّه بن رواحة» حتى لحق بصاحبيه.

وظل أسامة على عهده ووعده يقاتل تحت لواء «خالد بن الوليد» حتى تم استنقاذُ الجيش الصغيرِ من أن يفتك به جيش الروم!

وعاد اسامة إلى المدينة مُحْتَسبًا أبَاه في ذمةِ اللَّهِ تاركا جَسدَهُ الطاهر على حدود الشام!

عاد على جواد أبيه الذي استُشْهِدَ عليه!

عاد ليجدَ مُهِمّةً صَعْبةً في انتظاره!

عاد ليتولى قيادةَ بَعثة قوامها ثلاثة آلاف من خيار الصحابة ليقول للروم وأتباعهم على الحدود: نحن هنا! وليقوم بمهمته خير قيام!

وقد ظل أسامة موضع إجلال المسلمين وحبهم!

وكان عمر بن الخطاب إذا لقى أسامة بن زيد قال: مرحبًا بأميرى، فإذا رأى أحدا يعجب منه قال:

أمَّره عليّ رسول اللَّه ﷺ.

لقد كان للشباب وجودهم وحضورهم في عهد رسول اللَّه ﷺ حيث فتح الباب واسعا أمامه لتولى القيادة ماداموا أكفاء!!

سعد بن مُعاذ

المجاهد الشهيد الذي اهتز لموته عرش الرحمن

•• من هنا كانت البداية ••

سوف نبدأ مع صاحبنا «سعد بن معاذ» من نقطة البداية في المكان والزمان.

أما المكانُ فهو «يثربُ» قبل أن تُسَمَّى «المدينةَ المنورةَ» أو «مدينة الرسول ﷺ» أو «طِيبة».

وفى «عشيرة بنى عبد الأشهل الكبرى»؛ إحدى عشائر «الأَوْس» القوية نشأ صاحُبنا:

••«سعدُ بنَ مَعاذِ بن النُّعمان»••

ورشحه عقلُه ورأيُه وحَزْمُه لأمرٍ عظيم.. ليكونَ سيدَ قومِه بلا مُنازِع.. ورأسَ عشيرتِه.. وموضع الطاعةِ والتقديرِ، وصاحب الكلمة بين الأوس جميعا!

••مجتمع المدينة••

كانت «يثربُ» تَضُمُّ ثلاثَ طوائفٍ لكل طائفةٍ وجودُها وحضورُها وزعامتُها.

الأوس: عشيرةُ سعد بن مُعاذ.. والخزرجُ: ولها قيادتها وزعامتها: «سعدُ بنَ عُبادة».

واليهود: ولهم قيادتهم وزعامتهم.

ومع أن الأوسَ والخزرجَ ينتمون إلى أُمٍّ واحدة وأب واحدٍ، فقد كان «اليهودُ» يوقعون العداوةَ والبغضاءَ بينهم ليخلوَ الجوُّ لهم!

لكن «الأوسَ والخزرجَ» يعبدونَ الأصنام شأنُهم شانُ أهلِ مكة!

أما اليهودُ فلهم دينٌ وكتابٌ ونَبِيّ.. نبيُّهم سيدُنا موسى عليه السلام جاءهم بالتوراة من عندَ اللَّه!

ولهذا كانوا يُرَدِّدُون على مسامعِ «الأَوس والخزرج» أن التوراة التى أنزلها اللَّه على مَوسى تُبشر بنبيٍّ أقبل زمنُه، وأنهم سوف يَسبقونَهم إليهم لتكونَ لهُم الغلبةُ عليهم!

وود زعماءُ الأوسِ والخزرج من كل قلوبهم أن يسبقوا «اليهودَ» إليه حتى تكون لهم الغلبةُ عليهم، ويُصبحوا أصحابَ «الدينِ الجديد» المسيطرِ على كلِّ الأديانِ وخاتَمِها!

••أخبارُ الدين الجديد تنتشرُ في المدينة على ألسنة أهلها!••

وفي هذَا الوقت كان النبيُّ محمد ﷺ قد بعثهُ اللَّهُ بمكةَ المكرمةَ إلى الناسِ بشيرًا ونذيرًا ليُخرجَهم من الظلماتِ إلى النورِ بإذنٍ من رَبّه، ويَهديَهم إلى صراطٍ مستقيمٍ.

وحين أعلن دعوتَه بين كُفارِ مكةَ من عَبَدةِ الأصنامِ لم يُؤمن مَعَهُ إلا قليل!

فكان لابُدَّ من البَحث عن أرضٍ جديدةٍ يُبشِّر فيها بالدين الجديد لعلّ وعسى!!

فكان ينتهزُ مواسمَ الحَج، ووجودَ القبائل عند «العقبةِ» ويعْرضُ نفْسَه على تلكَ القبائِل، والوفودِ القادمةِ في موسمِ الحجِّ، فيتلوَ عليهم القرآنَ الكريمَ الذي أنزله ربُّه علَيه، ويحَدِّثَهُمْ عن رسالتِه، ويدعوَهم إلى الإيمان باللَّهِ الواحدِ الخالق الرازقِ القادرِ الذي يُحيى ويُميتُ، وهو على كل شيءٍقدير.

••أولُ الغيث[1]••

في أمثالنا العربية «أولُ الغيثِ قَطْرَة ثم يَنْهَمر» فبينما كان الرسولُ ﷺ عند «العقبة» لَقِيَ رهطًا[2] من «الخزرج»، فدعاهم إلى اللَّه، فآمن به «ستةٌ» منهم كانوا أولَ الغيث!، ثم تزايد العدد فيما بعد..

فما لبثوا أن رجعوا إلى «مدينتهم» يحملون بشائر الخير والنور إلى قومهم.. وراحوا يُحَدِّثون أهلَهم بما سَمعوا وما رأَوْا حتى لم يبقَ بيتٌ في المدينةِ إلا وقد عرف نَبأَ هذا اللقاء العظيم عند العقبة!

••العَوْدُ أحمد••

وكانت لهم عودةٌ مَحْمُودَة بعدَ ذلكَ اللقاءِ الأولِ حيث ذهب للقاء الرسول ﷺ في موسم الحجِّ اثنا عشرَ رجلًا راغبين في الإيمان به..

وحين كان اللقاءُ مَدُّوا أيديَهم لمبايعةِ النبيِّ ﷺ على الإيمان والطاعةِ في العُسْر واليُسْرِ.. ورجعوا ومعهم أولُ سفيرٍ للإسلام بالمدينة: أتدرى من هو؟

إنه «مُصعب بن عُمَيْر!»

الذي كان فاتحةَ خيرٍ على الإسلامِ والمسلمينَ..

كانت خطواتُه إلى المدينة مباركةً طيبةً.. علّم المؤمنين فيها الإسلامَ.. وأقرأهم القرآنَ.. وفقّههم في الدينِ.. ولهذا كانوا يسمونه: «المُقْرِئَ»[3].

ولم تقتصر دعوتُه على الخَزْرَجِ بل امتدتْ إلى الأوسِ.

(1) الغيث: المطر الذي يغيث الأرض الجدباء والناس والحيوان.

(2) رهطا: جماعة.

(3) وادعهم: صالحهم وسالمهم وهادنهم.

••أمل يتحقق••

كان «سعد بن مُعاذ» يتشوق إلى الدينِ الجديد.. وينتظرُ من يأخذُ بيده إليه بعد الذي سَمِعَه من «اليهود».. وبعد أن شاع الأمرُ على ألسنةِ «أصحابِ العقبةِ الأولى» ومن قبلهم.

ولم يكدْ يعلمُ بوصولِ «مصعبِ بنِ عُمَيْر» إلى المدينةِ حتى أسرع إليه، وكان في مقدّمة الذين سبقوا إلى الإسلام!

••دعوة كريمة••

وتاقت نفسُ الذين سارعوا إلى الإسلام بالمدينة إلى لقاءِ الرسولِ ﷺ!

لقد تحرك الرجالُ والنساءُ للقائِه عند «العقبةِ» في مَوْسمِ الحجِ وتمَنَّوْا لو شَرّف الرسولُ ﷺ أرضَهم، وبارَكها!

إن بَنى النجار بالمدينة هم أخوالُ الرسول ﷺ.. وإن قبرَ أمِّه ﷺ بالقربِ من مَدينتهم.. وإن له بالمدينة ذكريات أيامَ أَنْ زارها صغيرًا مع أُمِّه ! فلِمَ لا يشرفهُم بزيارته، فما راءٍ كمن سمعا!

وتلاقت رغبتُه ﷺ مع رغبتهِم وعاهدُوه وبايَعوه أن يَنْصُروا دعوتَه، ويكونوا له أنصارًا، وأن تكون مدينتهُم مدينتَه لتُصْبِحَ المدينةَ المنورةَ بوجودهِ ﷺ بعد «يثربَ..»[1].

وتمنَّوْا أن تتطلقَ منها الدعوةُ ليفاخروا «اليهودَ» بها كما كانوا يُفاخرونهُم!

ويصبحُ الأملُ حقيقةً!! ويهاجرُ الرسولُ ﷺ إليهم ومعه الذين آمنوا به من أهل مكةَ.

ويستقبلُهم الأنصارُ أحسنَ استقبالٍ.. النساء منهُم والأطفالُ والرجالُ وهم يُرَدِّدُونَ:

(1) إن التثريب معناه اللوم والذنب.

طلع البدرُ علينا من ثَنِيَّاتِ الوداعْ
وجب الشكرُ علينا ما دعا لله داعْ
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع
جئتَ شرفتَ المدينة مرحبا يا خيرَ داعْ

••السَّعدان في مجتمع المدينة••

يابشرى! ها هوذا رسولُ اللَّه ﷺ بين إخوته وأصحابه.. الأنصارِ منهم والمهاجرين صاروا إخوة متحابِّين على يدِ سَيّد المرسلين!

لقد انصرف جهدُ الرسولِ ﷺ بتوجيهٍ من رَبّه إلى تكوين المجتمعِ الإسلامى الجديد في المدينةِ بادئا بالتأليف بين قلَوبِ «الأوسِ» وعلى رأسهم «سعد بن معاذ» والخزرج وعلى رأسهم «سعدُ بن عُبَادة»، ويالهما من زعيمين عظيمين!

واستطاع الرسولُ ﷺ أن يكتبَ عهدًا بين المهاجرين والأنصار وادعَ[1] فيه اليهودَ، وأقرهم على دينهم وأموالهم.

••المؤاخاة••

سبحان اللَّه! لقد التْأمَ شمل «الأوس والخزرج» بعد حُروب طال أمرُها، والتقى السَّعْدَان في ظلال الإيمان والقرآن!

وصدق اللَّه العظيم حيث يقول:

﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ ﴾ [الأنفال: 63].

وامتدت أيدى الأنصارِ إلى إخوتِهم المهاجرين بعد ذلك التوجيه الكريمِ من النبيِّ الرءوفِ الرحيمِ:

(1) وادعهم: صالحهم وسالمهم وهادنهم.

«تآخَوْا في اللَّه أخَوَيْن أخوين»!

فكان لكلِّ مهاجر أخٌ من الأنصارِ يستضيفُه ويقدمُ له ما استطاع من خَدَمَات!.. دورُ الأنصارِ مِلْكٌ للمهاجرين، وأموالُهم أموالهم.

ولقد أراد الرسولُ ﷺ بهذه المؤاخاة أن يُذهب عن المهاجرين وَحْشَةَ الغربة، ويَشُدَّ أزْرَ[1] المسلمين بعضِهم ببعض، فأصبحوا بنعمةِ اللَّهِ إخونا كالبُنيان المرصوص يشُدُّ بعضُه بعضًا.

وهنا يتقدم «سعد بن معاذ» ويَمُدُّ يدَه إلى «أبى عُبيدَةَ بن الجراح» ليصيرا أَخَوَيْن في اللَّه وفى ظلّ الإسلام، ويُصبح لهما في الإسلام مكانةٌ ومكان بفضل ذلك الإيمان!

نموذج فاضل من الرجال

كان «سعدُ بن معاذ» نموذجًا فاضلًا بين الرجال يخدُمُ نفسَه بنفسِه، ولا يعتمدُ على غيرِه في تحصيل رزقِه، ولو شاء لكان الكثيرون في خِدمتِه.

ولقد روى أن النبى ﷺ قال له:

«ما هذا الذي أرى بيدك؟!»

قال: من أثر المِرّ والمِسحاة[2]، أضرِبُ وأُنْفِق على عيالى» فقبّل الرسول ﷺ كفَّهُ، وقال:

«هذه يد لا تمسُّها النارُ!»

ولا عجبَ، فالعملُ شرفٌ، والعملُ حياةٌ.. وبهذه الأخلاقِ وتلك المبادئ تخَلَّق المسلمون الأوائلُ الذين تربَّوْا في «مدرسةِ النبوة».. حتى إن أبا بكر رضىَ اللَّهُ عنه في أولِ يوم من أيامِ خلافتِه بعد ذلك رُئى ذاهبًا إلى السوقِ ليكسِبَ رزقَه! فقال له عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عُد إلى عَملِك في رعايةِ أمرِ المسلمين، فنحنُ أحوجُ إلى كلِّ دقيقة من وقتِك، ونحن نفرضُ لك من مالِ المسلمين ما يكفيك.

(1) يشد أزرهم: يقويهم. والأزر: القوة.

(2) المِرّ: الفأس، والمِسحاة: المجرفة من حديد.

••سعد رجل السلم ورجل الحرب••

وكما كان سعد رجلًا في السلمِ متعاونا إلى أبعد مدًى فقد رأيناه في الحرب له وجودُه وحُضُوره!

لقد فكرتْ قريشٌ كثيرًا بعد أن أفلتَ «المسلمون» من يَدِهَا، واستقرت أمورُهم في «المدينة»، وخافت على نفسِها إن تركت المسلمين يكوِّنون أنفسَهم، ويمارسون عبادتَهم وينشرونَها فيما حولَ المدينة من قبائل وقُرًى!

إنها عندئذ لن تجدَ من يُقدّسُ أصنامَهم ويعبدُها!

فلابدّ أن يقضُوا عليهم قبل أن يعلوَ شأنُهم، ويكثرَ عددُهم.

وفي تلك اللحظات الحرجة من تاريخ المسلمين جمعت قريش جُموعَها للقاءِ المسلمين والقضاءِ عليهم.

ووصلت أنباءُ قريشٍ إلى الرسولِ ﷺ فأراد أن يتثبت من استعدادِ أصحابِه المهاجرين والأنصار فجمَعَهم وخطب فيهم قائلا:

«**هذه قريش قد ألقت إليكم أفلاذَ كبدها**[1]».

وهنا أراد المهاجرون طمأنته ﷺ وأبدَوْا عظيمَ استعدادهم، فتحدث أبو بكر الصديقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أولا، ثم تحدث عمرُ ثانيا، وهما وزيراه ﷺ.

ثم تحدث المقدادُ بنُ عَمْرٍو فأحْسَن كما أحسنَ أخواه من قبله!

لكنهم يُمثلونَ المهاجرين، فما بالُ الأنصار؟ وما شأنهم؟ وما موقفُهم في حرب لم تكن تخطِرُ لهم على بالٍ، ولم يَحْدُثْ من قبلُ أن داهمتهم مكةُ بأفلاذِ كَبدِها!

فالتفتَ الرسولُ ﷺ وقال:

«**أشيروا عليَّ أيُّها الناس!**».

فأحسَّ «سعدُ بنُ مُعاذ» أنه ﷺ يَعْنِي الأنصارَ ويقْصدهم ويريد أن يسمعَ رأيَهم، فقال: **لكأنك تريدنُا يا رسول الله!**

---

(1) أغلى ما عندها من شاب ورجال، والأفلاذ جمع فلذة، وهى القطعة.

قال الرسول ﷺ: «أجَلْ»[1].

وهنا قال سعدٌ كلمات خالدةً مازال التاريخُ يُرَدّدها.. قالها في حماسةِ الشُّجعان، وقوةِ الإيمانِ، وثقةِ المؤمن الوفيّ لعهدِه ولِدينِه!

تُرَى ماذا قال؟ قال: يا رسولَ اللَّه، قد آمَنّا بك وصَدَّقناك.. وأعطيناك عُهودَنا.. فامضِ إلى ما أُمِرْتَ.

فوالذي بعثَك بالحقِّ لئن استعرضتَ بنا هذا البحرَ فخُضْتَه لنخوضَنَّه معَك!

وما نكرهُ أن تَلْقَى العَدُوَّ بنا غدا!!

إنا لصُبُرٌ[2] عند الحرب!

صُدُق[3] عند اللقاء!

لَعلَّ اللَّهَ يُريك منا ما تَقرّ به[4] عينُك!».

وكم كانت سعادةُ الرسول ﷺ بهذه الكلماتِ المخلصةِ الصادِقة من زعيم له شأنُه وتأثيرُه!

لقد ازداد سُرورُه ﷺ بِهِ، ورضاهُ عنه، وعن الأنصارِ وأقدَم على المعركةِ لمُوَاجهةِ الذين أرادوا القضاءَ عليه!

والأمرُ يومئذ للَّه!

ينصرُ مَن يَشاءُ وما النصرُ إلا مِن عِنْده.. ومادام المسلمون ينصرون دينَ اللَّه، فإن اللَّهَ ناصرُهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: 7].

---

(1) أجَلْ: حرف جواب مثل «نعم» يكون تصديقًا للمخبرِ، وإعلانًا للمستخبر ووعدًا للطالب.

(2) صُبُر، (بضم الصاد والباء): جمع صَبور وهو المعتاد الصبر القادر عليه.

(3) صُدُق، (بضم الصاد والدال): جمع صادق. يقبلون على القتال في شدة.

(4) تقرّ به عينك: تُسَرّ به.

••إقدام على المعركة••

وأقدم الرسول ﷺ على المعركة، وأخذ يُعدُّ العُدَّة ويختار مكانَ اللقاء..

إنه لن يسكتَ حتى يحاصرُوا المدينة.. لقد استقر الرأيُ على أن يخرجَ إليهم ويَلْقَاهُمْ خارجَها..

وفي موقع قريب من بدر يُسَيْطر فيه على الماءِ عسكرَ الجيشُ بعد أن أشار عليه مَن له خِبرةٌ في مجالِ الحَرْبِ والتخطيط لها!

وهنا يتقدمُ «سعدُ بنُ معاذ» إلى رسولِ اللَّه ﷺ وكُلُّه حرصٌ على حياةِ الرسولِ ﷺ، وعلى أن يكونَ الجيشُ دِرْعًا له ﷺ فقال:

«نبنى لك عريشًا من جَريد، فتكونُ فيه، ونترك عندك ركائبك، ثم نلْقَى عَدُوَّنَا».

وكان سعدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يبذلُ من ذاتِ نفسِه ولَطَالَما تمنى أن يَلْقى اللَّه شهيدًا في سبيله تُضَرِّجُه الدماءُ لا على فِراشِه تَنْدُبه النساء!

ولكن اللَّهَ وسّع له فى الأَجل فلم يتحقق أملُه في الشهادةِ يوم بدر.

وهو الذي كانت كلماتُه بين يدىِ الرسول ﷺ بمثابةِ وَقود ألهبت القلوبَ حماسًا واندفاعا حتى كان النصرُ يومَ بدْرٍ.

وفي «يوم أُحُد» كان «سعد بن معاذ» من الفدائيين التسعة الذين آثروا الموتَ دفاعًا عن الرسول ﷺ حين التف الكُفَّار حَوْلَه وأحاطوا به يريدون قتله انتقاما لقتلاهم يوم بدر!

ونجا الرسول ﷺ وانفضَّ الكفارُ من حوله عائدين إلى مكة لم ينالوا خبرًا بفضلِ تلك المقاومةِ الباسِلة!

ولم يمضِ إلا قليل من تلك الأيام العامرة بالجهاد حتى أَطَلَّ اليومُ الذي كان بطلُنا «سعدُ بنُ مُعاذٍ» على موعدٍ معه!

إنه «يوم الخندق» من أشهر الأيام الحربية الفاصلة بين الحقِّ والباطلِ.. بين قُوَى الشَّرِّ وجماعةِ الخير!

بين حزبِ اللَّهِ وحزبِ الشيطانِ!

لقد تجمع الأحزاب تحت رايةِ الشِّرك وتواطَأَ معهم يهود المدينة لضرب الإسلام في مَقْتَلٍ!

وأراد الرسولُ ﷺ أن يقومَ بعمل رُبما خَفَّف من وَطْأَةِ ذلك الحصار فراح يُفاوض غطَفانَ (كبرى القبائِل التى تعمتد عليها قريش) على أن يعتزلوا القِتَال، ولهم مُقَابِلَ ذلك ثلثُ ثمارِ المدينة!

وتَرْضَى «غطَفان» بهذا العَرْضِ الذى ما كانت تحلمُ به!

ولم يبق إلا أن تُوَقِّعَ الاتفاقَ على ذلك بينها وبين الرسول ﷺ وفى هذه اللحظاتِ رأى النبىَّ ﷺ أن لا يَنْفَرِدَ بالأمرِ بنفسِه فدعا كبارَ أصحابه ليشاورَهم، وكان غرضُه أن يَسْتَمعَ إلى رأيِ السَّعْدَيْن: سعدِ بن معاذٍ، وسعدِ بن عُبادة فهما يمثلَان الأوس والخزرج، والمدينةُ بلدُهم، وهم أصحابُ الحقِّ في قبولِ هذا العرضِ أو رَفْضِه!

ويسأله الزعيمان الكبيران.

أهذا رأى تختارُه.. أم هو وَحْيٌ أمرَك به اللَّهُ ؟!

ويقول الرسولُ ﷺ:

بل هو أمرٌ أختارُه لكم، وواللَّهِ ما أصنعُ ذلك إلا لأَنَّنِى رأيتُ العرب قد رَمتْكُم عن قَوْسٍ[1] وَاحِدَةٍ، وكَالَبُوكم[2] من كل جانب فأردت أن أكْسِر عنكم من شوكتهم إلى أمر مّا!

وهنا يقول «سعدٌ» المؤمنُ بنصرِ اللَّه والأبىّ:

(1) اتفقوا عليكم.

(2) كالبوكم: عادوكم.

يا رسولَ اللَّه، لقد كنا نحنُ وهؤلاء على الشِّرْكِ وعبادةِ الأوثانِ لا نعبُدُ اللَّهَ ولا نعرفُه، وهم لا يَطْمَعُون أن يأكلوا من مدينتنا ثمرةً واحدةً إلا قِرًى (ضيافة).

أفحينَ أكرمنَا اللَّهُ بالإسلام وهَدَانا له، وأعزَّنا بك وبه نُعطيهم أموالنَا؟!

واللَّهِ ما لنا بهذا من حاجة، واللَّهِ لا نُعطيهم إلا السيفَ، حتى يحكمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وبَيْنَهم!!

وبعث الرسول ﷺ إلى غَطَفَان بالرفض، وكأن شيئا من العرض السابق لم يكن، وسيكونُ الحكمُ للأسنة[1]، وما النصر إلا من عند اللَّه!

وامتطى سعد جواده، وأخذ يرتجز[2]:

لَـبِّـثْ قليلًا يشهد الهَـيْـجَـا حَمَـلْ
ما أجمـلَ المـوتَ إذا حان الأجَـلْ(3)

وتبادل الفريقان الحرب بالنِّبال، وعندئذ تلقى سعد سهمًا في ذِراعه فراح ينزف نزفا متواصلا لا ينقطع!

فأمر الرسولُ ﷺ بنقلِه إلى المسجدِ وأُعِدّت له خيمةٌ للإشرافِ على تمريضه!

ولما أحسّ بدنوِّ أجلهِ رفع بصرَه إلى السماءِ وهو يقولُ:

«اللهمَّ إن كنتَ أبقيت من حرب قريش شيئا فأبقنى لها، فإنه لا قومَ أحَبّ إلىّ أن أجاهدَهم من قومٍ آذَوْا رسولَك، وكذبوه، وأخرجوه!

وإن كنت قد وضعتَ الحربَ بينَنَا وبينَهم (أنهيتَها) فاجعل ما أصابنى اليومَ طريقًا للشهادة!

ولا تُمِتْنى حتى تَقَرَّ عينى من يهود بنى قريظة».

ويشاءُ اللَّه أن تَقَرّ عينُ سعدٍ قبلَ موتِه بلحظات!

---

(1) جمع سنان: نصل الرمح. كناية عن الحرب.

(2) يقول شعرا من بحر الرجز.

(3) لبث: تمهل وانتظر. والهجاء: الحرب. وحمل ابن بدر.

فبينما هو على فراشِ الموتِ، يرُدُّ اللَّهُ خطرَ المشركين فيعودوا خائفين مذعورين، وكفى اللَّهُ المؤمنين القتالَ، وكان اللَّهُ قويّا عزيزا!!

واشتد الرسولُ ﷺ في طلب «بنى قريظة» الذين نقضوا العهدَ والميثاق، وحاصرهم قُرابةَ شهرٍ كاملٍ مما اضطرهم إلى قبولِ حُكمِ اللَّهِ فيهم!

ورَضُوا بتحكيم سعدِ بنِ مُعاذٍ الذي كان حليفَهم في الجاهلية!

ويتهللُ وجهُ النبى ﷺ فرحًا لطلبهِم هذا، حيث يعرفُ ما يُكنُّه لهم سعدٌ بعد أن نقضوا العهدَ!

وأرسل النبىّ ﷺ مَن يحملُ سعدًا إلى «بنى قريظة» ليسمعَ قولَ الرسولِ ﷺ: «يا سعدُ، احكُمْ في بَنِى قريظة» وينطق بالحكم قائلا: «إنى أرى أن يُقتلَ مقاتلوهم، وتُسبْىَ ذراريهم[1]، وتُقَسَّمَ أموالهُم».

وينفذ المسلمون ما حكم به سعد، وتطمئن نفسه بعد أن استُجِيبَتْ دعوتُه، وتحققت أمنيته!

وأعيد إلى خيمته راضيا مَرْضِيًّا قَريرَ العين: ويزوره الرسول ﷺ في لحظاته الأخيرة ويدعو له قائلا: «**اللهم إن سعدا قد جاهد في سبيلك، وصدق رسولك، وقضى الذي عليه، فتقبلْ روحَه بخير ما تقبلت به روحَا**» وكانت دعوة الرسول ﷺ بردًا وسلاما وسكينة وطمأنينة على نفس سعد؛ فتمتم بكلمات.. «السلام عليك يا رسولَ اللَّه.. أما إنى أشهد أنك رسولُ اللَّه» وانحنى الرسول ﷺ يقبل جبينه قائلا: «**هنيئا لك أبا عمرو**».

(1) جمع ذرية.

عبد الله بن عباس
حَبْر الأمة وعالمها

نموذج رائع من أبناء الصحابة!

كان والدُه العباسُ بنُ عبد المطّلب عمَّ النبى ﷺ!

وتذْكُرُ كُتبُ السيرة أن العباسَ حضر مع الرَّسول ﷺ «ليلةَ العَقَبَةِ» حين بايَعه الأنصارُ، ولم يكن قد أعلَن إسلامَه!

فلما هاجر الرسولُ ﷺ كان عمُّه العباسُ عونًا للمسلمين المستضعفين بمكة!

وكان له عَشَرةُ بنين وثلاثُ بنات، أكبرُهم الفضلُ ويأتى دَوْرُ عبدِ اللَّه بعد الفضل.

وأم عبد اللَّهِ هى «لُبابة الكُبرى» أولُ امرأةٍ أسلمت بمكةَ بعد خديجةَ بنتِ خُوَيْلد - رضى اللَّه عنهما-، وكان الرسول ﷺ يزورها.

وقد دعا لعبدِ اللَّهِ بالحكمةِ حين وُلد بالشِّعب[1] قبلَ الهجرةِ بثلاثِ سنين.

ولقى الرسولُ ﷺ ربّه وهو ابن ثلاثَ عشْرةَ سنة.

وظل يَنبوعَ علم حتى لقى ربَّه سنة ثمان وستين بعد أن ملأ الدنيا عِلْمًا وحِكمةً.

ولا عجبَ فقد دعا له الرسولُ ﷺ حِينَ وُلِد!

وقد سئل ابن عباس - رضى اللَّه عنهما -: أَنَّى لك هذا العلم؟

فقال: «بلسانٍ سَئُولٍ، وقَلْبٍ عَقُول».

لقد حَرَصَ ابن عباس - بعد أن لقى الرسولُ ﷺ ربَّه- على جَمْع الأحاديث التى سَمِعَها الصحابةُ من رسول اللَّه ﷺ بكثرةِ السؤال، والسَّعْى إلى الصحابة حيث كانوا، يسمعُ منهم، ويَنْقُل عَنْهُم، ويحفظ ذلك للأجيال الآتية.

---

(1) الشعب - بكسر الشين - منحدر بين جبلين. وقد حاصر المشركون فيه بنى هاشم وبنى عبد المطلب وقاطعوهم حتى أكلوا ورق الشجر.

ويَراهُ أحدُ الصحابةِ يَتَوسَّدُ رداءَه على بابه ينتظر حتى يخرجَ، تَسْفى الريحُ عليه الترابَ، فيقول: يابن عَمِّ رسولِ اللَّه، ألا أرسلتَ إلىّ فآتيك؟!

فيقول: أَنا أحقُّ أَنْ آتيَك فأسأَلَك!

ولا عجبَ، فالسؤالُ مِفْتاحُ خزائنِ العِلْم.

وما زال ابن عباس يسألُ ويبحثُ حتى صارَ للناسِ إمامًا يَسْأَلُونَه فيُجيبُهم، ويَسْتَفْتُونَه فيُفْتيهِم.

ومع تفوقه في «رواية الحديث» نجده قد اشتهر بتأويل القرآن الكريم وتفسيره.

فإذا ما سأله سائِلٌ عن «آيةٍ» من آيات كتاب اللَّه، حَدَّثه عن سببِ نزولِها والمرادِ بها.

وإذا كان القرآنُ الكريمُ هو «الأصلُ الأولُ» للدين الإسلامى، وكانت السنةُ المطهرةُ هى «الأصلُ الثاني» التى تُبين ما جاء في القرآن، وتُفَصِّلُ ما كان مجملا منه، فإن ابن عباس كان عالمًا بالأصْلَيْن معا:

كتابِ اللَّهِ، وسنةِ رسولِه، ولهذا لقبوه بَحبْر الأمة، وبَحْرِ علمها!

ويقول مسروق:

كنتُ إذا رأيتُ ابن عباس قلتُ: أجملُ الناس.

فإذا نطقَ قلتُ: أفصحُ الناس.

فإذا تحدّث قلتُ: أعلمُ الناس.

ولقد أصبح ابنُ عباس أحدَ «العبادلةِ» الأربعة الذين يُرجع إليهم في الفَتْوى!

وأحدَ الستةِ الذين كانوا أكثرَ الصحابةِ روايةً عن رسول اللَّهِ ﷺ فقد روى ألفًا وستمائة وستين حديثا!

فلا عجبَ أن يكون مستشارَ الخلفاء، وموضعَ ثقةِ المسلمين من شبابٍ ورجالٍ ونساءٍ.

ومما يدل على مكانتهِ العِلميةِ أن أهلَ البَصْرة اختلفوا فقال بعضهم:

العلمُ أفضلُ مِنَ المالِ.

وقال آخرون: بلِ المالُ أفضلُ مِنَ العلمِ.

فأوفدوا رسولًا منهم إلى «ابن عباس» - رضى اللَّه عنهما - فسأله:

فقال ابنُ عباس: العلمُ أفضلُ من المال!

فقال مبعوثُ أهلِ البصرة إليه:

إن سألونى عن الحُجة فماذا أقول لهم؟

قال ابن عباس: قُلْ لهم: إن العِلْم ميراثُ الأنبياء، والمالَ ميراثُ الفراعِنة!

ولأن العلم يحرسك، وأنت تحرسُ المال.

ولأن العلمَ لا يُعطيه اللَّهُ إلا لمن أحبّه، والمالُ يُعطيه اللَّهُ لمن أحبّه ومَن لا يَحبّ.. ألا ترى إلى قوله تعالى:

﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ [الزخرف: 33].

ولأن العلم لا يَنقُصُ بالبذل والنفقة!

والمال يَنْقُصُ بالبذلِ والنفقةِ!

ولأن صاحبَ المالِ إذا مات انقطع ذِكْره.

والعالم إذا مات بقى أَثَرُه، فذكره باقٍ.

ولأن صاحبَ المالِ مَيِّتٌ.

وصاحبَ العلمِ لا يموت.

ولأن صاحبَ المال يُسأل عن كل درهم.. من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه؟

وصاحبُ العلمُ له بكل حديث درجةٌ في الجنة!

وقد لقى ابنُ عباس ربّه، ومازال حديثهُ الذي رواه عن النبى ﷺ وهو غُلَام منارةً يهتدى بها الأنباءُ والآباءُ، ويالها من نصحية غاليةٍ نصحه بها الرسولُ ﷺ حينما أردفه خلفَه وقال له:

«يا غلامُ، إنى أُعَلِّمُك كلماتٍ:

احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْك!

احفظِ اللَّه تجده تُجاهَك!

إذا سألتَ فاسْألِ اللَّهَ.

وإذا استعنتَ فاستَعِنْ باللَّه!

واعلَم أن الأمةَ لو اجتمعت على أن ينفعوكَ بشيءٍ لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه اللَّه - تعالى - لك.

وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه اللَّه - تعالى - عليك.

ثم قال:

احفظِ اللَّه تَجدْه أمامك.

تعرَف إلى اللَّه في الرخاءِ يَعْرفْك في الشدة.

واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليُصيبَك.

وما أصابَك لم يكن ليُخْطِئَك.

واعلَم أن النصرَ مع الصَّبْرِ.

وأَنّ الفَرجَ مع الكَرْب.

وأنَ معَ العُسْر يُسْرا»[1].

لقد سمع ابن عباس هذه النصيحة الغالية وهو فتى صغير ففكر فيها.. وتدبر معناها.. واتخذها دستورا له في حياته، فكانت سِرَّ نجاحه!

وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تقيًّا ورِعًا يخشى اللَّه!

وهل هناك أحسنُ من أن تكون مع اللَّه؟

فمن كان مع اللَّه كان اللَّه معه!!

ألم يقل اللَّه في سورة البقرة:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 282].

فهل آن الأوانُ لطلابِ العلم أن يجعلوه قدوتَهم؟!

---

(1) رواه الترمذى، وقال: حديث حسن صحيح.

أبو هريرة الدَّوْسِىّ

ألزمُ الصحابة لرسول اللهِ وأعلمُهم بحديثه!

اسمه يردده المسلمون في كل الدنيا!

فما أكثر الأحاديث التى رواها عن النبى محمد ﷺ!

ويحدثنا هو عن نشأته فيقول:

«نشأت يتيمًا، وهاجرت مسكينا، وكنت أجيرًا لبُسْرةَ بنت غَزْوَانَ بطعامِ بَطنى!

فكنت أخدُمُ القوم إذا نزلوا..

وأحْدُو[1] لهم إذا ركبوا

فزوَّجَنيها اللَّهُ!

فالحمدُ للَّه الذي جعل الدين قِواما[2].

وصَيَّرَ أبا هريرةَ إمامًا!»

ونعود فنتساءل: كيف صار في الناس إماما؟

وأنّى له هذا العلم؟

لقد سئل ذات يوم: أَنّى لك كلُّ هذا العلم؟

فأجاب: **بلسان سَئُول، وقلب عقُول!**

ولكن كيف اهتدى وقبيلته «دَوْس» كانت تقيم في «تهامة» في ذلك السهل الساحلى المحاذى للبحر الأحمر بعيدا عن مكة والمدينة؟!

لقد كان سيدُ قبيلته دَوْس «الطفيلُ بنُ عمرو» من أشرافِ العربِ فبلغتْه دعوةُ النبى ﷺ وكان له معه لقاء سمع منه ﷺ سُورَتَى: «الإخلاص» و «الفلق» فما

(1) أحدو لهم: الحادى الذي يسوق الإبل بالحُداء (وهو الغناء لها).

(2) قِوام كل شيء: عماده ونظامه.

سَمعَ أحسنَ منهِما فبَسط يدَه للنبى ﷺ وشهد أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدا رسول اللَّه، ودخل في الإسلام.

وأسلم أبو هريرة على يده!

ولكنه ظل في أرض قومه إلى ما بعد الهجرة بست سنوات حيث وفد على الرسول ﷺ بالمدينة مع جمعٍ من قومِه أعلنوا إسلامَهم، وهداهم اللَّه!

ويحدثنا أبو هريرة فيقول: «قدمت - واللَّه - على رسول اللَّه ﷺ بِخَيْبَر، وأنا يومئذ قد زدتُ - على الثلاثين سنةً - سنوات!

وأقمت معه حتى تُوُفّى.

أدورُ مَعَهُ في بيوت نسائِه، وأخدِمُهُ، وأغزو، وأحُجُّ معه، وأصَلِّى خلْفَه.

فكنت - واللَّه - أعلمَ الناسِ بحديثه!

ويقول طليحة بن عبد اللَّه: لقد كان الصحابة أهلَ بُيوتاتٍ[1]، وغَنَم، وعمل، فكنا نأتى رسولَ اللَّه ﷺ طرفى النهار[2].

أما «أبو هريرةُ» فكان مسكينا ضَيْفًا على الرسولِ ﷺ، يَدُه مع يَدهِ فلا نَشُكَّ أنه سمع ما لم نسمع!

ولا تجدُ أحدًا - فيه خيرٌ - يقول على رسول اللَّه ﷺ ما لم يقل، ومن هنا أصبح أبو هريرةَ مُحدّثا، وصار مُفْتِيًا!

ويقول ابن سعد: كان ابن عباس، وابن عمر، وأبو سعيد، وأبو هريرة، وجابر مع أشباه لهم يُفتون[3] بالمدينة، ويتحَدّثون عن رسولِ اللَّه ﷺ من لَدُن[4] توفى عثمان إلى أن تُوُفوا.

ويشهدُ الإمامُ الذهبىُّ لأبى هريرة فيقول:

(1) بيْت: جمعه أبيات وبيوت، أما جمع الجمع فهو بيوتات، ويغلب على بيوتات الشرف.

(2) طرفي النهار: أوله وآخره.

(3) يفتون: يبينون الحكم لغيرهم فيما يسألون عن حكمه.

(4) لدن: ظرف زمان؛ أي من حين، وقد يكون ظرف مكان بمعنى عند.

احتج المسلمون قديمًا وحديثا بحديثه لحفظِه، وجلالتِه، وإتقانِه.

وناهيك[1] أن مثل ابن عباس وهو حَبر[2] الأمة يتأدب معه، ويقول له: أَفْتِ يا أبا هريرة!

ويُلقى «أبو عثمان النهدى الأضواءَ على ما خَفِيَ من حَياته فيقول: تضيفت[3] أبا هريرةَ سبعًا، فكان هو وامرأتُه يَعْتقبِون[4] الليلَ أثلاثا:

يُصلِّى هذا، ثم يُوقظُ هذا!!

قلت: يا أبا هريرة، كيف تصوم؟

قال: أصومُ من أولِ الشهر ثلاثًا.

وكان لأبى هريرة صيحتان[5] في كل يوم:

أولَ النهارِ وآخرَه!

يقول: ذهب الليلُ، وجاءَ النهارُ، وعُرض آل فرعون[6] على النار، فلا يَسْمَعُه أحدٌ إلا استعاذَ من النارِ.

وكثيرًا ما كان يفكرُ في مستقبل العرب ويُرَدِّدُ الحديثَ الشريف: «**وَيْلٌ للعرب من شَرٍّ قَد اقتربَ!**

فِتنٌ كقِطَع الليلِ المظلِم، يُصْبِحُ الرجلُ فيها مُؤمنًا، ويُمْسِى كافرًا!

يبيعُ دينَه بعَرضٍ من الدنيا قليلٍ!

المتمسكُ بدينه كالقابضِ على خَبَطِ الشوك، أو كجمْر الغَضَى»[7].

---

(1) ناهيك: كافيك عن تطلب دليل آخر على صحة حديثه وفتاواه.

(2) حبر الأمة: عالمها.

(3) نزلت ضيفا عليه.

(4) يتبادلونه ويتناوبونه.

(5) الصيحة: التصويب في قوة.

(6) تصديقا لقول اللَّه تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾ [غافر: 46].

(7) يقول الإمام الذهبى في سير أعلام النبلاء: راوى الحديث من موالى أبى هريرة صَدُوق، وهذا أعلى شيء يقع لنا من حديث أبي هريرة.

يَرْحَمُه اللَّهُ لقد تركَ لنا خمسة آلاف حديث وثلاثمائة وأربعةٍ وسبعين حديثا، اتفق البخارى ومسلم على ثلثمائة وستة وعشرين، وانفرد البخارى بثلاثة وتسعين حديثا، ومسلم بثمانية وتسعين حديثا.

دعا لنفسه ذات يوم قائلا: «اللهم إنى أسألك علما لا يُنْسَى».

فقال النبى ﷺ «**آمين**».

رضى اللَّه عنه كان ألزم الصحابة لرسول اللَّه ﷺ وأعلمَهم بحديثه!

دخل عليه مَرْوانُ في مرض موته فقال له: شفاك اللَّه يا أبا هريرة!

فرفع يديه بالدعاء قائلا: اللهمَّ إنى أُحِبُّ لقاءك فأحِبّ لقائى!

فما بلغ مروان وسَطَ السوق حتى صَعِدت رُوحُه إلى بارئها!

رحم اللَّه أبا هريرة كان بارًّا بأمه، ومُحبا للعلم وأهلِه، وزاهدا فيما عند الناس!

رأى ذات يوم رجلين يمشيان معًا، أحدُهما أقلَّ من الآخر سنًّا فسأل الأصغر منهما: ما يكونُ هذا الرجل منكَ[1]؟

قال: أبى.

فقال: للابن: • لا تُسَمِّه باسْمِه • ولا تَمْشِ أمامَه. • ولا تجلس قبلَه!

وياله من أدب رفيع نحن في أمَسِّ الحاجة إليه!

ولقد صدق فيه قول الشاعر:

العلمُ يرفعُ بيتًا لا عمادَ له ... والجهل يهدِمُ بيتَ المجدِ والشرف

فحصن نفسك بالعلم وقل: **رب زدنى علما!**

(1) ما صلة القرابة بينك وبينه؟

أبو ذر الغفارى

يقول أصحاب السِّيَر: «**كان أبو ذرّ أمةً**[1] **وحده!**».

وقد وصفه الرسولُ ﷺ بقوله كما رواه ابن إسحاق: «**يعيش وحدَه.. ويموت وحدَه.. ويُبعث يومَ القيامة وحدَه!**» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.. وجزاه عنا خيرَ الجَزاء بقدر ما بلّغنا من أحاديثَ عن النبى ﷺ. فكيف تسنى له أن يكونَ أمةً وحدَه؟

كانت قبيلته غِفَارُ.. تعيش على السَّلْب والنهب والإغارة.. بوادِى «وَدّان» على القربِ من مكةَ حيث تمر القوافلُ ذاهبةً وآيبة.

وكان هو فارسَها المِقدامَ!

وإن شِئْتَ فقل: قاطعَ طريق لا يُستهان به!

لكنّ شعاعًا من نور اللَّه وصل إلى قلبه! فسبحان مغُيِّرُ الأحوال!

وإذا حلت الهداية قلبًا نَشَطَت للعبادة الأعضاءُ

وعرف أبو ذرّ اللَّهَ.. فنادى من أعماقه- قبل أن يَلْقَى رسولَ اللَّهِ ﷺ: «**لا إلَه إلا اللَّه!**».

ونأى[2] بنفسِه عن عبادة الأصنام التى لا تَضُرُّ ولا تَنْفَعُ.

وذات يوم مرَّ به رجلٌ بعد أن أُوحِيَ إلى النبى ﷺ فقال له: يا أبا ذر، إن رجلًا بمكة يقول مثل ما تقول، ويزعم أنه نبى!

فقال أبو ذر: مِمّن هو؟

قال الرجلُ: من قُرَيش!

(1) الأمة: الرجل الجامع لخصال الخير.

(2) نأى: ابتعد.

فأخذ أبو ذَرّ زادَه، وخرج حتى قَدِمَ مكة.. ويَرْوِى البُخارىُّ قصة إسلامه عَن ابن عباس فيقول: «لما بلغ أبا ذَرٍّ مَبْعثُ النبى ﷺ قال لأخيه: ارْكَبْ إلى هذا الوَادِى فاعْلَم لى علمَ هذا الرجل الذي يَزْعُمُ أنه نَبىٌّ يأتيه الخبرُ من السماءِ، واسْمَعْ مِن قولِه ثم ائْتِنِى[1].

فانطلق الأخُ حتى قَدمَ وسَمعَ من قوله، ثم رجع إلى «أبى ذر» فقال له: «رأيتُه يأمرُ بمكارم الأخلاقِ، ويقول كلامًا ما هو بالشِّعر»، فقال: ما شَفَيْتَنى مما أردتُ!

فتزودَ[2] وحملَ شَنّةً (قِرْبةً) فيها ماء حتى قَدمَ مكة، فأتى المسجدَ، فالتمسَ[3] النبى ﷺ وهو لا يعرفه، وكرهَ أن يسألَ عنه حتى أدركَه بعضُ الليل، فاضطجع، فرآه علىٌّ فعَرَفَ أنه غريبٌ!

فلما رآه تَبعَه، فلم يسأل واحدٌ منهما صاحبَه عن شيء حتى أصْبَحَ!

ثم احتَمَل قِربتَه وزادَه إلى المسجد، وظلَّ ذلكَ اليومَ، ولا يرى النبىَّ ﷺ حتى أمسَى فعاد إلى مَضْجَعه، فمرّ به علىّ فقال: أما آن للرجلِ أن يعرف مَنْزِلَهُ[4]؟!

فأقامه فذهبَ به مَعَه لا يسال أحدُهما صاحبَه عن شيءٍ حتى كان اليومُ الثالثُ فعَل مثلَ ذلك، فأقامه؛ فقال: ألا تُحَدِّثُنِى ما الذي أقدَمَك؟!

قال: إن أعطيتنَى عَهدًا ومِيثَاقا أن تُرشدنى فعلتُ!

ففعل، فأخبرَه، فقال: إنه حَقّ! وإنه رسولُ اللَّه ﷺ!!

فإذا أصبحتَ فاتْبعنى فإنى إن رأيتُ شيئًا أخافُه عليك قمتُ كأَنى أُريقُ الماءَ!

---

(1) ائتنى بأخباره ودعوته.

(2) تزود: اتخذ زادًا. والزاد: طعام يتخذ للسفر.

(3) التمس النبى: طلبه وبحث عنه.

(4) مكان نزوله، وأين يقصد؟

فإن مضيتُ فاتْبعنى حتى تدخلَ مَدْخلى[1] ففعل!

فجعل يَقْفُوه (يَتْبَعُه) حتى دخل على النبى ﷺ، ودخل معه، وسَمعَ من قوله، فأسلمَ مكانَه!

فقال له النبى ﷺ:

«ارْجعْ إلى قومِك فأَخْبِرْهم حتى يأتيَك أمرى».

فقال: والذي نفسِى بيده لأصْرُخَنّ بين ظَهْرانَيْهم[2] فخرج حتى أتى المسجدَ، فنادى بأعلى صوته:

«أشهد أنْ لا إلهَ إلا اللَّهُ وأن محمدًا عبدُه ورسولُه» فقام القومُ إليه فضَرَبُوه حتى أضجَعُوه!! وأتى العباسُ فأكَبَّ[3] عليه وقال: ويلكم[4]؛ ألستم تعلمون أنه من غِفار!

وأنه من طريقِ تجارتكم إلى الشام؟! ويا ويَلكُم من غِفَار إن أصبتموه بشيء!

فأقْلَعُوا عنه، وتركوه!

ولما أفاقَ عادَ إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ فلما رأى ما به قال له: **«ألم أنْهَكَ عن إعلان إسلامك؟!»**.

فقال: يا رسولَ اللَّهِ، كانَتْ حاجةٌ في نفسى فقضيتُها!

فقال له ﷺ: **«الْحقْ بقومِك وخَبِّرهم بما رأيتَ وما سمعتَ.**

«وادعُهم إلِي اللَّه، لعلَّ اللَّهَ ينفعُهم بك ويُؤجِرَك فيهم.. فإذا بلغَك أنى ظهرتُ فتعال إلىّ».

---

(1) مدخلى: مكان دخولى.

(2) بين ظهرانيهم: بينهم، ومثله: بين ظهريهم، وأظهرهم.

(3) أكب عليه: أقبل عليه وشُغل به.

(4) ويلكم: كلمة عذاب.

فلما عادَ إلى قومِه سألَهُ أخُوه أُنَيْس فقال له: ما صنعتَ؟

قال: أَسلمتُ وصدَّقْتُ.

فما لبث أن شَرحَ اللَّهُ صدرَه للإيمان.

وهدى اللَّهُ أُمَّهما فأعلَنَتْ إسلامَها!

وأخذت الأسرةُ تدعو إلى اللَّه في غِفَار.. حتى أسلم الكثيرون منهم، وأعلن الباقى إسلامَهم يومَ قُدومِ الرسولِ ﷺ إلى المدينة مهاجرا، وكان إسلامُ أبى ذَرٍّ خيرا وبركة على قومه!

ولكن «أبا ذَرّ» ظل في واديه حتى مضت بَدْرٌ وأُحُد والخَندقُ ثم قدم على المدينة، وتفرَّغ لرسولِ اللَّه ﷺ واستأذنَه في أن يقومَ على خِدْمَتِه، فأذن له، ونَعِمَ بِصُحْبتَه!

وكان الرسولُ ﷺ «يبتدئ أبا ذر إذا حضر، ويتفقدُه إذا غاب»[1].

ولا عجب فقد كان لأبي ذَرٍّ منزلةٌ عظيمةٌ عند رسول اللّه ﷺ.

ففى حديث عبد اللَّه بن عمرو الذي أخرجه أبو داود وأحمد، قال:

سمعتُ رسولَ اللَّه يقول: «**ما أقلّتِ الغَبْرَاءُ، ولا أظَلّتِ الخضراءُ أصدقَ لَهْجةً من أبى ذر**»[2].

ولما لحق الرسولُ ﷺ بالرفيقِ الأعلى لم يُطِقْ «أبو ذَرٍّ» الإقامَة بالمدينة بعد أن خَلَتْ مَن حَبيبه فرحل إلى الشامِ، وأقام فيها مدة خلافة الصدِّيق والفاروقِ رضى اللَّه عن الجميع.

(1) أخرجه الطبرانى من حديث أبى الدرداء - يتفقده: يسأل عنه ويبحث.

(2) أقلت: حملت. والغبراء: الأرض، والخضراء: السماء للونها الأخضر. واللهجة: لغة الإنسان التى جُبل عليها فاعتادها. يقال: فلان فصيح اللهجة وصادق اللهجة.

وانتقل إلى دمشقَ في خلافة عُثْمَانَ لكنه أنكر مظاهر الترف والإقبال على الدنيا فاستدعاه عثمانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد أن اشتكى منه الكثيرون، لكنه لم يسكت على ما كان يراه من رَغْبة الناسِ في الدنيا وانغماسهم في نعيمها! وما هم عليه من ترَف!!

ولم يكن هُناك من حَلّ لكيْ يُريحَ ويستريحَ إلا أن ينتقلَ إلى قريةٍ صغيرة من قُرى المدينة وهى «الرَّبذَة».

فانتقل إليها بعيدًا عن الناس زاهدًا في الدنيا، متمسكا بما كان عليه الرسول ﷺ وصاحباه من إيثار الآخرة على الدنيا!

وليس أدلّ على زُهده مما يُروَى أن صاحبًا له زارَه فراح ينظرُ هنا وهناك فلم يَجِدْ في بيته متاعا ولا أَثاثًا!!

فسأل: أين متاعُكم؟

فقال: لنا بيت هناك (يعنى في الآخرة) نُرسِلُ إليه أحسنَ متاعِنا وصالحَه!

فقال صاحبه: ولكن لابد لك من مَتاعٍ في هذه الحياةِ الدنيا مادمت فيها!

فأجابه أبو ذر: ولكن صاحب المنزل لا يترُكُنا فيه!

وظل راضيا بما قسم اللَّه له حتى لقى رَبّه في السنة الثانية والثلاثين للهجرة.

وصدق فيه قول رسول اللَّه ﷺ: «**يعيش وحدَه، ويموت وحدَه، ويُبعثُ يومَ القيامة وحده**» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وجزاه عنا خير الجزاء.. كان يريد حرث الآخرة! وصدق اللَّه حيث يقول: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى : 20].

فإلى متى نظل نفضل حرث الدنيا على حرث الآخرة؟!

تعهد دائما رصيدك من الأعمال الصالحة!!

أبو خيثمة

مر الصحابيُّ «أبو خيثمةَ» بتجربةٍ سَلَّطَت الأضواءَ عليه في ظروفٍ قاسية!

وكاد الشيطانُ يُغريه ويُعرّضُه للهلاك لولا أنه وقف مع نفسِه وقفةً أضاءت له الطريق، فلَحِقَ بالنبى ﷺ ولم يتخلفْ مع المتخلفين!

وكان اعتذارٌ.. وكان قبولٌ للعذر!

لقد ظلّ أبو خيثمة منذُ أن أسلم على عهدِه ووعدِه.. يجاهدُ في سبيلِ اللَّهِ، ويُطيعُ اللَّهَ ورسولَه!

حتى كانت «غزوةُ تبوك» تلك الغزوةُ التى خرج فيها النبيُّ ﷺ يُريدُ الرومَ الذين يتربصون بالدولة الإسلامية الناشئة، ويُهددون حدودَها!

والحرُّ شديدٌ.. والناسُ في جَدْب.. ينتظرونَ جنىَ الثِّمارِ.. ويُحبون الإقامَة في ظِلّ الأشجارِ الظليلِ!

والطريقُ طويلٌ.. والمعركةُ تحتاجُ إلى تمويلٍ.. وإلى عددٍ من المجاهدين غيرُ قليل!

ويقول ابن إسحاق: حدثنى عبد اللَّه بن أبى بكر: أن «أبا خيثمة» أخا بنى سالم - رجع بعد مسير الرسول ﷺ أياما - إلى أهله في يوم حارّ!!

فوجد امرأتين له في حائط (بستان) قد رشّت كل واحدة منهما عريشَها، وبرَّدَتْ له فيه ماءً، وهيأت له فيه طعامًا!

فلما دخل قام على باب العريشين، فقال:

رسولُ اللَّهِ في الضَّحِّ[1] والرِّيح والحَرّ، وأنا في ظل ظليل، وماء باردٍ، وطعامٍ مُهَيأ، وامرأةٍ حسناءَ في مال مقيم؟!

ما هذا بالنِّصْف[2]!!

ثم قال: لا واللَّهِ لا أدخلُ عريشَ واحدةٍ منكما حتى ألحق برسول اللَّه!

فهيئا لى زادًا، فقعلتا.. ثم قدم ناضحَه[3] فارتحله.

ثم خرج في طلب رسول اللَّه ﷺ حتى أدركه حين نزل «تبوك!».

وكان قد أدركه «عُمَيْرُ بنُ وهب» في الطريق.. فترافقا حتى إذا دنوا من تبوك قال أبو خُيثمة لعُمير:

إنّ لى ذنبًا، فتخلَّفْ عنى حتى آتىَ رسولَ اللَّه ﷺ: ففعل!

وسار أبو خيثمة وحده حتى دنا من رسول اللَّه ﷺ.

فقال رسولُ اللَّه ﷺ: «**كُنْ أبا خيثمة**»فقالوا: هو واللَّه أبو خيثمة.

فأقبل، وسَلّم فقال رسول اللَّه ﷺ: «**أوْلَى لك أبا خيثمة**[4]**!!**».

ثم أخبر رسولَ اللَّه ﷺ الخبر، فقال له خيرا!

وكان ممن قبل الرسول ﷺ عذرَهم!

إنه – وإن لم يسارع فِي الاستجابة – لكنه لم يسمح لإغراء الشيطان أن يحول بينه وبين الاستجابة لأوامر ربنا الرحمن الرحيم!

---

(1) الضح: الشمس. أو ظل ضوئها على الأرض.

(2) النِّصف: الإنصاف والعدل.

(3) ناضحه: جمله.

(4) يقال في التهديد والوعيد: أولى لك. قد وليك، أي: قاربك الشر فاحذر!

لم تَطُل فترةُ الصراع بينَه وبين هوى النفس، فضحى بالدنيا وزينتها في سبيل اللَّه!

ترك الظلّ الظليل.. والماء البارد.. والزوجةَ الحسناء ليلحقَ برسولِ اللَّه ﷺ.

وكان له ما أراد.. فرضيتْ نفسُه، واطمأن قلبُه ونَعِمَ برضوان اللَّه تعالى!

لقد اشترك أبو خيثمة في «أحد».

وها هو ذا يلحَقُ برسول اللَّه ﷺ في «تبوك».

ولحق بربه في عهد يزيد بن معاوية!

«إن الرجوع إلى الحق خير من التمادى في الباطل!!»

فمتى يراجع كل منا نفسه حين تُغريه وتُغويه؟!

إن الشيطانَ لنا بالمرصادِ وقد أمرنا اللَّهُ أن نتعوذ من شَرِّ الوَسَواسِ الخنّاس الذي يُوَسوس في صدور الناس!!

سعيد بن عامر

نَموذجٌ فريدٌ من الفِتيان كان لهم شأنٌ بعد أن أنعم اللَّه عليهم بنعمةِ الإسلام!

إنه لا ينسى أبدا ذلك الجمعَ الحاشدَ من قُريش وقد اقتادوا أحدَ المسلمين بعدما ظَفِروا به غَدْرًا، وأحاطوا به لِيَلْقَى مَصْرَعَه على أيديهم ثأرًا لقتلاهم في «بدر»، وانتقاما من محمد ﷺ في شخصٍ واحدٍ من أتباعه المخلصين.

لم ينس «سعيدُ بنُ عامرٍ» «خُبَيْبَ بنَ عدى» وهم يقدمونه للصَّلْبِ وهو يقول:

إن شئتم أن تتركونى لأركعَ رَكْعتين قبل مَصْرعى فافعلوا..

وينبهرُ سعيدٌ بما يراه من ثَبات «خُبيب» على إيمانِه وحُبّهِ للنبى ﷺ، وتمسُّكه بدين اللَّه!

لقد رأى قومه يقطعون أجزاءً من جَسد خُبَيْب، ويقولون له: أتحبّ أن يكونَ محمدٌ مكانَك وأنت ناجٍ؟!

فيقول والدماء تُنزِفُ من جسده:

«واللَّه ما أحب أن أكون آمنًا وادعًا في أهلى وولدى، وأن محمدا تُصِيبُه شَوكة!!

فيصيحُ كلُّ مَن حَوْلَه من رجالٍ ونساءٍ: اقتلوه.. اقتلوه!

ويرى سعيد هذا المشهدَ الرهيبَ، ويسمع «خُبَيْبًا» وهو يرفع بصره إلى السماء من فوق خشبة الصَّلب ويقول: «اللهم أحصهم عددا، واقتُلْهم بَدَدًا، ولا تُغَادرْ منهم أحدا».

وقد تمزق جَسَدُه من طعنَاتِ السُّيوفِ والرماحِ وهو يلفِظ أنفاسَه!

ويظل هذا المنظرُ عالقا بنفسِ «سعيد بن عامر» يتراءى لعينيه ولا يكاد يُفارقه في يقظَةٍ أو في مَنام!

ويخشى أن يَحِلَّ عليه غضبٌ من اللَّه، أو ينزلَ عليه عِقابٌ.. ويفكر في النجاةِ من غضبِ اللَّه!

ويشرحُ اللَّهُ صدرَه للإسلام، فيقفُ من قومه موقفَ الرافض لما هُم عليه من عبادةِ الاصنام، مُعْلنا إسلامَه، ودخولَه في دينِ اللَّه، وبراءتَه مما يقوم به قومُه من اضطهاد وتعذيب للمسلمين!

ويحملُ عَصَاهُ ويَرْحَلُ من مكةَ إلى المدينةِ ليلحقَ بالنبى ﷺ والذين آمنوا به ونصروه!

ويظل «خُبَيْب» ماثلا لعينيه في تضحيته، وإيمانه، وصبره، فهو حين يدعو الداعى يحمِل رُوحَه على كفِّه ويُقْدِم لعله ينالُ الشهادَة كما نالها خُبَيْبٌ!

ويشهدُ سعيدُ بنُ عامر مع الرسولِ ﷺ «غزوةَ خيبر»، وما بعدها من الغزوات!

ولحق الرسول ﷺ بربِّه وهو عنه راضٍ، وظل «سعيد» على عهدهِ ووعدهِ في عهد صاحبيه: أبى بكر وعمر، فكان مثلا فريدا للمؤمن الصادق الذي يقدم النصيحةَ لعامةِ المسلمين وأمرائِهم.

لقد دخل على الخليفة «عمرَ بنِ الخَطّاب» أولَ عهدِه بالخلافة فقال له:

يا عمرُ، أوصيك أن تخشى اللَّهَ في الناسِ!

ولا تخشَ الناسَ في اللَّه!

وألا يخالفَ قولَك فعلُك؛ فإن خيرَ القولِ ما صدَّقَهُ الفعلُ!

يا عمر:

أقِمْ وجهكَ لِمَن ولَّاك اللَّهُ أمرَه من بَعيدِ المسلمين وقريبهم.

وأحِبَّ لهم ما تُحبُّ لنفسك وأهلِ بيتك!

واكرهْ لهم ما تكرهُ لنفسِك وأهلِ بيتكَ!

وخُض الغَمَرَات[1] إلى الحقِّ ولا تَخَفْ في اللَّهِ لومةَ لائم!

وهنا قال له الخليفة العادل عمر:

ومن يستطيع ذلك يا سَعيدُ؟!

فقال: يستطيعُه رجلٌ مثلُك ممن ولّاهم اللّهُ أمرَ هذه الأمة، وليس بينه وبين اللّه أحدٌ!

وذات يوم فكر عُمَرُ كثيرا فيمن يُوَلِّيه على «حِمْص» بعد عزلِه معاوية!

ولكنه يرد في إباء وتَرفُّع بعد أن عرض عليه الخليفة «ولاية حِمص» قائلا: «لاتفْتِنِّى يا أميرَ المؤمنين».

ولكن الخليفة يحتجُّ عليه بقوله:

ما عسى أن يفعلَ الخليفةُ، وأنَّى له أن يَضْبِطَ مقاليدَ الأمة ما لم يتيسَّرْ لَهُ مساعدونَ بَرَرة خُلْص، أمثالُ سعيد؟!

ويظهر أن سعيدًا اقتنع بوجهةِ نظرِ عمرَ رضى اللَّه عنهما.

وخرج إلى «حِمصَ» ومعه زوجتُه، وبعضُ المال الذي زوّده به الخليفةُ!

ورأى أهلُ «حِمصَ» نموذجًا فريدًا من الولاة لا عهدَ لهم بمثلِه فاطمأن بالُهم وصَلَح حالُهم!

غير أن جماعةً منهم لم يكن يُعْجبُهم منه تقشفُه وزهدهُ في متاعِ الدنيا وزُخرفها ومفاتن الحياة؛ فرفعوا إلى الخليفة شكاية يتذمرون فيها من تصرفاتِ الوالى سعيد!

(1) الغمرات: الشدائد.

وأمام الخليفة تحدث ممثلُهم قائلا:

إننا نشكو من أميرنا ابن عامر أربعَ خِصال:

«لا يخرجُ إلينا حتى يتعالى النهارُ!

ولا يُجيبُ أحدًا بليل.

وله يومان في الشهر لا يخرجُ إلينا فيهما ولا نراه!

ورابعة لا حيلةَ له فيها، ولكنها تضايقنا، وهى أنه تأخذه الغَشْيةُ بينَ الحين والحين!».

كان هذا الادّعاء بمحضر من سعيد، ووجوه الصحابة.. كلهم آذان صاغية لما يقال!

وعندئذ التفت إليه الخليفةُ عمرُ يستفهم من إليهِ عما قيل فيه، ويسألُ اللَّه أن لا يُخَيِّبَ ظنَّه في واليه الذي اختاره ووثق به!، وجاء به بعد معاوية وما كان فيه من مظاهر الترف!

وهنا نطق سعيدٌ بالحقِّ، وكشَف عن سِرِّ هذه المزاعِم قائلا: لقد كنتُ أكرهُ أن أذكرَ السببَ، ولكنْ أجدُنى مضطرًّا إلى الكشف عنه!

أمَّا أنى لا أخرجُ إليهم حتى يتعالى النهارُ، فإن ليسَ لأَهْلِى خادمٌ، فأنا أعجن عجينى، ثم أدَعُه يَخْتَمر، ثم أخْبِزُهُ، ثم أتوضأ للضحى، ثم أخرجُ إليهم!

وأما قولُهم: لا أجيبُ أحدًا بليل.. فواللَّه كنت أكرهُ ذكِرَ السبب.. إنى جعلت النَّهَّارَ لهم، والليلَ لربى!

وأما قولُهم: إن لى يومين في الشهر لا أخرج فيهما، ذلك أنه ليس لى خادم يغسل ثوْبى، وليس لى ثيابٌ أبدّلها، فأنا أغسلُ ثوبى ثم أنتظر حتى يجفّ بعد حين، وفى آخر النهار أخرجُ إليهم.

وأما قولهم: إن الغَشْيَة تأخذنى بين الحين والحين فلذلك بسبب وهو: أنى شَهدتُ مَصْرعَ «خُبَيْب الأنصارى» بمكة، وقد بضَعَتْ[1] قريشٌ لَحْمَه وحملوه على جَذَعَة[2]، وهم يقولون له:

أتحبُّ أن يكون محمدٌ مكانَك وأنت سليم مُعافىّ؟!

فيقول بشدة: لا واللَّه ما أحب أَنّى في أهلى وولدى معى عافية الدنيا ونعيمُها، ويُصاب رسولُ اللّه بشوكة!!

وإنى يا أمير المؤمنين، كلما ذكرت هذا المشهد الذي رأيته وأنا مشرك آنذاك لم أنصُرْ خُبيبًا، أرتجفُ خوفًا من عذابِ اللَّه، وتعترينى الغَشْيَة!

فمَنْ منا تعتريه الغَشْيَةُ حين يذكر ما حَلّ بالمسلمين والمسلمات على مرأى ومسمع منه!

ومن مِنّا يحرصُ على المال العام حين تُسنَد إليه ولايةُ أمرٍ من أمور المسلمين!!

وأين هذا من مظاهر الترف والأُبّهة التى يَحْرِص الوُلاةُ على التمتع بها والعيش فيها؟

لقد تخرج سعيد في مدرسة النبوة، ورأى كيف كان الرسولُ ﷺ يحيا!

وعاصر عمرَ ورأى كيفَ كانَ يبدأُ بنفسه!

لم تَفْتنهُ الدنيا!

ولم يُغيِّرْه المنَصِبُ!

رحم اللَّه سعيدا وأسكنه فسيحَ جنَّاته!

---

(1) بضعت: قطعت.

(2) الجذع من الإبل: ما استكمل أربعة أعوام ودخل في الخامسة.

ضمام بن ثعلبة السعدى ذو العقيصتين

من بنى سَعْدِ بنِ بَكْر.. لم يكن من المهاجرين.. ولم يكن من الأنصار.. ولم يُتَحْ له أن يشهدَ الغزوات مع النبيِّ ﷺ ومع هذا فقد كان له شأنٌ وأىُّ شأنٍ!

لقد وفد على النبيِّ ﷺ سنة تِسع - كما ذكر ابن هشام - مَبْعُوثًا من بنى سعد.. ويقول ابن إسحاق: ما سمعنا بوافدِ قوم قطّ كان أفضل من ضِمام!

وكان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: ما رأيت أحسن مسألةً (سؤالا) ولا أوجز من ضِمام بن ثعلبة!

لقد أرسلت قبيلةُ سعدِ بنِ بَكْرٍ «ضِمامَ بن ثعلبة مُوفدًا إلى رسول اللَّه ﷺ.

فامتطى ضِمامٌ بعيرَه حتى دخل المدينة، فأناخَهُ على باب المسجد، ثم عَقَلَه[1].

ثم دخل المسجد ورسولُ اللَّه ﷺ جالسٌ في أصحابِه.

وكان ضِمامٌ رجلًا جَلْدًا، أشعرَ[2]، ذا غديرتين[3].

فأقبل حتى وقف على رسول اللَّه ﷺ في أصحابه، فقال: أيُّكم ابنُ عبدِ المطّلب؟!

فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**أنا ابنُ عبدِ المطلب**».

قال: أمحمد؟ قال: «**نعم!**»

قال: يابنَ عبدِ المطلب، إنى سائلُك ومغلّظ عليك المسألة[4]، فلا تجدَنَّ[5]، في نفسك!

قال: «**لا أجدُ في نفسى، فسل عما بدا لك**».

---

(1) عقَله: قيده.

(2) كثير الشعر طويل.

(3) غديرتين: عقيصتين.

(4) المسألة: السؤال. وتغليظ السؤال: تشديده وتوكيده.

(5) لا تغضب، أو لا تحزن.

قال: أنشُدُكَ[1] اللَّهَ إلهَك، وإلهَ مَن كان قَبْلَك، وإلهَ من هو كائن بعدَك: آللَّهُ بعثك إلينا رسولا؟!

قال: «**اللَّهُمَّ نعم**».

قال: فأَنشُدْك اللَّهَ إلهَك وإلهَ من كان قبلك وإلهَ من هو كائن بعدك: آللَّهُ أمرك أن تأمَرنا أن نعبدَه وحدَه ولا نُشْرِكْ به شيئًا، وأن نخلعَ هذه الأَنْدادَ[2] التى كان آباؤنا يعبدون معه؟!

قال: «**اللهم نعم**».

ويُرْوَى أنه قال: يا محمدُ، أتانا رسولُك، فزعم لنا أنك تَزْعُم[3] أن اللَّهَ أرسلَك!

قال: صدَق».

قال: فمن خلق السماء؟

قال: «اللَّهُ».

قال: فمنَ خلقَ الأرضَ؟

قال: «اللَّهُ».

قال: فمنَ خلقَ الأرضَ؟

قال: «اللَّهُ».

قال: فمن نصَب[4] هذه الجبالَ، وجعل فيها ما جعل؟

قال: «**اللَّه**».

قال: فبالذى خلق السماءَ وخلق الأرضَ، ونصب هذه الجبالَ: آللَّهُ أرسلَك؟

قال: «**نعم**».

قال ضِمام: وزعم رسولُك أن علينا خمسَ صلوات في يومِنا وليلتنا؟

---

(1) أنشدك اللَّه: أذكرك به.

(2) الأنداد: جمع نِدّ: وهو المثل والنظير.

(3) تأتى زعم بمعنَى ظن كما تأتى بمعنى اعتقد.

(4) نصب الجبال: أقامها.

قال: «**صَدَق**».

قال: فبالذى أرسَلك: آللَّه أمرك بهذا؟!

قال: «**نعم**».

ثم جعل يذكر فرائضَ اللَّهِ وشرائعَه على هذا النحو حتى إذا فرغ قال:

«**فإنى أشهدُ أنْ إله إلا اللَّهُ!**

وأشهدُ أن مُحمدًا رسولُ اللَّه!

وسأؤدى هذا الفرائضَ

وأَجتنب مُا نَهَيْتَنى عنه.

ثم لا أزيدُ ولا أنقُصُ».

وانصرف إلى بعيره راجعا.

فقال رسول اللَّه ﷺ: «**إن صدق ذو العَقيصتَيْنِ**[1] **دخل الجنة**».

فأتى ضِمامٌ بعيرَه، فأطلق عِقالَه، ثم خرج حتى قَدم على قومِه، فاجتمعوا إليه.

قال الحافظ ابن كثير (5/ 61): هذا يدل على أن ضِمامًا رجع إلى قومه قبل الفتح، لأن «العُزَّى» خَرَّبها خالد أيام الفتح.

فكان أول ما تكلم به أن قال: بئست اللاتَ والعُزَّى!

قالوا: مَهْ[2] يا ضِمام!

اتق البَرصَ!

اتق الجُذامَ[3]!

اتق الجُنونَ!

قال: ويلكم إنهما - واللّه- لا يَضُران ولا ينفعان!

---

(1) العقيصتان: خصلتان من الشعر ملفوفتان، ومعقوصتان. ويقال: عقصت المرأة شعرها عقصا: أخذت كل خُصلَةٍ منها فلوتها، ثم عقدتها حتى يبقى فيها التواء، ثم أرسلتها.

(2) أي: اسكت.

(3) البرَص: بياض يظهر في الجسد لعلة. والجُذام: علة تتآكل منها الأعضاء وتتساقط.

إن اللَّهَ قد بعثَ رسولًا، وأنزل عليه كتابًا، استنقذكم به مما كنتم فيه!

وإنى أشهد أن لا إلهَ إلا اللَّهُ وحدَه لا شريكَ له، وأن محمدًا عبدُه ورسولُه، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به، ونهاكم عنه!

قال: فواللَّه ما أمْسَى في الحيِّ من ذلك اليومِ رجلٌ ولا امرأةٌ إلا مسلما»[1].

وكان إسلامُ «ضِمامٍ» خيرا وبركةً على قومِه وأهلِ حَيِّهِ.

هذه رسالة الفرد المسلم، وهذا دورُه..

«**إن العين الواحدة البصيرة تقود ألف أعمى**».

وقد كان ضمام تلك العين الواحدة البصيرة في قومه! فقادهم إلى الهدى والنور!!

وهذا هو الإيمان في بَساطته وسُهولتِه ويُسرِه!

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾[فصلت: 30].

ألا ما أشد حاجتنا إلى القدوة.. في الأسرة.. في الحقل.. في المعمل.. في المصنع.. في الشارع المزدحم بالناس.. فكن أنت القدوَة؛ فإن الجنة تتأهب لاستقبالك!

ومن عرف الطريقَ.. وَصَل!!

---

(1) حديث حسن بهذا التمام رواه أبو داود (1/ 79) والحاكم (3/ 54 – 55). وأحمد (رقم 2370) من حديث ابن عباس وقال الحاكم: صحيح، ووافقه الذهبى، ورواه مسلم (1/ 32) وغيره مختصرا والرواية الأخرى له.

نُعَيْمُ بنُ مسعودٍ الغَطفانِيّ

يذكر التاريخُ دوْرَه ولا ينساه يومَ تحالفَ أعداءُ الإسلام على حِصاره في «المدينة المنورة» والقَضاءِ عليه في مهده!

كان ذلك في السنة الخامسة من هجرة المصطفى ﷺ حين خرج «**جماعة من اليهود**»إلى مكة يثيرون القبائلَ، ويُحَرِّضُون أعداءَ الإسلام على حربِ الرسول ﷺ، ويقولون لهم: إننا سنكون معكم حتى نَسْتَأصِلَه ونقطعَ دابرَه؛ حتى يخلُو الجوُّ لنا ولكم كما كنا!

واطمأنت قريش إلى أن اليهودَ سوف يَضْرِبُون المسلمينَ من تحتهم، حين تَضْربُهم جيوشُ قرش وغطَفانَ، وبنى مُرة، وبنى أشجع من فوقهم، فإذا هم بين «فكَّى كماشة»، فلا يستطيعون خَلاصًا ولا فَكَاكا!

وسمعِ الرسولُ ﷺ بما أجمعوا عليه وتأكّدَ له موقفُ اليهود.. يهودِ المدينة- من المسلمين.

ونقضُهم العهدَ الذي بينَهم وبينَه، وتآمرُهم عليه!

فأخذ يُشاورُ أصحابَه فيما يُمكنُ عملُه لصدِّ هذه الجيوشِ الزاحفةِ على المدينة!

وأشار «**سَلْمانُ الفارسيُّ**» بحفر «خندقٍ» حول المدينة يَحُولَ دونَ تقدمِ فُرسان قريشٍ وحلفائهم.

وصدر الأمرُ بتنفيذِ هذه الفِكرة على الفَوْرِ في ظروفٍ شديدةٍ قاسيةٍ على المسلمين!

وأشرف الرسولُ ﷺ على الحَفْر، ففى البخاريِّ عن سهلِ بنِ سعدٍ قال: كنا مع رسول اللَّه ﷺ في الخَندقِ وهم يحفِرون، ونحن ننقلُ التراب على أكتافنَا، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**اللهم لا عيشَ إلا عيشُ الآخرة فاغفِر للأنصار والمهاجِره**».

فقالوا مجيبين له:

نَـحْـنُ الـذيـن بـايـعـوا محمدًا عـلى الجـهـاد مـا بقينا أبـدَا

وبدأ «العدُّ التنازلى» للحفر حَسَبَ «الخُطة الموضوعة» قبل أن يصلَ جيش الأحزاب الذي بلغ عدده عَشَرةَ آلافِ مقاتل!

أما المسلمون فلم يكن عدَدُهم يزيد على ثلاثةِ آلاف!

وفي تلك اللحظاتِ كان «نُعَيْمُ بنُ مَسْعود» ما يزال وثيقَ الصلة بيهودِ المدينة حيث كان يتردد عليهم بين الحين والحين فيجد مُتْعَته عندهم!

وكثيرا ما تَوَجَّه من «نجد» إلى «يثربَ» فيلْقَى ترحيبًا لما يبذله من أموالٍ من أجل مُتْعَتِه!، فأصبح له صداقاتٌ مع يهود!

ووجد نفسَه مدفُوعا إلى الانضمام لأعداء الإسلام وخصومه! وإذا هو يحمل السلاحَ مع جيش «غطَفان» الذي تحرك من نجد!

ولكن بين غمضة عَيْنٍ وانتباهتِها يُغيرُ الله من حالٍ إلى حالِ!

ففجأةً وجد «**نُعيم بن مسعود**» نفسه تُؤَنبه وتوبخه قائلة له: ويْحَك[1] يانُعَيمُ!

أين عقُلك؟ أتأتى من «نَجْد» تحمل السلاح في وجهِ «رجل[2] صالح» يأمر بالعدل وهو على صراطٍ مستقيم؟!

وما الذي يدفعك إلى أن تَشْهَرَ السلاحَ في وجه أصحابٍ له اتبعوا هُدَاهُ وآمنوا باللَّه؟!

ولم يلبث هذا الصراعُ طويلًا بين نُعيم بن مسعود ونفسه، فقد تسلل من معسكر قومِه في نجد بنى غطفان.. وأسرع الخطا.. وإذا هو بين يدى رسول اللَّه ﷺ !!

وسيطرت الدهشة على الموقف!

(1) ويحْك: كلمة ترحم وتوجُّع. وقيل: هي بمعنى ويْل.

(2) يعنى رسول اللَّه ﷺ.

- ما الذي جاء بك يا نُعَيْم في هذه الساعة من الليل؟!

جئت لأشهدَ أن لا إله إلا اللَّهُ وأنَ محمدًا رسولُ اللَّه! وأن ما جئتَ به حق.

وسكت قليلا ثم قال: إن قومى لم يعلموا بإسلامى، فمُرْنى بما شئت!

فقال عليه الصلاة والسلام: «**إنما أنت فينا رجلٌ واحدٌ.. فاذهب إلى قومِك وخذِّلْ عنا إن استطعت، فإن الحربَ خُدْعة!**».

فقال: نَعَمْ يا رسولَ اللَّه.. وسترى ما يَسُرُّك إن شاءَ اللَّهُ!

تُرى ماذا فعل نُعيم وهو فرد أمام عشرة آلاف جاءوا لسحق المسلمين والقضاء عليهم؟

سوف نرى!

يقول الإمام الذهبى في تاريخ الإسلام: فأتى «قريظةَ» وكان نديمًا[1] لهم في الجاهلية، فقال لهم: قد عرفتم وُدّى إياكم.. قالوا: صدقت!

قال: إن قريشًا وغطَفَان ليسوا كأنتم.. البلَدُ بلدُكم به أموالُكم وأولادُكم ونساؤكم، لا تقدرون على أن تتحولوا عنه إلى غيره!

وإن قريشًا وغطَفان قد جاءوا لحربِ محمدٍ وأصحابه، وقد ظاهرتموهم[2] عليه، وبلدُهم وأموالهم ونساؤهم بغيره، فليسوا كأنتم.

فإن رأوا نُهزَةً[3] أصابوها!

وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخَلَّوْا بينكم وبين الرجلِ ببلدِكم.

فلا طاقة لكم به إن خلا بكم!

---

(1) يجالسهم على الشراب ليلا.

(2) ظاهرتموهم عليه: عاونتموهم.

(3) نهزة: كفرصة وزنًا ومعنى.

فلا تُقاتِلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رُهُنًا[1] من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقةً لكم على أن يقاتلوا معكم محمدًا حتى تناجزوه[2]!

فقالوا: لقد أشرت بالرأى!

ثم خرج حتى أتى قريشا فقال لأبى سُفْيانَ ومَنْ مَعَهُ: قد عرفتم وُدّى لكم وفِراقى محمدًا!

وإنه قد بلغنى أمرٌ قد رأيتُ علىّ حَقًّا أن أُبَلِّغكُمُوه نُصْحًا لكم فاكتموه علىّ.

قالوا: نفعلُ.

قال: تعلمون أن «مَعشرَ يهود» قد ندِموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، وأرسلوا إليه أنا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يُرْضِيكَ أن نأخذَ لك من القبيلتين: قريش وغطَفَان، رجالا من أشرافهم، فنعطيكهم فتضرِبَ أعناقَهم، ثم نكونَ معك على من بقى منهم حتى نستأصلَهم[3]، فأرسل إليهم: نعم.

فإن بَعَثَتْ إليكم يهودُ يلتمسون رُهُنًا منكم من رجالكم فلا تفعلوا.

ثم خرج فأتى غطفان، فقال: يامعشرَ غطَفَانَ، أنتم أصلى وعشيرتى، وأحبُّ الناسِ إلىَّ، ولا أراكم تتهمونى.

قالوا: صدقتَ، ما أنت عندنا بمتَّهمٍ!

قال: فاكتموا عنى.

قالوا: نفعلُ.

ثم قال لهم مثل ما قال لقريش، وحذّرهم ما حَذّرهم!

---

(1) جمع رهن.

(2) تناجزوه: تقاتلوه وتنازلوه.

(3) نقضى عليهم.

فلما كانت ليلُه السبت من شوال. وكان من صنع اللَّهِ لرسولهِ أنه أرسل أبو سفيان. ورءوسُ غطفان إلى «بنى قُرَيْظَةَ» «عِكرمةَ بن أبى جهل» في نفرٍ من قريش وغَطَفَان، فقالوا: إنا لسنا بدار مُقام، قد هلك الخُفُّ والحافر[1]، فاغدوا للقتال حتى نناجزَ محمدًا.. فأرسلوا إليهم أن اليومَ يومُ السبت، وهو يوم لا نعملُ فيه شيئا.

وقد كان بعضُنا أحدَثَ فيه حدثا فأصابه به ما لم يَخْفَ عليكم.. ولسنا مع ذلك بالذين نقاتلُ محمدًا حتى تُعطونا رُهُنا من رجالكم يكونون بأيدينا ثقةً لنا، فإنا نخشى إن ضَرَّسَتْكُمُ الحربُ[2] أن تَنْشَمِرُوا[3] إلى بلادكم وتتركونا، والرجلُ في بلادنا ولا طاقةَ لنا بذلك!

فلما رجعت إليهم الرُّسُلُ بما قالت « بنو قريظة» قالت قريش وغطفان: واللَّه لقد حدثكم «نُعَيْمُ بنُ مسعودٍ» بحق، فأرسلوا إلى بنى قريظة: إنا واللَّه ما ندفع إليكم رجلا من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا!!

فقال «بنو قريظة» حين انتهت إليهم الرُّسُلُ بهذا: إن الذي ذكر لكم نُعيم لَحَقٌّ، ما يريدُ القوم إلا أن يُقاتلوا، فإن رأوا فرصة انتهزوها، وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم، فأرسلوا إلى قريش وغطفانَ: إنا - واللَّه - لا نقاتلُ معكم حتى تعطونا رُهُنًا، فأبوا عليهم، وخذّل اللَّهُ بينَهم!

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا﴾ [الأحزاب: 25].

أرأيت ماذا فعل نعيم الذي ساقَهُ اللَّه في اللحظات الحاسمة؟

(1) هلكت وسائل الانتقال، ونناجزه: نقاتله.

(2) عضَّتكم بنابها.

(3) تنشمروا: تعودوا.

يستطيع الفردُ أن يفعل الكثير في السِّلم والحَرْبِ.. أليست الحرب خُدْعَة.

لقد قال أهل التجربة:

إن عينًا واحدة بصيرة تقود ألف أعمى!

وظل «نُعيم» موضع التقدير من الرسول وصحابته على ما قام به في لحظة حاسِمَةٍ من حياتهم..

لقد نجح نُعيم بنُ مسعود وهو فرد في إيقاعِ الفُرقةِ بينهم، وتمزيق صفوفِهم وتفريقِ كلمتِهم وكانت عنايةُ اللَّهِ لنبيه وصحبه بالمِرصاد، فأرسلَ على قريش والأحزابِ ريحا عاتية اقتلعت خِيامَهم، وقلَبت قُدُورَهم، وأطفأت نيرانَهم.. ولطَمت وجوهَهم، وملأت عيونَهم زَمْلَا!

فنادى مناديهم: الرحيلَ يا قوم!

لم يعد لنا وجودٌ ها هنا!

ونظر المسلمون فإذا أعداؤهم قد ولّوْا هاربين.

وظل نُعيم موضعَ التقديرِ والاحترامِ يقوم بما كلّفَه الرسولُ خيرَ قيام حتى كان يومُ الفتح فإذا هو يحمل رايةَ غَطَفَان.. وإذا أهلُ مكة ينظرون إليه، ويقول قائلهم:

بئس ما صنَع بنا يومَ الخندق!

لقد كان من «أشد أعداء الإسلام، فإذا به يسبقنا إليه!

وصدق الشاعر:

ما بين طرفة عين وانتباهتها يُغَيِّرُ اللَّهُ من حالٍ إلى حالِ

ولا عجب...

فإذا حلَّت الهدايُة قلبًا نَشَطَتْ للعبادة الأعضاءُ

فلا تقل: إنى فرد! وماذا أستطيع أن أفعلَ وحدى؟!

كعب بن مالك

إنّه الصحابيُّ الذي نجَّاه صدقه!!

هو أبو عبد اللَّه الأنصارى السَّلمِىّ.

كانت كُنْيته في الجاهلية «أبا بشير».

فكَنّاهُ الرسول ﷺ «أبا عبدِ اللَّه».

ولم يكنْ لمالكٍ ولدٌ غيرُ كعبٍ الشاعر المشهور!

وحين نُقلِّب صفحات جهاده نجد أنه شهد العقبةَ وبايعَ بها!

وتخلف عن بَدْرٍ، وشَهدَ أُحُدًا وما بعدها ولكنه تخلف عن «تبوكَ»، وكانت له قصةٌ رواها البُخاريُّ ومُسلمٌ يحكى فيها ما حدث من تخلفه، وموقف الرسول والصحابةِ منه.

وكيف تاب اللَّه عليه!!

وكعبُ بنُ مالك ذلك الشاعر الذي يقول ابن سيرين عن شعره:

قال كعبُ بنُ مالك بيتين كانا سبب إسلام «دَوْس» وهما:

قضَيْنَا مِن تهامةَ كُلَّ وِتْرٍ ... وخيبرَ ثم أغْمَدنا السيوفا

تُخَبِّرُنَا ولو نطقت لقالت ... قواطِعُهُنّ: دَوْسًا أو ثقيفا

فلما بلغ ذلك قبيلة دوس قالوا: خذوا لأنفسكم، لا ينزلْ بكم ما نَزَل بثقيف!

وكانت أهمُّ صفةٍ في كعب الصدقَ.. الصدق مع نفسه.. والصدق مع ربه.. والصدق مع رسول اللَّه ﷺ... والصدق مع الصحابة أجمعين!

ولقد نَجَّاهُ الصدقُ مع تعرُّضِه لتجربة قاسية على نفسِه، لكنه صبر وتحمل، ومرت التجربةُ بنجاح ونزل في شأنه قرآن يبرئ ساحته ويشهد له بَالصدق!

ويحكى لنا كعبٌ تجربتَه فيقول كما جاء في كتب السيرة: في رجب من السنة التاسعةِ وفي شدةِ الحَرِّ حيثُ كان الناسُ في شدة الجَدْبِ، ينتظرون الثمارَ التى طالت، ويُحبون المقام[1] في ثمارِهم لا يبرحونها حتى يتمَّ لهم جَنْيُها!

في هذه الشدةِ أعلن الرسولُ ﷺ أنه يريدُ الرومَ الذين يُهَدِّدُون حدودَ الدولة الإسلامية وتمتدُّ أيديهم بالعُدوَان على المسلمين.

ولأولِ مَرّةٍ يكشفُ الرسولُ ﷺ عن وجهَتِه في هذه الغزوة حيث قال: «**أيها الناس إنى أريدُ الرومَ!**»

وأخذ الرسولُ ﷺ يدعو أصحابَه إلى البَذْل والتضحية.

• فمنهم من سيتجيبُ، ومنهم من يَعتذرُ بأعذار واهية فيقول له الجَدّ ابن قيس حين دعاه إلى الخروج معه: أنا شديدُ الإعجاب بالنساء، وأخشى إن رأيتُ نساءَ بنى الأصفر (الروم) أن أُفْتَنَ! فائذن لى يارسول اللَّه! فيعُرضُ عنه النبى ﷺ ويقولُ له: قد أَذِنْتُ لك!

فينزلُ قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾ [التوبة: 49].

• ويقول رجل من المنافقين:

﴿لَا تَنفِرُوا۟ فِي ٱلْحَرِّ﴾ [التوبة: 81].

فينزل قولُ اللَّهِ: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ [التوبة: 81].

• ومنهم من ذهبوا إلى الرسول ﷺ وقد أعلنوا استعدادَهم للذهاب معه، ولكنهم طلبوا منه أن يُوَفِّرَ لهم وسيلة الانتقال فقال لهم: ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ وعند ذلك ﴿تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: 92] وهؤلاءِ هم البَكّاءُون، وكانوا سبعة من الأنصار، وكانوا أهلَ حاجة!

(1) الإقامة، وعدم الرحيل والسفر.

وكان أحدُهم «علبةَ بنَ زَيْدٍ» فخرج من الليل فصلى من ليلته ما شاء اللَّه، ثم بَكى وقال:

اللهمَّ إنك قد أمرتَ بالجِهاد، ورغَّبْتَ فيه، ثم لم تَجْعَلْ عِندى ما أَتَقَوَّى به!

ولم تجعل في يد رسولِك ما يَحْمِلُنى عليه!

وإنى أتصدقُ على كُلِّ مُسْلِمٍ بكل مَظْلَمةٍ أصابنى بها في مالٍ، أو جَسَد، أو عِرضٍ!

ثم أصبح مع الناس، فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ:

«أين المتصدق في هذه الليلة؟»

ثم قال: أين المتصدق؟ فلْيَقُمْ!».

فقام إليه فأخبره.

فقال رسول اللَّه ﷺ **«أبشر، فوالذى نفس محمد بيده لقد كُتِبَتْ في الزكاةِ المتقبَّلة»**[1].

وبقى كعب ورفيقاه!

وهم الثلاثة الذين تخلفوا ولم يكن لهم عذر!

ولم يعتذروا!

ويقول كعب: لم أتخلف عن رسول اللَّه ﷺ في غزوة قَطُّ غزاها إلا في غزوة «تبوك».

غير أَنى تخلفتُ في «غزوة بدر».

ولم يعاتبِ اللَّهُ أحدًا تخلّفَ عنها!

إنما خرج الرسول ﷺ يريد عِيرَ[2] قريشٍ حتى جمعَ اللَّهُ بينهم وبين عدوهم على غير ميعادٍ.

(1) تاريخ الإسلام للذهبى المجلد الأول – المغازى.

(2) القوم الذين معهم أحمال الطعام والمئونة.

ولقد شهدتُ مع رسولِ اللَّه ﷺ «ليلةَ العقبةِ» وما أُحِبّ أنَّ لى بها «مَشهدَ[1] بدر»، وإن كانت بدر، يعنى أذكرَ[2] في الناس منها!

كان من خَبَرِى حين تخلّفتُ عن رسول اللَّه ﷺ أنى لم أكن قطّ أقْوَى، ولا أيسرَ منّى حين تخلّفْتُ عنه في تلك الغزوة!

واللَّه ما اجتمعتْ عِندى قبلَها راحلتان حتى جَمَعَتْهُمَا تلك الغزوة!

ولم يكن رسولُ اللَّه ﷺ يريدُ غزوةً إلا ورّى[3] بغيرها!

حتى كانت تلكَ الغزوةُ غَزَاها في حرّ شديد، واستقبل سفرًا بعيدا، ومفازًا[4] وعدوا كثيرًا، فجلّى [5] للمسلمين أمرَهم، ليتأهَّبُوا أُهْبَة عدوِّهم، وأخبرهم بوجهِه الذي يُريد.

والمسلمون مع رسول اللَّه ﷺ كثيرٌ، لا يجمعهم كتاب حافظ - يريد الديوان[6].

قال كعب: فما رجل يريد أن يتغيبَ إلا ظن أنه سيخفى له، ما لم ينزل فيه وحى.

وغزا رسولُ اللَّهِ ﷺ الغزوة حين طابتِ الثمارُ والظلالُ فأنا إليها أصْعَرُ (أميل).

فتجهز والمسلمون معه!

وطفقتُ أغدو لكى أتجهزَ معهم، ولم أقض شيئا، وأقول في نفسى: أنا قادر على ذلك إذا أردتُه، فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى أسرعوا، وتفارط[7] الغزو وهَمَمْت أن أرتحلَ فأدركَهم، وليتنى فعلتُ، فلم يُقَدَّر لى ذلك!!

---

(1) شهودها وحضورها.

(2) أكثر ذكرا وشهرة.

(3) أرادها وأظهر غيرها.

(4) صحارى.

(5) كشف لهم جهة سفره.

(6) ليس هناك سجل بأسمائهم يعرف من حضر ومن غاب.

(7) سبقوا وتسارعوا.

فكنت إذا خرجتُ في الناس أحزننى أننى لا أرى إلا رجلًا مغموصا[1] من النفاق.. أو رجلا ممن عَذَرَ اللَّهُ من الضُّعَفاءِ. فلم يَذْكُرنى رسولُ اللَّهِ ﷺ حتى بلغَ «تبوك».

قال وهو جالس في القوم: ما فعل «**كعبُ بنُ مالك**»؟

فقال رجل من بنى سَلِمة:

يا رسولَ اللَّه، حبسه بُردَاهُ، والنظر في عِطفَيْه[2]!

فقال له معاذ بن جبل: بئس ما قلت!، واللَّه يارسول اللَّه، ما علمنا عليه إلا خيرا!

كيف الخروج من سخط رسول الله ﷺ؟

فلما بلغنى أن رسول اللّه ﷺ قد توجّه قافِلًا من تبوك حضرنى هَمِّى، فطَفِقْتُ أتذكر الكذب، وأقول:

بماذا أخرج من سَخَطِه غدا؟!

وأستعين على ذلك بكل ذى رأْى من أهلى، فلما قيل: إن الرسول ﷺ قد أطل قادما[3] زاح عنِّى الباطلُ، وعرفت أنى لا أخرج منه أبدا بشيء فيه كذب، فأجْمَعْتُ[4] صِدْقَه.

وأصبح قادما، وكان إذا قدم من سفر بالمسجد صَلّى فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاء المُخَلَّفون، فطفِقوا يعتذرون إليه، ويَحلفِون له، وكانوا بضعةً وثمانين رجلا، فقبل منهم رسولُ اللَّه ﷺ علانيتهم، وبايَعهم، واستغفر لهم، ووكَل سَرَائرَهم إلى اللَّه.

(1) محقرا مصغرا.

(2) إعجابه بنفسه.

(3) دنا. وأطل: أشرف.

(4) أجمعت صدقه: عزمت وقررت.

فجئته، فلما سلمتُ عليه، تبسَّمَ تبسُّمَ المُغْضَبِ، ثم قال: **تعال**، فجئت أمشى حتى جلستُ بين يديه!

فقال: **ما خلَفك؟ ألم تكن قد ابتعْتَ[1] ظهرَك؟!**

فقلت: بلى يا رسول اللَّه!

إنى - واللَّه - لو جلستُ عندَ غيرِك من أهل الدنيا لرأيت أنى أخرج من سَخَطِه بِعُذْر!

ولقد أُعطيتُ جدَلًا، ولكن - واللَّهِ- لقد علمتُ لئن حدثتُك اليوم حديثًا كاذبًا تَرْضَى به عَنّى ليُوشِكَنَّ اللَّهُ أن يَسْخَطَ عَلَىَّ!

ولئن حدثتُك حديثَ صِدقٍ تجد عَلَىّ[2] فيه، إنى لأرجو عفوَ اللَّه!

واللَّه ما كان لى من عذْر، وواللَّه ما كنتُ قطُّ أقوى ولا أيسرَ مِنّى حين تخلفتُ عَنْك.

قال رسول اللَّه ﷺ: «**أما هذا فقد صدقَ!**

قم حتى يَقْضِىَ اللَّه فيك».

أهله يؤنبونه!

فقمتُ، وثار رجالٌ من بنى سَلِمة، فقالوا: واللَّه ما عَلِمْنَاك كنت أذنبتَ ذنبًا قبلَ هذا!

أَعَجَزْت أن لا تكون اعتذرتَ إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ بما اعتذرَ إليه المخلَّفُونَ؟!

قد كان كافيك لذنبك استغفارُ رسولِ اللَّهِ ﷺ لك، فواللَّه مازالوا يؤنبوننى حتى أردتُ أن أرجعَ فأُكَذِّبَ نفسى!

ثم قلت: هل لقى هذا معى أحد؟!

قالوا: نعم رجلان قالا مثل ما قلت. وقيل لهما: مثلُ ما قيل لك.

فقلت: من هما؟

---

(1) ابتعت ظهرك: اشتريت ما تركبه.

(2) تجد علىّ: تغضب.

فقالوا: «مُرارة بن الربيع العَمْرى»، و «هلال بن أمية الواقفى».

فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدا بدرا، فيهما أُسْوَةٌ، فمضيْتُ حين ذكروهما لى.

ونهى رسولُ اللَّهِ ﷺ عن كَلامِنا - أيها الثلاثة- من بين من تخلّف عنه، واجتنَبَنَا الناسُ، تغيروا لَنَا، حتى تنكرتْ في نفسِى الأرْضُ، فما هى التى أعرفُ!

فلبثنا على ذلك خمسين ليلةً!

فأما صاحباى فاستكانا وقعدا في بيتهما!

وأما أنا فكنت أشبَّ القوم[1] وأجلدَهم!

فكنت أخرجُ فأشهدُ الصلاةَ مع المسلمين، وأطُوف في الأسواقِ، ولا يُكلِّمُنى أحد.

وآتِى رسولَ اللَّه ﷺ وهو في مَجْلسِه بعد الصلاة فأسلم عليه، فأقول في نفسى: هل حرّك شَفَتَيْه برَدّ السَّلَام علىّ أم لا؟

ثم أصلّى فأُسَارِقَه[2] النظرَ، فإذا أقبلتُ على صلاتى نظرَ إلىّ!

فإذا التفتّ نحوه أَعْرَضَ عَنِّى!

حتى إذا طال علىّ ذلك من جَفْوةِ المسلمين تَسَوَّرْتُ جدارَ حائطِ «أبى قتادة»، وهو ابن عمى، وأحبُّ الناس إلىّ، فسلّمت عليه، فواللَّه ما ردّ!

فقلت: يا أبا قتادة، أَنْشُدُك[3] اللَّه هل تعلم أنى أُحِبُّ اللَّهَ ورسوله؟

قال: فسكت، فعُدت له، فسكت.

فناشدته الثالثة، فقال: اللَّهُ ورسولُه أعلم!

ففاضت عيناى، وتوليتُ حتى تسورتُ الجِدار!

---

(1) كنت في شبابى، وكنت قادرا على التحمل.

(2) أطلب غفلة لأنظر إليه.

(3) أسألك باللَّه مقسما عليك به.

ابتلاء جديد

قال: فبينا أنا أمشى بسوق المدينة، إذا نَبَطِيٌّ[1] من أنباط الشام مِمَّن قَدِم بالطعام يبيعُه بالمدينة يقول: مَن يدلُّ على «كعب بن مالك»؟

فطفِق الناسُ يُشيرون له إلىّ حتى إذا جاءنى دفع إلىّ كتابًا من مَلِكِ غَسّانَ، وكنت كاتبا؛ فإذا فيه:

أما بعد، فقد بلغنى أن صاحبَك قد جَفَاك ولم يجعلك بدارِ هوانٍ ولا مَضْيَعةٍ! فالْحَقْ بنا نُوَاسِكَ!

فقلت: وهذا أيضا من البَلاء، فتيمَّمت به التَّنُّور فسجرته[2] به!

حتى إذا مضى لنا أربعون ليلةً من الخمسين إذا رسولُ رسولِ اللَّهِ ﷺ فقال: إن رسولَ اللَّهِ يأمُرك أن تعتزلَ امرأتَك!

فقلت: أُطَلِّقُها أم ماذا أفعلُ بها؟

فقال: لا، بل فاعتزلها، فلا تقربَنَّها!

وأرسلَ إلى صاحبيَّ بمثل ذلك!

فقلتُ لامرأتى: اِلْحَقِى بأهلِك فكونى عِندَهم حتى يقضىَ اللَّهُ هذا الأمرَ.

قال كعب: فجاءت امرأةُ هلال رسولَ اللَّهِ ﷺ فقالت: إن هلالًا شيْخٌ ضائع ليس له خَادِم، فهل تكْرَهُ أن أخدُمَه؟!

فقال: **لا، ولكن لا يَقرَبَنَّكِ!**

قالت: إنه – واللَّه– ما به حركة إلى شيء، واللَّه مازال يبكى مُنذُ كانَ من أمرِه ما كان إلى يومى هذا!

فقال لى بعضُ أهلى:

لو استأذنتَ رسولَ اللَّهِ ﷺ في امرأتِك؟!

---

(1) الأنباط: شعب سامى كانت لهم دولة في شمالى شبه الجزيرة العربية.

(2) تيممت: قصدت، التنور: موقد النار. فسجرته: ألقيت به في النار.

فقلت: لا واللَّه، وما يُدرينى ما يقولُ لِى رسولُ اللَّه ﷺ إن استأذنتُه فيها وأنا رجلٌ شابٌّ؟!

فلَبِثْتُ بعد ذلك عَشْرَ ليالٍ حتى كَمُلت لنا خمسون ليلة!

النُشرى!

فلَمّا أَنْ صليتُ الفجرَ صُبحَ خمسين ليلة، وأنا على ظهرِ بيتٍ من بيوتنا، فبينا أنا جالسٌ على الحال التى ذكرَ اللَّه منا، قد ضاقت علىَّ نفسى، وضاقت علىّ الأرضُ بما رحُبَتْ، سمعتُ صوتَ صارخٍ أوْفَى علَى جَبَلِ[1] سَلْعٍ:

يا كعبَ بنَ مالكٍ، أبْشِرْ، فخرَرْتُ ساجدا، وعرفتُ أن جاء الفرج!

وآذن[2] رسولُ اللَّه ﷺ بتوبة اللَّهِ علينا حين صلى صلاةَ الفجر، فذهب الناسُ يُبَشّروننا، وذهب قِبَلَ[3] صاحبِىّ مبشرون!

وركض رجلٌ إلىّ فرسًا!

وسعى ساع مِن أسْلَمَ فأوفى على الجبل، وكان الصوتُ أسرعَ إلَّىّ من فرسًا!

فلما جاء الذي سمعتُ صوتَه يُبَشّرنى، نزعتُ ثوبىّ وكسوتُهما إياه بِبِشْرَاهُ!

واللَّه ما أملكُ غيرَهما يؤمئذٍ، واستعرتُ ثوبين، فَلبْستُهما، وانطلقتُ إلى رسولِ اللَّه ﷺ، فتلقَّانى الناسُ فَوْجا فوجًا يهنئوننى بالتوبةِ، يقولون:

لِيَهْنِكَ[4] توبةُ اللَّهِ عليك! حتى دخلتُ المسجد، فقام إلىّ «طلحةُ بنُ عبيد اللَّه» يُهرول حتى صافحنى وهنأنى!

واللَّهِ ما قام إلىّ رجلٌ من المهاجرين غيرُه، ولا أنساها لطلحةَ!

وقال رسول اللّهَ ﷺ: وهو يَبْرُقُ وَجْهُهُ بالسرورِ:

---

(1) أوفى على جبل سَلْع: أشرف عليه.

(2) آذن: أعلم.

(3) قِبَلَهم: نحوهم.

(4) ليهنك: هنيئا لك.

«**أَبْشِرْ بخيرِ يوم مَرَّ عليك منذ ولدَتك أُمُّك**».

قلتُ: أمِن عِندكَ يا رسولَ، أمْ مِن عندِ اللَّه؟

قال: **لا، بل من عِندِ اللَّه!**

وكان رسولُ اللَّهِ ﷺ إذا بُشّرَ بِبِشَارَةٍ يبرُقُ وجهُه كأنه قطعةُ قمرٍ، وكنا نعرفُ ذلك منه!

فلما جلستُ بين يديه قلت: يا رسولَ اللَّه، إنَّ مِنْ توبتى أن أَنْخَلِعَ من مالى صدقةً إلى اللَّهِ وإلى الرسول.

قال: **أَمْسِك بعضَ مالك، فَهُوَ خَيْرٌ لك!**

فقلت: فإنى أُمْسِكُ سَهمِى الذي بخيبَرَ.

وقلت: يا رسولَ اللَّه، **إن اللَّهَ إنما نجانى بالصدق، وإن من توبتى أن لا أحدثَ إلا صدقًا ما بقيتُ**، فواللَّهِ ما أعلمُ أحدًا من المسلمين ابتلاه اللَّهُ في صدق الحديث أحسن مما ابتلانى، ما تعمدت مُنذْ ذكرتُ ذلك لرسول اللَّه ﷺ كذبا، وإنى لأرجو أن يحفظَنى اللَّهُ فيما بَقِىَ.

وأنزل اللَّهُ تعالى على رسوله ﷺ:

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: 117 – 119].

فواللَّهِ ما أنعمَ اللَّهُ علىّ من نعمةٍ – بعد أن هدانى للإسلام – أعظمَ في نفسى من صدقى رسولَ الله ﷺ يومئذٍ أن لا أكون كذبتُه، فأهلِكَ كما هَلَكَ الذين كذَبُوه، حين نزل الوحى شرَّ ما قال لأحد فقال: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا

ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾

[التوبة : 95، 96]

قال كعب:

وكنا خُلِّفْنَا - أيها الثلاثة - عن أمر أولئك الذين قَبلَ منهم رسولُ اللَّه ﷺ حين حَلفوا له، وأرجأ أمرنا، حتى قضى اللَّهُ فيه!؛ فبذلك قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة: 118].

وليس الذى ذكر اللَّهُ تخلُّفَنا عن الغزو، وإنما هو تخليفُه إيَّانا، وإرجاؤه أمرَنا عمن تخلف واعتذر، فقبل منه رسول اللَّه ﷺ (متفق عليه).

أرأيت يابنى كيف نجّاه الصدقُ؟

وماذا كان مصيرُ الكاذبين؟!

وكيف تعرض للابتلاء خلال خمسين يوما فصبر وتخطى كل الصعاب؟!

حقا إن الصبرَ مِفتاحُ الفرَج!!

حاطب بن أبى بلتعة

نزل فيه قولُ اللَّهِ تعالى في سورة الممتحنة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [الممتحنة: 1].

فمَنْ ذلك العدو الذي اتخذه «الصحابىّ خَاطب بن أبى بلتعة» وليًّا له؟

ولماذا قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للرسول ﷺ: «**دعنى أضرب عُنَقَه**» ؟ وبم اعتذر حاطب؟

ولماذا قبل الرسولُ ﷺ عُذرَه مع فداحة الذنب؟

وأى المهام الجِسام قام بها مبعوثا من الرسول ﷺ بعد ذلك؟

لقد كان حاطبٌ أحدَ فُرسان قريش في الجاهلية وشعرائها، واتفق الجميعُ على أنه شَهِد بَدْرًا، وقام بَدوْرِه خيرَ قيام حتى تحقق النصرُ!

ويقول الرسول ﷺ فيمن شهد بدر: «**وما يدريكم أن اللَّهَ غفر لهم جميعا؟**»!!

ولقد شهد حاطبُ بنُ أبى بَلتَعةَ مع الرسول ﷺ غزواتِه التى سبقت فتحَ مكةَ، فكان نعم المحاربُ المدافعُ عن دينِ اللَّهِ!

فماذا دهاه؟!

بينما كان الرسولُ ﷺ يتهيأُ لفتح مكةَ ويبالغُ في إخفاء الخبر عن قريش حتى تفاجأ بجيوش المسلمين تُحاصِرُ مكَّةَ فيكونُ التسليمُ، وكفى اللَّهُ المؤمنين القتالَ!

بينما كان الإعداد يتم في سِرِّيَّةٍ تامَّة إذا «بحَاطبِ بن أبى بلتعةَ» يكتبُ «كتابًا» لقريش يُخْبرهُم فيه بمسير الرسول ﷺ إليهم، وأعطاهُ «امرأةً» وجعل لها مكافأةً إن هى أبلغت الكتابَ إليهم!

وأخفت المرأة الرسالة بين جَدائِل شَعْرِهَا وضَفَائِرها.

ونزل جبريلُ على النبيِّ ﷺ فأخبَره بما صنع حاطِبٌ.

وعلى الفَوْر بعثَ الرسولُ ﷺ عليًّا والمِقدادَ، فانطلقا وراء المرأةِ وهما يُسابقان الريحَ حتى يَلْحَقَا بها قبل أن تُبَلِّغَ الرسالة!

وحدد لهما الرسولُ ﷺ مكانَ المرأة على الطريقِ كما أخبره جبريلُ عليه السلام.

وكانت المفاجأة!

فطلبا إليها أن تنزلَ من فوقِ راحلتها[1]. وقالا لها: معك كتاب؟!

فقالت: ما معى كتاب.

ففتشا رَحْلها[2] فلم يجدا شيئا.

فقال لها علىّ: أحلف باللَّهِ ما كذَبَ رسولُ اللَّهِ ﷺ ولا كَذَبْنَا.

واللَّهِ لتُخْرِجنَّ الكتابَ، أو لَنُجرّدَنَّكِ![3].

فلَمّا رأت الجدّ منه قالت: أَعْرِضْ، فأعرضَ. فحلّت قُرونَ[4] رأسِها فاستخرجت الكتابَ منه، فدفعته إليهما.

فأتيا به رِسولَ اللَّه ﷺ، فإذا فيه: «من حاطبِ ابنِ أبى بَلْتَعةَ إلى قريش».

يخبرهم بمسيرِ رَسولِ اللَّهِ ﷺ.

(1) راحلتها: ناقتها.

(2) رحلها: ما يوضع على ظهر البعير للركوب.

(3) لنجردنك: لنزيلن ما عليك من ثياب حتى نعثر على الكتاب.

(4) قرون رأسها: ضفائرها.

فدعا رسولُ اللَّهِ ﷺ حاطبًا فقال: «**ما هذا يا حاطب؟!**».

فقال: لا تعَجلْ عليّ يا رسولَ اللَّه!، واللَّه إنى لمؤمن باللّهِ ورسوله، وما ارتدَدْتُ ولا بدَّلْتُ، ولكنى كنتُ امرَأً مُلْصَقًا[1] في قريش، لست من أَنْفُسِهم، ولى فيهم أهلٌ وعشيرةٌ وولدٌ، وليس لى فيهم قرابةٌ يحمونُهم.

فأحببتُ إذ فاتَنى ذلكَ أن أَتَّخِذَ عندهم يدًا[2] يحمون بها قَرابَتى».

فقال عُمَرُ بنُ الخَطّاب: دعنى يا رسولَ اللَّه أضربْ عُنُقَه، فإنه قد خان اللَّهَ ورسولَه، وقد نافق!

فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**إنه قد شهد بدرا، وما يدريك يا عمر! لعلَّ اللَّهَ قد اطَّلَع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم**».

فذرفت عينا عمر، وقال:

اللَّهُ ورسولُه أعلم[3].

وهكذا حمى اللَّهُ جيشَ المسلمين، فلم يَصِلْ إلى قريش أيُّ خبرٍ من أخبارِ الاستعدادِ للفتحِ العظيمِ.. وكان الفتحُ كما خطَّطَ له رسولُ اللَّهِ ﷺ.

وفكّرَ عمرُ طويلًا في هذا العَفْوِ عن حاطبٍ وراح يقول في نفسه:

لقد كان حاطبٌ أحدَ أبطالِ المسلمين الذين قاتلوا دفاعًا عن الدينِ حتى تمّ النصرُ على أيديهم!

وفي صُلح الحديبية كان مع الذين بايعوا النبيَّ ﷺ «بيعةَ الرِّضْوان» في ساعة الشدة، ممن نزل فيهم قول اللَّه تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: 18].

---

(1) الملصق: الدعِيّ الذي لا نسب له فيهم.

(2) إحسانا ونعمة.

(3) انظر صحيح البخارى 1/ 422. 2/ 612.

ولقد كان - والحق يُقال - في غزوةِ خيبرَ أحدَ فرسانها الذين قاموا بدَوْرٍ فَعّال في مقاتلةِ يهودِ خيبرَ ومُحاصرةِ حُصُونِهم.

ولم يكن صاحبَ السيفِ فقط، بل كان شاعرًا يَغيظُ الكفارَ، فلعلّ الرسولَ ﷺ عرَفَ من صِدْقِه ما جعله يعفو عنه بعد أن شَهدَ اللَّهُ لهُ بالإيمان فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: 1]

وقال: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: 18] فبرَّأهُ اللَّهُ مما قد يُظَن به، ولعلّ الرسول ﷺ كان يَدَّخِرُه لأمر عظيم!

وتمر الأيامُ فإذا الرسولُ ﷺ يَقَعُ اختيارُه على حاطب ليكونَ مبْعُوثَه الخاصّ إلى «المقوقس» عظيمِ القِبْط بمصر!!

ويُسافر حاطبٌ إلى الإسكندرية، وبها قابَلَ المقوقسَ، ويدورُ بينهما حوارٌ بعد أن سَلّمَ إليه حاطبٌ رسالةَ النبيِّ ﷺ التى يدعوه فيها إلى الإسلام.

وبعد أن فتح المقوقس الرسالة وقرأ الدعوة الموجهة إليه.

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

من محمدٍ عبدِ اللَّه ورسوله إلى المقوقسِ عظيمِ القبطِ، سلامٌ على من اتَّبَعَ الهُدى..

أمَا بعدُ: فإنى أدعوكَ بدعايةِ الإسلام، أسْلِمْ تَسْلَم، وأسْلِمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ أجرَك مرَّتَيْن فإن توليتَ فإنما عليك إثمُ القِبط: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 64].

ودار بينه وبين حاطب الحوار الآتى:

حاطب: إنه كان قبلك رجلٌ يزعمُ أنه الربُّ الأعْلَى، فأخذه اللَّه نكالَ الآخرةِ والأُولى!

فانتقم به. ثم انتقم منه، فاعتَبِرْ بغيرك، ولا يَعْتَبِرْ غيرُك بك!

فقال المقوقس: إن لنا دينا لن ندَعَه إلَّا لِمَا هُوَ خَيْرٌ مِنْه.

فقال حاطب: ندعوك إلى دينِ الإسلام الكافى به اللَّهُ فقدَ ما سواه، إن النبىَّ ﷺ دعا الناسَ، فكان أشدَّهم عليه قريشٌ، وأعداهم له اليهودُ، وأقْرَبَهم منه النَّصارَى.

ولَعَمْرِى ما بِشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد.

وما دَعْوَانا إياكَ إلى القرآنِ إلا كدعائِك أهلَ التَّوراةِ إلى الإنجيلِ.

فكل نبىٍّ ادركَ قومًا فهُمْ أُمَّتُه.

فالحقُّ عليهم أن يُطيعُوه..

وأنت مِمَّن أدركَهُ هذَا النبىُّ..

ولسنا نَنْهَاك عن دينِ المسيح ولكنّا نَأمرك به!

فقال المقوقسُ: إنى قد نظرتُ في أمرِ هذا النبىِّ، فوجدُته لا يأمرُ بمَزْهُودٍ فيه..

ولا ينْهَى عن مَرْغُوبٍ فيه..

ولم أجدْه بالساحِرِ الضَّال..

ولا الكاهِنِ الكاذب..

ووجدتُ معه آيةَ النبوةِ بإخراج الخَبْء، والإخبار بالنجوى وسأنظر..»

وأخذ كتابَ النبى ﷺ فوضَعَه في حُقٍّ من عاجٍ وختَم عليه، ودعا كاتبًا له يكتبُ بالعربيةِ، وكتب إلى الرسولِ رسالةً مُهَذَّبَةً، لكنه لم يُسْلِمْ، وبعثَ إلى الرسولِ ﷺ بهديةٍ، وأكرم رسولَه حاطبًا.

وقبل أن يبرحَ حاطبٌ الاسكندريةَ قال له المقوقس:

أخبرنى مزيدًا عن صاحبِك، أليسَ هُوَ نَبِيٌّ؟

قال حاطب، بلَى.. هو رسولُ اللَّهِ.

المقوقسُ: فما له لم يَدْعُ على قومِه حيثُ أَخْرَجُوهُ من بَلْدَتِه؟!

حاطبٌ: وعيسى بنُ مريمَ أتشهد أنه رسولُ اللَّهِ؟

المقوقس: نعم أشهدُ له طبعًا.

حاطب: فما له حيثُ أرادَ قومُه صلبَه لم يدعُ عليهم حتى رفعَه اللَّهُ؟

المقوقس: أحسنت، أنت حكيم جاء من عند حكيم.

وهكذا قام حاطبٌ بدورٍ عظيم!

وكل بَني آدمَ خطَّاء..

وخيرُ الخطائين التوابون..

فقد تاب حاطب وأناب..

وباب التوبة مفتوح للجميع..

والإسلام السَّمْح يعفو عمن أَساء إذا أعلن توبته وما دام في ماضيه ما يشفع له!

ولم تمر إلا سنوات حتى كانت مصر قد تهيأت للإسلام وكان فتحها في عهد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على يد عمرو بن العاص.

وحْشيّ الحَبَشيّ

قاتِلُ خَيْرِ خلقِ اللَّه بعد النبى ﷺ وقاتلُ شَرِّ الناسِ!

وحْشِيٌّ الحبشيُّ.. غلام جُبَير بن مُطْعم له قصةٌ عجيبة غريبة!!

ويقص علينا وحشىّ ما دار بينه وبين سَيّده جُبير ابنُ مُطْعم قبل إسلامه فيقول:

قال لى جُبَيْر: إن قتلتَ «حمزةَ» عمَّ محمد فأنت عتيق!

قال: فخرجت مع الناسِ.

وكنت رجلًا «حَبشيًّا» أقذِفُ بالحَربةِ قذْفَ الحَبَشة، قَلَّما أُخْطِئ بها شيئًا.

فلما التقى الناسُ يومَ أُحُد خرجتُ أنظرُ «حمزةَ» وأتبصَّرُه حتى رأيتُه كأنه الجملُ الأورق[1]؛ يَهُدُّ الناسَ بسيفِه هَدًّا ما يقومُ له[2] شيءٌ!

فوَاللَّهِ إنى لأَتهَيَّأُ له أريدُه، وأستتِرُ منْه بشجرة أو بحَجَر ليَدْنُوَ مِنِّى، إذ تقدم إليه: «سباع بن عبد العُزّى» فلما رآه حمزة قال: هَلُمّ إلىّ.. قال: فضربه كأنما اختطف رأسَه.

فهزَزْتُ حَرْبَتى حتى إذا رضيتُ عنها دفعتُها عليه، فوقعت في ثُنَّتِه[3] -أحشائه- حتى خرجَتْ من بين رجليه، وذهب لينوءَ[4] نحوي فغُلب!

وتركتُه وإيّاهَا حتى مات!

ثم أتيتُه فأخذتُ حَربتى، ورجعتُ إلى المُعَسْكَر، فقعدتُ فيه إذ لم تكن لى بغيرِه حاجَةٌ!

إنما قَتَلْتُه لأُعْتَق!

---

(1) الأورق: من الإبل ما في لونه إلى سواد.

(2) ما يقف في طريقه شيء.

(3) الثُّنَّة: أسفل البطن.

(4) لينهض متثاقلا. فغُلب: فلم يستطع.

عودة إلى مكة

ويواصل حبشيٌّ اعترافاتِه كما رواها ابن كثير في «**البداية والنهاية**» فيقول: فلما قَدِمتُ مكةَ عُتِقْتُ.

ثم أقمتُ حتى إذا افتتح الرسولُ ﷺ مكةَ هربتُ إلى الطائفِ فمكثتُ بها!

فلما خرج «وفدُ الطائفِ» إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ ليُسْلِموا تعيّت[1] عليّ المذاهب، فقلت: ألحق بالشام، أو باليمن، أو ببعض البلاد!

لا يأس من رحمة الله

فواللَّه إنى لَفِى ذلكَ من هَمّى إذ قال لى رجل:

ويْحَك[2]!

إنه -واللَّه- لا يَقْتُلُ أحدًا من الناسِ دخلَ في دينِه، وشَهدَ شهادةَ الحَق.

قال: فلَمّا قال لى ذلك خرجت حتى قدِمْتُ على رسولِ اللَّه ﷺ المدينةَ!

فلم يَرُعْه[3] إلا بى قائمًا على رأسهِ أشهدُ شهادَة الحقّ!

الرحمة المهداة

فلما رآنى قال لى: «**أوحشيٌّ أنت؟**»

قلت: نعم، يا رسول اللَّه!

قال «**أقعد فحدثنى كيف قتَلتَ الحمزة؟**»

قال: فحدثْتُه كما حدثتكما!

فلما فرغتُ من حَديثى قال: «غَيِّبْ عَنّى وجهَك فلا أَرَيَنّك!».

قال: فكنتُ أتنكّب[4] برسولِ اللَّه ﷺ حيث كان لئلا يرانى حتى قبضَه اللَّهُ عزَّ وجَلَّ!

---

(1) ضاقت الدنيا في وجهى وعجزت عن اتخاذ قرار.

(2) كلمة ترحم وإشفاق وتوجع وقيل: بمعنى ويلك.

(3) لم يرعه لم يفزعه.

(4) أتنكب: أتنحين وأتجنب، وأعرض.

وحشى يُكفر عن مقتل الحمزة!

ويواصل حديثه قائلا: فلما خرج المسلمون إلى «مُسَيْلمةَ الكذّابَ» «صاحبِ اليمامة» خرجت معهم، وأخذت حَرْبَتى التى قتلتُ بَها «حمزةَ».

فلما التقى الناسُ رأيت مُسَيْلمَة قائمًا وبيده السَّيْفُ، وما أعرِفُه!

فتهيأتُ له، وتهيأَ له رجلٌ من الأنصار من الناحية الأخرى.. كلانا يُريدُه!

فهززت حَرْبَتى، حتى إذا رضيتُ منها دَفَعْتُها عليه فوقعت فيه!

وشدّ عليه الأنصاريُّ بالسيف، فرَبُّك أعلمُ أيُّنَا قتله؟!

فإن كنتُ قتلتُه؛ فقد قتلتُ خيرَ الناسِ بعدَ رسولِ اللَّه ﷺ، وقتلتُ شَرَّ الناسِ!

مَنْ ذلك الأنصارى الذي شاركه قتل مسيلمة؟

يقول ابن كثير: هو «**أبو دجانةُ سِماكُ بن خَرْشَة**».

وقيل هو «عدىّ بن سُهَيْل» القائل:

ألم تَرأنى ووَحْشِيَّهم ... قتلتُ مُسَيْلمة المُفْتَنْ

ويسألُ الناسُ عن قَتلِه ... فقلتُ: ضربتُ، وهذَا طَعَنْ!

والمشهور أن وحشيّا هو الذي بَدَرَهُ بالضَّربة، وذفّف[1] عليه أبو دُجانة.

اللحظات التى سبقت إسلام وحشىّ

جاء في أسباب النزول للسيوطي: أخرج الطبرانى بسَنَد فيه ضَعْف عن ابن عباس قال: بعث رسولُ اللَّهِ ﷺ إلى وَحْشِى قاتلِ حَمزَةَ يدعوه إلى الإسلام. فأرسل إليه: كيف تدعونى، وأنت تَزْعُمُ أن من قتل أو زنى أو أشرك ﴿يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ [الفرقان: 68، 69].

وأنا صنعت ذلك؛ فهل تجدُ لى رُخْصَةً؟

(1) ذفف عليه: أجهز عليه وتمم.

فأنزل اللَّه: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[الفرقان: 70].

فقال وحشيّ: هذا شرط شديد: «**إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا**».

فلعلى لا أقدر على هذا!!

فأنزل اللَّه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾

[النساء: 48].

فقال وحشيّ: هذا أرى بعده مشيئة، فلا أدرى أيغفر لى أم لا، فهل غيرُ هذا؟

فأنزل اللَّه: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: 53].

وعندئذ قال وحشيّ: هذا نعم فأسلم!

إن بابَ التوبة لا يُغلقُ في وجهِ أحدٍ إذا أقلع عن الذنب وقرر أن لا يعود إليه، وكانت توبته خالصة لوجه اللَّه، فربنا رءوف رحيم!

•وأخرج الشيخان عن ابن مسعود قال: سألت رسول اللَّه ﷺ: أي الذنب أعظم؟

قال: **أن تجعل للَّه نِدًّا وهو خَلقَك!**

قلت: ثم أيٌّ؟

قال: أن تُزَانِى حليلةَ جَارِك!

فأنزل اللَّه تصديقهما:

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: 68].

• وأخرج الشيخان عن ابن عباس أن ناسا من أهل الشرك قتلوا فأكثروا، وزَنَوْا فأكثروا، ثم أتوا محمدًا ﷺ فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لَحسنٌ لو

تُخْبِرُنا أنّ لما عَمِلنا كفّارة، فنزلت: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

[الفرقان: 68 – 70].

ونزل قول اللَّه تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الزمر: 53].

• أخرج البخارى وغيره عن ابن عباس قال:

لما أنزلت في الفرقان ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ [الفرقان: 68].

قال مشركو أهل مكة:

قد قتلنا النفسَ بغير حق!

ودعَوْنا معَ اللَّهِ إلهًا آخر!

وأتينا الفواحشَ!

فنزلت ﴿ إِلَّا مَن تَابَ ﴾ [الفرقان: 70].

موقف عظيم

لقد تجلى حِلْمُ الرسول ﷺ يوم مقتل الحمزة – رضوانُ اللَّهِ عليه – في وقعة أحد، وشَهِدَه وقد مَثَّل به كفارُ مكةَ أشنعَ تمثيل!

وعندما مكنه اللَّه منهم يومَ فتحِ مكة جمعَهم في مكان واحد حيث حسبوا في أنفسهم أنه سَيُمَثِّلُ بهم –وقد قدَرَ عليهم – بما لم ترَهُ عَيْنٌ، ولم تَسْمَعْ به أُذُن من العقابِ الأليم، والقصاصِ العظيم..

وإذا به ﷺ يسألهم:

ما ترون أنِّى فاعل بكم اليوم؟ !» وسكت!!

فأعلنوا والرهبةُ تكادُ تعتقلُ ألسنتَهم قائلين:

أخ كريم، وابن أخ كريم!

فما كان منه ﷺ إلا أن قال:

«**اذهبوا فأنتم الطُّلقاء**».

وهذا منتهى الحلم والعفو في أجمل الصور!

ويصل حلمه ﷺ إلى أبعد المدى يوم أن ذهب إليه وحشيّ قاتل الحمزة «برجليه» ليُعلِنَ إسلامَه!

ولم يجرؤ أن يُعَرِّفَهُ بنفسه إلا بعد أن قال كلمة الإسلام:

أشهد أن لا إله إلا اللَّه!

وأشهد أن محمدًا رسول اللَّه!

وحين عرَفَه النبيُّ ﷺ مَلَك زِمامَ غَضَبِه الذي ظهرت بوادرُه في عينيه، وبدَرَه قائلا:

«**لا تَدَعْنِى أرَ وجْهَكَ بعد اليوم**» **ثم صرف وجهه عند ليُسْكِت غضَبه المَتأَجِّجَ**.

وعاش وحْشيّ في أمن وأمان، فلم تمتد إليه يد بعد أن أعلنَ إسلامَه، فقد علّم الرسولُ أصحابَه أن «**كلّ المسلم على المسلمِ حَرَامٌ: دَمُه، ومالُه، وعِرضُه**» **وعلمهم**: «**أن الإسلام يَجُبُّ**[1] **ما قبله!**».

(1) أي يقطع ويمحو ما كان قبله من الكفر والذنوب!

أبو بكر الصديق

يطيب لى أن أبدأَ هذه المجموعة بأولِ مَن أسْلَم من الرِّجالِ، وكان الساعدَ الأيمنَ لرسولِ اللَّه ﷺ، وأسلم على يَدَيْه الكثيرون!

فبعد عام الفيل بِسنتين أو ثلاث وُلد:

«عبد اللَّه بنُ عُثمانَ» من أبوين قُرَشِيَّين.

حيث كانت أمُّه «أمُّ الخير سَلْمَى بنتُ صخر» ابنةَ عمِّ أبيه «أبى قحافة عثمان» التى اختارها لتكون زوجةً له.

وقد رزقهما اللَّهُ بمولودٍ صالحٍ مبارَك سمياه:

«عبدَ اللَّه»! وهو «أبو بكر الصديق».

وكان هناك وليدٌ آخر احتفلت مكةُ بمَولده «عامَ الفيل» هو «محمد بنُ عبد اللَّه» الذي أصبح فيما بعد «خاتمَ الأنبياء والمرسلين ﷺ».

ويشاءُ اللَّهُ أن يلتقىَ الوليدَان الكريمانِ في جَدِّهما السادس وهو «مُرَّةُ بنُ كَعب».

وعندما شبّ «أبو بكر» اشتغل بالتجارة، كما اشتغلَ نبيُّنا محمدٌ ﷺ بالتجارة!

وتلاقى القريبان في السِّنِّ والنَّسب، والتِّجارة، فكانت بينهما صداقةٌ وكلُّ قرين بالمقارن يَقْتَدِى!

كان النبىُّ ﷺ صادقًا أمينًا، وحازَ أبو بكر على لقب «الصِّديق» بإجماع الأمة!

لم يكن لديه استعدادٌ لعبادةِ الأصنام مُنْذُ نَشأته!

فلقد أخذه والده إلى مَعبدٍ فيه أصنامٌ لهم، وقال له:

اُسْجُدْ لآلهتِك!

تُرى ماذا فعل أبو بكر؟

دنا من الصّنَم وقال له:

إنى جائع فأطعمنِي! فلم يُجِبْهُ!

ثم اقترب منه أكثرَ، وقال له:

إنى عطشانُ فاسقنى؛ فلم يُجِبْهُ!

فاقترب أكثر وأكثر لعله يسمع ثم قال:

إنى عارٍ فاكسُنِى، فلم يُجبه!!

وهنا أخذ صخرةً وقال:

إنى مُلقٍ عليك هذه الصخرةَ، فإن كنتَ إلهًا فامنَعْ عَن نفسِك!!

وألقى الصخرةَ عليه فخرّ على وجْهِه!

وخرج «أبو بكر» وهو يبحثُ عن الإله الحَقِّ!!

وذات يوم عَلِمَ «أبو بكر» أن محمدًا صديقَه قصَدَ الناسَ في المسجد ودعاهم إلى عبادةِ اللَّهِ وحدَه، فأسرع إلى صاحبِه يسأله قائلا:

- ما الذى بلَغَنى عنك؟!

فسأله النبيُّ ﷺ: «**وماذا بلغَك عَنِّى يا أبا بكر؟!**».

قال: بلغنى أنك تدعو إلى توحيدِ اللَّهِ، وزعمتَ[1] أنك رسولُ اللَّه!

قال: «**نعم يا أبا بكر، إن رَبِّى جَعَلَنى بشيرا ونذيرا، وجعلنى دعوةَ إبراهيمَ، وأرسلَنى إلى الناسِ جميعا**».

فما أبطأ أبو بكر أن قال:

واللَّهِ ما جرّبتُ عليك كَذبًا، وإنك لخَلِيقٌ (جديرٌ) بالرسالة لعِظَمِ أمانتك، وصِلَتك لرحِمِك، وحُسن فَعالك[2]!

فمدّ يدَك فإنى مبايُعك!

---

(1) من معانى زعمت: قلت.

(2) فَعالك: عملك الحميد.

لم يتردد أبو بكر.. ولم يَطْلُبْ مُهْلَةً: فقد كان «جهازُ الاستقبال» لديه على أتمِّ الاستعداد لِتَلَقِّى الدعوةَ!

فكان أولَ الرجالِ إسلامًا!

ومثل أبى بكر في عِفّته، وخُلُقِه، وصِدقِه، ومُروءته جدير بهذه الأوّلية ليكون نَمُوذَجًا يُحتذى!

فمثل هذا النَّموذَجِ الفاضل هو ما تحتاجُ إليه الدعوةُ الجديدةُ.. فالعَيْنُ الواحدةُ البصيرةُ تقودُ ألفَ أعمى!

وحَسْبُه أنه كان من ذوِى الشَّرَفِ في الجاهلية والإسلام!

ومن أجل هذا قررتْ قريشٌ أن تختارَ له رجلًا يُعيده إلى آلَهتِهم. فوجودُ مِثْلِه على رأس المسلمين يجعلْ الكثيرين يَحْذُون حَذوَه، ويتركون أصنامَهم!

أرسلوا إليه «طلحة بنَ عبد اللَّه»، فأتاه وهو في القوم فقال: إلىّ[1] يا أبا بكر..

قال: إلامَ تدعونى؟

قال: أدعوك إلى عبادة اللاتِ والعُزّى!

فقال أبو بكر: فمَن اللات والعُزّى؟

قال طلحة: بناتُ اللَّه!

قال: فمن أمُّهن؟

فسكت، وقال لأصحابِه: أجيبوا صاحِبَكم.. فسكتوا..

وهنا قال طلحة:

يا أبا بكر «إنى أشهدُ أن لا إلهَ إلا اللّهُ وأن محمدًا رسولُ اللَّه».

وهنا أخذ أبو بكر بيده إلى النبى ﷺ ليُعْلِنَ إسلامَه بين يديه!

(1) إليَّ: تعال، أقْبِلْ.

وحدث ما كانت تخشاه قريش، ففى كل يوم كان هناك من يسألُ عن الدعوةِ الجديدة، ويريد أن يَصْحَبَه أبو بكر إلى النبىِّ ﷺ لكى يُعْلِنَ إسلامَه بين يديه!

وكيف لا وقد قال المشركون:

ربُّنا اللَّهُ، والملائكة بناتُه.. وهؤلاء شفعاؤنا عند اللَّه!

فلم يستقيموا.

وقالت اليهودُ: رَبُّنا اللَّه، وعُزَير ابنهُ. فلم يستقيموا.

ولكن أبا بكر قال: رَبى اللَّهُ وحدَه لا شريكَ له..

ومحمدٌ ﷺ عبدُه ورسولُه، فاستقام، ونزلت فيه[1] آيات تُتْلَى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت: 30 - 33]

هذا هو أبو بكر صاحبُ المنزلةِ في الجاهلية والإسلام!

لقد حار كفارُ قريش في أمرِه، وراحوا يتساءلون:

كيف يتخلَّى عن دينهِ، وينضمُّ إلى محمدٍ وصحبِه؟!

إن انضمامَه للدين الجديد يُعَدُّ ضربَةً قاضيةً لديانتهم!

فتأييدُه للدينِ الجديد، ودفاعُه عنه، وإعتاقُه للعبيد، ووقوفُه إلى جانبِ محمد يؤيدُه ويُساندُه فيه خطورةٌ على دينهم وأصنامِهم!

إنه يُبَشّر بالدين الجديد خُفْية، ولقد أسلم بدعوته خمسةٌ من العَشَرَة المبشَّرِين بالجنة وهم:

(1) أسباب النزول للنيسابورى.

عثمانُ بنُ عفانَ، والزُّبَيْر بن العوام، وعبدُ الرحمن ابن عَوْفٍ، وسعدُ بن أبى وقاص، وطلحةُ بنُ عُبَيْدِ اللَّهِ.. كما أسلَمتُ أمُّهُ أوّلًا قبلَ أبيه..

إنه نَمُوذَجٌ فاضلٌ، فهو سليم الفِطرة، صادق مع نفسه، ومع الناس، صاحبُ أخلاقٍ طيبة، وقِيَم فاضلة!

يرى أُمّيةَ بن خلَف يُخرج بلالًا في الظهيرة، ثم يطرحُه على ظهرِه، بالصخرة العظيمة أن توضعَ على صَدرِه!

ويربِطُه بحبلٍ فتطوفُ به الأطفالُ في أوديةِ مكةَ المحرقةِ!

- أبو بكر: ألا تتقى اللَّه في هذا المِسكين يا أيمةُ؟ حتى متى؟

- أمية: أنتَ الذي أفسدتَه، فأنقِذْه مما ترى!

فأحضر له أبو بكر «عبدًا وثَنِيّا» كان له، ولم يَشَأْ أن يُدخِلَه في الدين على الرغم منه!

فقبِلَه أميةُ، وأعتقَ أبو بكر بلالًا، فصار بفضلِ إسلامِه من الأحرارِ الذين رَفَعُوا الأذان عاليا في كل الأرجاء!

وأعتق «أبو بكر» سبعةً كانوا يُعذَّبون في اللَّه!

فقال له ابوه (أبو قحافة):

أراك تَعْتِق رِقابًا ضِعَافًا، فلو أنك أعتقتَ رجالًا جُلْدًا يمنَعُونَك (يَحمونَك) ويقومون دونك (يحرسونك)؟!

فقال أبو بكر: يا أبتِ إنما أريدُ ما عند اللَّه!

وتحمّلَ أبو بكر الكثيرَ في سبيلِ الدعوةِ التى آمن بها..

لم يَبخلْ بمالِه.. ولا بجُهده.. ولا بوقته في خدمة الدعوةِ الوليدة حتى تقفَ على قدميها وتواجهَ أعداءَ الدين!

فكان الساعدَ الأيمنَ لرسول اللَّه ﷺ، ولهذا اتجهت أنظارُ قريش إليه لتصرفَه بكل الوسائل عن الدين الجديد.. فإذا استطاعوا التأثيرَ عليه فمن السهلِ التأثيرُ

على من بقى من أتباع الإسلام! وظلوا يتربصون ويتحينون الفرصة حتى كان «الإسراءُ والمعراجُ»، ولم يكدِ النبيُّ ﷺ يُخبرُهم بما حدث حتى كان وقعهُ على القومِ شديدا..

أما المسلمون فقد اهتزّ بعضُهم..

وأما المشركونَ فقد سَخِروا وعَجِبُوا!

وخُيِّل إليهم أن «الفرصةَ أصحبت سانحَةً» لكى يُزَعْزِعوا إيمانَ مَن ثَبتَ على إيمانه!

إنهم يَقطعونَ الرحلةَ من مكةَ إلى الشامِ في شَهْرٍ ويَعودُون في شهرٍ، فكيف يذهبُ محمدٌ ويعُود في ليلةٍ واحدة؟!

إنه يقول: إنه أُسْرِىَ به إلى بيتِ المقْدِسِ.. وعُرج به إلى «السموات السبعِ» ثم عاد.. كل ذلك في ليلة!!

وهنا أسرعوا إلى «أبى بكر» وقالوا له:

هل لك يا أبا بكر في صاحبك؟

إنه يَزْعُم أنه جاء هذه الليلةَ بيتَ المقدس، وصلى فيه ثم رجع إلى مكة!!

فقال أبو بكر: إنكم تكذِبون عليه!

قالوا: لَسْنا بكاذبين.. ها هو ذا يحدِّث بهذا الخبر في فِناءِ الكعبة على مَلأ من الناس!

وهنا قال أبو بكر:

واللَّه لَئِنْ كان قالَه لقد صدق، فما يعجبكم من ذاك؟!

فواللَّه إنه ليُخْبِرُنى أن الخبرَ لَيَأْتيه من السماء إلى الأرض في ساعةٍ من ليل أو نهار فأصَدِّقُه!

فهذا أعجب مما تَعْجَبُون منه!!

فأسْكَتَهم، وأخْرَسَهم، وأفْحَمَهم، ورَدّهم على أعقابهم خاسرين مقهورين!

فكان الصِّديق!

ثم هرع إلى رسول اللَّه ﷺ وقال له:

أحدّثتَ هؤلاء القومَ أنك جئتَ بيتَ المَقْدِس هذه الليلة؟!

قال: نعم.

قال: يا نبيَّ اللَّهِ، فصِفْه لى، فإنى قد جئتُه!

فجعل رسولُ اللَّه ﷺ يصِفُ بيتَ المقدس، فكُلَّما قال عنه شيئا قال له أبو بكر: صَدَقْتَ.. أشهدُ أنك رسولُ اللَّه!

ولما انتهى الرسولُ ﷺ من وَصْفِ بيتِ المَقدس التفتَ إلى أبى بكر، وقال له: «**وأنت يا أبا بكر الصِّدِّيق**»!

ولقد مكث الرسول ﷺ «ثلاثةَ عشَر عامًا» في مكةَ يدعو الناسَ إلى عبادةِ اللَّهِ الواحد، ولازمَهُ أبو بكر.. لم يفارقه حتى كانت الهجرةُ من «مكةَ المكرمة» إلى «المدينةِ المنورة» فكان له شرفُ الصُّحبَةِ لرسولِ اللَّه ﷺ، وقد أشار إلى ذلك القرآن الكريم: ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ﴾ [التوبة: 40].

وظل إلى جانبه في المدينة يؤيده ويسانده، وزوّجَه ابنتَه عائشة، أُمَّ المؤمنين- رضى اللَّه عنها.

وشَهِدَ معه المشَاهِدَ كُلّها، وكان يحملُ رايتَه العُظمى في آخر غزواته، وهى «غزوةُ تَبوك».

يُدافعُ عنه.. ويقفُ في وجه الأعداءِ دُونَه.. وكان له بمنزلة الوزير الأول؛ وفي ذلك يقول الرسول ﷺ في الحديث الذي أخرجه ابن عساكر:

«**ما أحدٌ عِندى أعظمَ يدًا**[1] **من أبي بكر!**..

(1) يراد باليد هنا الفضل والمِنة.

وَاسانى بنفسِه ومالِه..

وزوَّجنى ابنته!

ولو كنتُ مُتخذا من أُمتى خليلًا لا تخذتُ أبا بكر خليلا، ولكنْ أخوةُ الإسلام».

وظل أبو بكر على عهده ووعده حتى اشتدّ المرضُ برسولِ اللَّهِ ﷺ فقال: «**مُرُوا أبا بكر فَلْيُصَلِّ بالناسِ**» (أخرجه الشيخان).

فصلى بالناس في حياة الرسول ﷺ، وكان أهلًا لهذه المنزلة، فهو أسبقُ المسلمين إلى الإسلام، وأسنُّهم، وصاحبُه في الغار!

وعندما لقىَ الرسولُ ﷺ ربّه..

فكّر المسلمون فيمن يَخْلُفُه؟

فقالوا: رَضِيَه رسولُ اللَّهِ ﷺ لديننا، أفلا نرضاه لدنيانا؟!

وبايعه الجميع بالخلافة!

وكيف لا، وقد كُتِبَ له منذ اللحظة الأولى أن يكون ثانى اثنين حين يكون النبىُّ ﷺ أولَ الاثنين:

ألم يكن ثانىَ اثنين في الإسلام؟

ألم يكن ثاني اثنين في غار الهجرة؟

ألم يكن ثاني اثنين في الظُّلة[1] التى أوى إليها النبى ﷺ يوم بدر الذي لا يوم مثله؟

ألم يكن ثاني اثنين في كل وقعة دارت بين المسلمين والمشركين؟

إنه أقربُ صاحب إلى النبى ﷺ في الشدة والرخاء.. في السر والجهر.. فجدير به أن يكون الخليفة الأول.

(1) عريش تدار منه المعركة ويشرف القائد على الجند.

وفي أولِ خطبةٍ له بعد الخلافة يوضح سياستَه القائمةَ على الحق والعدل فيقولُ بعد حَمدِ اللَّهِ والثناء عليه بما هو أهلُه:

أما بعدُ.. أيها الناسُ.. فقد وُلِّيتُ عليكم، ولستُ بخيركم، فإن أحسنتُ فأعينونى.. وإن أسأتُ فقوِّمونى!!

الصدقُ أمانة.. والكَذِبُ خِيانة..

والضعيفُ فيكم قويٌّ عندي حتى أُرْجِعَ عليه حقَّه إن شاء اللَّه..

والقويُّ فيكم ضعيفٌ عِندى حتى آخذَ الحقّ منه إن شاءَ اللَّهُ!

أطيعونى ما أطعتُ اللَّهَ ورسولَه، فإن عَصَيتُ فلا طاعةَ لى عليكم! ولا عجب!

فقد كان أولَ القومِ إسلاما، وأخلصَهم إيمانًا.. وأشدَّهم يَقينا.

صدّق الرسول ﷺ حين كذّبه الناس، وواساه بماله حين بخل الناس.. وقام معه حين قعدوا!

ولم يمض أقلُّ من سنة على مواجهة المرتدين حتى خضعتِ العربُ على يد أبى بكر ورجعتْ إلى الإسلام.

ثم تفرغ لفتحِ الممالكِ على حُدودِ الدولةِ الإسلامية.

ولَقِيَ ربَّه وجيوشُه تُحاربُ المملكيتن: الفرس والروم..

وكانت وفاته بالمدينة ودفن بجانب الرسول ﷺ سنة 13 هـ وعمره 63 سنة، ليكون إلى جواره حيا وميتا - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وجزاه عن الإسلام خيرا.

أليس أبو بكر جديرًا بأن يكون نموذجا يحتذى؟!

عبد الرحمن بن عوف الغنى الشاكر

يقول ابنُ هِشام في السيرةِ النبويةِ:

أولُ فَتًى من الفِتْيان آمنَ برسول اللَّه ﷺ، وصلى معه، وصدّق بما جاءه من اللَّهِ تعالى: «**عليّ بنُ أبى طالب**» - رِضوانُ اللَّهِ وسلامُه عليه وهو يومئذ ابنُ عَشْرِ سِنين.

ثم أسلم «**زيدُ بنُ حارثةَ**».. من العبيد!

ثم أسلم «**أبو بكر بن أبى قحافةَ**» من الرجالِ- فلما أسلم أظهرَ إسلامَه، ودعا إلى اللَّهِ ورسولِه.

وكان أبو بكر رَجلًا مُؤَلِّفًا لقومه مُحَبَّبًا سهلًا، فأسلم بدعائه عثمانُ بن عفانَ، والزُّبيرُ بنُ العوّام، و «**عبدُ الرحمنِ بنُ عَوف**»، وسعدُ بن أبى وقاص، وطلحةُ ابن عبيد اللَّه، فكان هؤلاء الثمانية[1] الذين سبقوا الناس بالإسلام، فصَلّوا، وصَدَّقُوا، وكان «عبدُ الرحمن بنُ عَوْفٍ» أحَد الثمانية!!

ولقد كان إسلامُه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قبل أن يدخلَ الرسولُ الكريم ﷺ «دار الأَرقم[2] ويتخذَها مكانًا لدعوته السِّرية!

وكان إسلامُه بعد إسلام الصِّدِّيق بيومين.. وللسابقين عند اللَّه منزلة عظيمة ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: 10، 11]..

(1) هم على، وزيد، وأبو بكر، والخمسة الأوائل الذين أسلموا على يديه. والسيدة خديجة - رضى اللَّه عنها- هى أول من آمن به وصدق.

(2) كان موقعها في مكة، وكانت تسمى «دار الإسلام»، وهى المدرسة التى تخرج فيها المسلمون الأوائل، وفيها أعلن عُمر إسلامه، وهى للأرقم بن عبد مناف.

فقد صبرَ وتحمّلَ، ولم يكن أمامَه إلا أن يَفِرَّ بدينه إلى الحبشةِ كما فَرّ الكثيرون بدينِهم حتى لا تَفتِنهم[1] قريشٌ عن دينهم.

ولما أذِن اللَّهُ لنبيهِ ﷺ بالهجرةِ إلى المدينةِ هاجرَ «**عبدُ الرحمنِ بنُ عَوْف**» مع مَن هاجروا، وفى المدينة كان الجميع إخوةً في الدين، وتَجلّت الأُخُوَّةُ الإسلامية في أروع صُورِها!

ولم تكن هذه الأُخُوةُ شِعارًا مرفوعًا يُكذّبه الواقعُ، أو تسخرُ منه الوقائعُ، إنما تحولَتْ لعَقْدٍ نافعٍ، وقانونٍ مُلزِم يَحْترمُه الجميع!

ويَرْوِى لنا البخارى صورة لهذه الأُخوة.. لما قَدِمَ المهاجرون إلى المدينة آخى الرسولُ بينَ المهاجرين والأنصار.. وآخى بين المهاجرِ «عبد الرحمن بن عوف»، والأنصاريّ «سعدِ بنِ ربيعة».. قال سعد لعبد الرحمن: إنى أكثرُ الأنصَارِ مالًا، وقد قسَّمت مالى نصفين: لك أحدُهما، ولى امرأتان، فانظر أيَّهما أعجبَتْك لكى أطلقَها لك، فتتزوجَها!

قال عبدُ الرحمنِ: بارك اللَّهُ لك في مَالِك وأهلِك!!

أين سوقكم؟

لقد عرضَ الأنصاريُّ بكرَم ما بَعْدهُ كرمٌ نصفَ ماله، ونصفَ زوجاته، ورفضَ المهاجرُ بِنُبْلٍ وعزةٍ وإباء!، وسأل عن السوق، وشمَّر عن ساعده[2]..

ونزل يعمل.. فقد علّمهم الرسولُ ﷺ: **أن العملَ عبادةٌ، وأن اليدَ العُلْيا خيرٌ من اليَدِ السفلى!**

---

(1) تفتنهم: تصرفهم.

(2) استعد.

وفي السوقِ اشترى وباعَ، وعاد بشيءٍ من أقط (جُبن) وسَمْنٍ، ثم لبث ما شاء اللَّهُ أن يلبَثَ، فجاء وعليه أثواب جديدة وهو مُضَمَّخ[1] بعِطْر فسأله الرسول ﷺ عن حاله فقال:

تزوجتُ يا رسولَ اللَّه، فسأله عن صَداقها فقال: «وزنُ نواةٍ ذهبا» فقال – عليه الصلاة والسلام – «**أَوْلِمْ ولَوْ بشاة**»[2].

فجمع الناس على الوليمة لتكون إعلانا للزواج.

وغرضُ الرسول ﷺ أن يُعَلِّمَ الناسَ:

- أن الكفاح فيه خيرٌ كثيرٌ وبركةٌ..
- وأن اليدَ العُليا خيرٌ من اليد السفلى..
- وأن على المسلم أن يَسْعَى وأن يمشىَ في مناكب الأرض ليأكلَ من رزقِ اللَّه ولا يتكل على غيره!
- وأن ليس للإنسان إلا ما سعى..
- وأن يلتمسوا الرزقَ في خبايا الأرض..
- وأنّ تسعةَ أعشارِ الرّبح في التجارة..
- وأن المؤمنَ القوىَّ خيرٌ وأحبُّ إلى اللَّه.. من المؤمنِ الضَّعيفِ.
- وأن الكفاحَ في سبيلِ لقمةِ العيش نوعٌ من الجهادِ في سبيلِ اللَّهِ.
- وأن من الذنوبِ ذنوبًا لا يكفرُها إلا السَّعىُ على الأولاد!

وصار عبدُ الرحمنِ بنُ عَوْفٍ للناس مَثَلًا يُحتَذَى به!

- أليس أحدَ الخمسةِ الذين أسلموا على يَدِ أبى بكر؟
- أليس أحدَ الثمانيةِ الذين سَبقُوا إلى الإسلام؟

(1) ضمَّخَهُ بالطّيب: غطى جسده به وتعطر.

(2)

• أليسَ أحدَ الستةِ الذين اختارَهم «الفاروقُ عمرُ».

وجعلهم أصحابَ الشّورى لاختيار الخليفةِ من بعده؟

• أليس أحدَ العَشَرة المبَشَّرين بالجنة؟

• أليس أحدَ النَّفَر الذين كانوا يُفْتُون في المدينة ورسولُ اللَّه ﷺ حَيٌّ؟

لقد كان اسمهُ في الجاهلية «عبدَ عمرو» أو «عبد الكعبة» فسماهُ الرسولُ «**عبد الرحمن**».. وها هو ذا «عبد الرحمن» بعد أن أنعم اللَّه عليه بنعمةِ الإسلام، وهداه إلى صراطٍ مستقيم!

وإذا حَلَّتِ الهدايةُ قَلْبًا نَشَطَتْ للعبادةِ الأعضاءُ!

إنه يقص علينا تجربتَه بعد أن ذهبَ إلى السُّوقِ وخاض مَيْدانَ العمل فيقول: «**فأقبلتِ الدنيا عليّ حتى رأيتُنى لو رَفَعْتُ حجرًا لتوقعت أن أجد تحته ذَهَبًا أو فِضَّة**».

لقد بارك اللَّه فيه وعليه، فكان أهلًا للنعمة ونَموذَجًا للغنيّ الشاكر الذى يؤمن من كل قلبه أن المالَ مالُ اللَّه أجْرَاهُ اللَّهُ على يديه، فلْيُجاهد به في سبيل اللَّه!

كان يُحيطُ الرسولَ ﷺ علمًا بتجارتِه بين آنٍ وآخر والرسولُ ﷺ يوجِّهُه، ويُرشدُه، ويَهديه، ويُباركه، فلما صار غَنِيًّا قال له النبيّ ﷺ: «**يابن عوف إنك من الأغنياء، ولن تدخلَ الجنةَ إلا زَحْفًا فأقرضِ اللَّهَ يُطلِقْ لك قدميك**»[1]

وأمره النبيُّ ﷺ بإكرامِ الضيفِ، وإطعامِ المسكين، وإعطاءِ السائل، وليبدأ بمن يعول[2]! ففى هذا تزكية لمالِه، وتَطْهير له!

لقد جعل مالَه في رضاءِ اللَّه، وفى صالحِ الجماعةِ في عهدِ الرسول ﷺ وظل على عهدهِ ووعدِه بعد وفاته!

(1) أخرجه الحاكم 3/ 311 وصححه. والإقراض: ما يقدم من عمل يُلْتَمس عليه الجزاء من اللَّه!

(2) من يعول: أهله وعياله. ومن يتولى أمر الإنفاق عليهم.

ومع هذه التجارة والمال العريض لم يترك غزوةً من غزَوَات الرسولِ ﷺ إلا وشهدها؛ فقد شهد المشاهدَ كلها مع رسول اللَّه ﷺ وبشَّرهُ الرسولُ ﷺ بالجنة مع العَشرةِ المبشَّرين بها، لأنه أخذ على عاتقه أن يَفدىَ رسول اللّه ﷺ في القتال، وأن يكون في الطليعةِ في كل موقعةٍ من المواقع!

ففى «يوم بدر» أرْدَى عدوَّ اللَّه «عُمَيْرَ بن عُثمان بن كَعب».

وفي «**يوم أُحُد**» صمَد حين قرّ المنهزمون، وخرج وفيه بِضعة وعشرون جُرحا بعضها عميق تدخل فيه يَد الرجل!

وكان سَبَّاقا في تجهيز السرايا[1] بماله!

وموقفُه في «غَزْوَةِ تبوكَ» جعله في طليعة المتصدقين فقد تصدق بمائتي أوقية من الذهب حتى إن عمرَ بنَ الخطاب قال للنبى ﷺ: إنى لا أرى عبد الرحمن إلا مُرْتكبًا إثمًا، فما ترك لأهله شيئا!

فقال الرسول ﷺ: «**هل تركت لأهلِك شيئًا يا عبَد الرحمن؟!**».

فقال: نعم.. تركت لهم أكثرَ مما أنفقتُ وأطيبَ!

قال: كم؟

قال: **ما وعَد اللَّهُ ورسولُه من الرِّزق والخيرِ والأجرِ!**

ولعبد الرحمن مناقبُ كثيرة:

فمن مناقبه:

- أن النبىّ ﷺ شَهِدَ له بالجنةِ.
- وأنه من أهل بدر الذين قيل لهم: «اعملوا ما شئتم»[2].

(1) جمع سريَّة، وهى القطعة من الجيش صغيرة العدد يتولى أمرها أمير. وهى دون الغزوة التى تكون كثيرة العدد ويشهدها الرسول ﷺ.

(2) قطعة من حديث أخرجه أحمد 1/ 80 والبخارى (2007) في الجهاد.

• ومن أهل هذه الآية:

﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: 18].

• وقد صَلّى رسول اللَّه ﷺ وراءه[1].

هذا هو عبد الرحمن أنفقَ فأنفقَ اللَّهُ عليه!

لم يستغلَّ غِناه! ولم يَحْتكر.. ولم يكن شحيحًا بمالة في المصلحة العامة!! ولم يبغ بهذا المال الفسادَ في الأرض. إنّ مصلحةَ الأمةِ في المَقام الأول، ويا ويلَ من جَمَع مالًا وعدَّدَه ! وكم نريد أن يكون في مجتمعنا من رجالِ المالِ والأعمالِ أمثالُ عبد الرحمن خُلقًا ومالًا وعملًا..

لقد أدّى ما عليه نحوَ ربِّه ودينِه، ومجتمعه، وظل على عهدِه ووعدِه حتى بلغ «الخامسةَ والسبعين» من عمره وكان ذلك سنة اثنتين وثلاثين من الهجرة في خلافة عثمانَ بن عفانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لقد لقى ربّه وترك لنا حياةً حافلةً بالدروس والعبر، فعن الشعبى قال:

شكا عبد الرحمن بن عوف خالدًا إلى رسول اللَّه ﷺ فقال: «**يا خالدُ، لا تؤذِ رجُلًا من أهل بدر، فلو أنفقت مثلَ أُحُدٍ ذهبًا لم تدرك عمله**».

قال: يقعون[2] فيَّ فأردّ عليهم» فقال النبى صلى الله عليه وسلم: «لا تؤذوا خالدًا، فإنه سيف من سيوف اللَّه صَبَّهُ اللَّه على الكفار[3]».

أرأيت كيف حسم الرسول ﷺ الموقف؟ وأعطى كل ذى حق حقه؟!

---

(1) أخرجه أحمد في المسند 4/ 249 – 250 ، و 251، والنسائى 1/ 77 وذكره الحافظ في «المطالب العالية» 415، ونسبه إلى أبى يعلى.

(2) ذكره الهيثمي في المجمع 10/ 15 عن أحمد، وقال: رجاله رجال الصحيح.

(3) يعيبوننى.

خَبَّابُ بن الأَرَت

إنه واحدٌ من الرعيلِ[1] الأولِ الذين سبقوا إلى الإسلام.

فكمْ أنتَ عظيمٌ يا خَبّابُ يابنَ الأَرتّ!

لقد كنت من نُجباء السابقين كما رُوِيَ عن مُجاهد: «كان أولَ من أظهر إسلامَه رسولُ اللَّه ﷺ.. وأبو بكر.. وخَبّاب.. وبِلال.. وصُهَيْبٌ.. وعَمّار..»

قال لك عمرُ بنُ الخَطَّابِ ذاتَ يَوْمٍ:

أُدْنُهْ[2]؛ فما أحدٌ أحقَّ بهذا المجلس منك إلا «عَمّار»!

فجعلتَ تُريه شيئا من آثار تعذيبِ قريشٍ!

نزل في شأنك «قرآن كريم» كما جاء في أسباب النزول للسيوطى على لسانك؛ فقد قلت:

كنت قَيْنًا[3] بمكة، فعَمِلْتُ للعاصِ بن وائل (والد عمرو بن العاص) سيفا!

فجئتُ أتقاضاه[4]، فقال: لا أُعْطيكَ حتى تكفُرَ بمحمد!

فقلت: لا أكفرُ بمحمدٍ ﷺ حتى تموتَ ثم تُبْعَثَ!

فقال: إذا بُعِثْتُ كان لى مال فسوف أقضيك[5]!

فقلت ذلك لرسول اللَّه ﷺ، فأُنْزِلَتِ الآيةُ: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾

[مريم 77 – 80].

---

(1) الرعيل: السابقون.

(2) ادنه: اقترب. فعله دنا. يدنو أُدنُ.

(3) القين: الحداد، وصانع السيوف.

(4) أطلب أن يدفع إليَّ ثمنه.

(5) جاء في أسباب النزول للسيوطي.

نعم لقد ضربتَ المثل ياخَبّابُ لمن يأتى بعدَك في التمسكِ بدينِك، والصَّبْرِ على الأَذى، ومواجهةِ أعداءِ الحق!

فلم يعرفِ التاريخُ القُرشِيّ هَوْلًا أشدَّ مما نزل بك يا خَبابُ يابنَ الأرَتّ من بين أتباعِ سيدنا محمد ﷺ.

فكيف كانت بدايةُ هذا الهَوْل؟

كان خَبَّابٌ صَيْقَلِيًّا[1] ماهرا يصنع السيوف لأهلِ مكةَ في الجاهلية!

ولكنه كان يُعانِى مما حدَثَ له في صِغَرِه!

فقد سُبِىَ[2] في الجاهلية فبيع بمكة، فأصبح بين غمضة عين وانتباهتِها عبدًا ومَوْلًى لأم «أنمارِ الخُزَاعية!».

وحين جاء اليوم الذي أطلّ فيه نورُ رسالة سيدنا محمد ﷺ على الكَونِ أضاء قلبَه فملأه إشراقًا ونورًا، فأسرع إلى «أبى بكر» لِيَصْحَبَه إلى النبى ﷺ ولِيُعلِنَ إسلامَه على يديه!

وليعودَ بعدها إلى مصنعه قريرَ العين راضيَ النفس!

وبينما هو جالس في مصنعه إذ دخل عليه فِتْيَةٌ من قريشٍ كانوا قد أوصُوْه بصُنْع أسيافٍ لهم وإذا هو ساهمٌ شرِدٌ والبسمةُ الحُلوةُ تتراءى على شفتيه، تُرَى فيمَ يُفكر؟

إنه يفكر في الحُرِّيَّة.. وفي هذا الدين الجديد الذي سيحررُ العبيدَ، ويُسَوّى بينَهم وبين السَّادَةِ! لافضلَ لأبيضَ على أسودَ، إلا بالتَّقْوى والعملِ الصالح!

وإنه ليتراءى له ذلك المستقبلُ العظيمُ للإسلام والمسلمين حين تُصبح كلمةُ اللَّهِ هى العليا، وكلمة الذين كفروا السُّفلى!

وإن غَدًا لناظرِه قريب!

(1) هو الذي صناعته صقل السيوف، وكذلك الصقَّال.

(2) سُبِىَ: أُسِرَ.

ولكنّ هؤلاءِ «الفِتيةَ» قطعوا عليه سِلسِلَة أفكارِه وتصوراتِه بسؤالهم إياه: هل أتممت صنعَ سيوفِنا؟

فيرد عليهم قائلا: وهل سمعتُم عَمَّا هو أقوى من كُلِّ سيوفِكُمْ؟

فقال: ذلك الدينُ الجديدُ الذي أتى به محمدٌ ﷺ، وأخذ يُرَتِّلُ على مسامعهم بعضَ الآياتِ الشريفةِ من كلامِ اللَّهِ الذى نزل به جبريلُ عليه السلام على قلبِ النبيِّ ﷺ ليُنذرَ قومَه، ويُبَلِّغَهم رسالةَ ربِّه!

وما كادوا يسمعونَ حديثَه عن الإسلام والنبيِّ ﷺ حتى انهالوا عليه لَكْمًا[1] ورَكْلًا، وليس فيهم رجلٌ رشيدٌ يدفعُ عنه ما حلّ به!

وياليت الأمرَ وقفَ عند هذا الحدِّ بل إنّ واحدًا منهم عَمَدَ إلى قطعةِ حَديدٍ فأحمُوها في النار، وألصَقُوها بجسَده لكى يرجعَ عن هذا الدين الذى حدّثهم عنه، ولم يتركوه حتى أفْقَدُوه الوعيَ!

وتشتد حملة التعذيبِ حتى لا يتزايد أتباعُ الدين الجديد من أمثال بلال.. وعمَّار.. وخَبَّاب!

تخفيف الآلام

ويُتاحُ لأولئك المستضعفين مع الرسول ﷺ لقاءٌ فيُخَفِّفُ عنهم، ويُواسيهم، ويَحُثُّهم على مزيد من الصبرِ، ويحدثهم عن نماذجَ عُليا سبقتهم على الطريق كان الواحدُ منهم يُحْفَرُ له في الأرضِ، ثم يُجاء بالمِنشار، فيُجعَلُ فوقَ رأسِه ما يَصْرِفُه ذلك عن دينه!

ويُمْشَط بأمشاطِ الحديد ما بينَ لَحْمِه وعَظْمِه، فما يصرفُه ذلك عن دينه!!

وتنتعش نفوسهم من جَديد، ويَقْوَى الأملُ في نفوسهم في غَدٍ أفضلَ، وعالَم أجملَ في ظِلالِ الإسلام!

وبالصَّبْرِ بيلغ الإنسانُ ما يريد، ويَلينُ له الحديد!

(1) اللكم: الضرب بجُمْع اليد، والركل: الضرب بالرجل.

طلب النجدة

وأمامَ صبْرِه عجَزَت قريشٌ عن تحقيقِ هدفِها فاستعانت بمولاتِه وسيدتِه التى اشترته بمالهَا يوم أن أُسِر وبِيعَ في أسواقِ مكةَ!

وراحوا يَسْتَعْدُونَها[1] عليه لِتَتَفَنَّنَ في تعذيبه حتى تصرفَه عن دينه!

تُرَى ماذا فعلت «أُمُّ أَنْمَار؟».

لم تجد أمامَها إلا الكَىّ بالنَّار!

تأخذُ الحديدَ الملتهبَ، وتضَعُه فوق رأسِه، ولا تَتْركُه حتى يُصْعَقَ، ويُصبحَ بين الحياة والموت!

حتى إذا أفاقَ وجَدَ نفسَه مُقَيَّدا بسلاسلَ لا يستطيعُ الإفلاتَ منها!

ولكن لكل بدايةٍ نهايَة!، والليل مهما طال لابد أن يَنْجَلىَ، وغدا تشرقُ شمسُ الإسلام، واللَّه غالبٌ على أمرِه!

وإنّ بعد العُسرِ يُسرا، وبعدَ الشِّدَّة فَرَجًا!

ونجح خبابُ بن الأَرَتّ في الامتحانِ!، وحاز أعلى الدرجاتِ وكان الصابرَ المحتسبَ، فنظرَ اللَّهُ لَهُ، وأتَاهُ المدَد والفرج من عند اللَّه!

أم أنمار تعوي كالكلاب!

سبحانَ اللَّهِ القاهرِ فوقَ عبادِه وهو اللطيفُ الخبيرُ! لقد رأى عبدَه يُعّذَّب بالنارِ.. تُعذبهُ سيدتُه ومالكةُ رقَبتِه أمُّ أَنْمار!

وأتاه الفرج!

ولقد أصيبتْ أمُّ أَنْمار بمرض خطير جعلها تَعْوى منه كالكلاب.. لا يَهدأ لها بَالٌ، ولًا يَنْصَلِحُ لهَا حالٌ.. وجَرَّبُوَا معها ألوانًا من العِلاجِ، فكانت حالتُها تزدادُ سوءًا!!

وكان آخرُ الدَّوَاءِ - عِنْدَ العَربِ - الكىَّ بالنَّارِ!

(1) استعداه: استعانه، واستنصره.

يُكْوَى بها موضعُ الألَم من رَأْسِها!

ولكنَّ الألَمَ يزدادُ.. والعُواءُ يَعْلُو.. ولا أملَ في الشّفَاء!

ويزداد خَبَّابٌ يقينًا بعدلِ اللَّهِ ونصرِه، وتأييدِهِ لعبادِه المستضعفين.. ويزْدَادُ من ربه اقترابًا ليكون مِمَّنْ رضِيَ اللَّهُ عنه ورَضُوا عْنْهن وأعدّ لهم جناتٍ تجرى من تحتها الأنهار!

كاد المعلم أن يكون رسولا

لقد أقبل خَبّابٌ على دار «الأرقم بن أبى الأرقم» يتلقى ما أُنزِلَ على الرسول ﷺ آيةً آيةً.. وسورةً سورةً؛ حتى نبغَ في حفظِ ما يَتَنَزّل به الوحيُ الأمينُ على قلبِ خاتَم الأنبياء والمرسلين وحتى صار يُرجَعُ إليه في تَعليم الصحابةِ القراءةَ والكتابةَ.. وتعليمِ الأميين القرآنَ، وتفقيههم بأحكامِه ومعانيه!

ينتقلُ إلى بيوتِهم خُفية.. ويَلْقاهم سِرًّا، ويُبَلِّغُهُم ما نزلَ على النبى ﷺ!

وأصبح لخباب مدرسةٌ.. وتلاميذ.. يقرِئهم ويُعلِّمهم الكتابَ والحِكْمَة!

وممن تخرجوا في مدرسته «سعيدُ بنُ زيد»، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة وامرأته «فاطمةُ بنتُ الخطاب» أختُ عمرَ!

وعنْ طريقهِ كانَ إسلامُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ!

فلقد ذهب عمرُ إلى بيتِ أختِه وسيفُه في يدِه حين عَلِمَ أن أختَه فاطمةَ وزوجَها سعيدَ بنَ زيدٍ قد أسلما!

وكان خبَّابٌ آنذاكَ في بيتِ فاطمةَ، فطلبت منه أن يَختبئ خوفا عليه من بَطشِ عمرَ وفَتْكِه!

ويَسْمَعُ خَبّابٌ في مَخبَئِه صوتَ عمرَ وهو يقرأ القرآنَ في خُشوع بعدما جرى بينَه وبينَ أخته، ومدّ يدَه إلى الرُّقعة[1] التى كان خبابٌ يقرأ منها، ويقول: دُلُّونِى على محمدٍ، فَيخرجَ من مَخْبَئِه قائلا:

(1) الرُّقعة: قطعة من الورق أو الجلد تُكتب.

ياعُمَرُ، واللَّهِ إنى لأَرْجُو أن يكونَ اللَّهُ قد خصّك بدعوةِ نبيِّه ﷺ، فإنى سمعتُه أمس يقول:

اللهمّ أَعِزَّ الإسلامَ بأحبِّ الرجلين إليكَ:

عمرَ بن الخطاب[1]، أو أبى جهل».

وينطق عمرُ قائلا: وأين أجدُ محمدًا الآنَ يا خَبابُ؟

ويَرُدّ خَبّابٌ: تجدُه في دارِ «**الأرقم بنِ أبى الأرقم**».

ويمتلئ قلبُ خباب سعادةً حين ذَهب عمرُ إلى الرسولِ وأعلن إسلامَه!

واشتدت ضراوةُ قريش بالمستضعفين وهم الذين سبقوا إلى الإسلام، ولا عشائر لهم تمنعُهم وتحميهم، ولا قدرةَ لهم يمتنعون بها ويَتحصَّنون، وهؤلاء المستضعفون كبلالِ بن رباحٍ، وعمّارِ بن ياسر، وسُمَيَّةَ، وخبّابِ بن الأَرت، وصُهيب بن سِنان، وعامر بن فُهيرة، وغيرهم ممن عُذِّبوا في الإسلام فلم يرجعْ منهم أحدٌ عن دينه!

وفي حياتهم لنا سلوى وعزاءٌ، ولكلِّ قابضٍ على دينه وكأنه قابضٌ على الجمر!

ولما اشتدت ضراوةُ قريش بالمستضعفين ذهب خَبّابُ بنُ الأرتّ إلى رسول اللَّه ﷺ يَستَنْجِدِ به، قال خَبّابٌ:

شكونا إلى رسول اللَّه ﷺ وهو متوسِّدٌ في بُرْدِه في ظل الكعبة فقلنا: ألا تَسْتَنْصِر لنا[2]؟!

ألا تدعو لنا؟!

فقال: «**قد كان مَن قبلكم يُؤخَذُ الرجلُ فيُحفَرُ له في الأرض فيُجْعَل فيها، ثم يُؤتَى بالمِنشار، فيوضعُ على رأسه، فيُجعلُ نصفين، ويُمْشَط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعَظْمِه ما يَصُدُّه ذلك عن دينه!**

(1) أخرجه أحمد في مسنده والترمذى في سننه، وابن سعد في طبقاته والبيهقى في الدلائل، وأبو نعيم في الحيلة.

(2) ألا تطلب نُصرتنا على من يعادوننا ويؤذوننا؟!

واللَّه لَيُتِمَّنَّ اللَّهُ تعالى هذا الأمرَ حتى يسيرَ الراكبُ من صنعاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ فلا يخافُ إلا اللَّهَ والذئبَ على غنمه، ولكنكم تستعجلون[1]!».

ومرت أيام وأعوام، وهاجر المسلمون بدينهم إلى ربهم.

وفي المدينة المنورة كان لهم شأن وأيّ شأن.. ومع أنّ «خبابَ بنَ الأرت» من السابقين إلى الإسلام حيث أسلم قبل أن يدخل الرسول ﷺ دار الأرقم بن أبى الأرقم، وقبل أن يدعوَ فيها إلا أنه لم يهاجر حتى أراه اللَّهُ «أُمَّ أنمار» يُكْوَى رأسُها بالنار، وعندئذ هاجر وهو قرير العين.

خباب في المدينة

وفي المدينة المنورة يجد خبابٌ إخوةً متحابين أنصارا ومهاجرين، ويقفُ إلى جانب الرسول ﷺ في جميعِ غَزَواته، ويظلُّ عَلَمُ بطولتِه خَفّاقًا عاليًا في سماء مَثَلِه الأَعلَى الإسلامى إلى سنة سبع وثلاثين من الهجرة النبوية حتى قُدِّرَ له أن يَلْقى ربّه، ويُدفن جَسَدُه الطّاهِر في «صِفين».

ويمر الإمام عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقبره. فيسأل لمن هذا القبر؟! فقيل: هو لخباب ابن الأرت، فيقول: رحم اللَّه خَبّابًا.. لقد أسلم راغِبًا.. وهاجرَ طائعًا.. وعاش مجاهدًا.

وهكذا يضرب المثل لنا في التضحية أحد المستضعفين الذين لا حولَ لهم ولا قوةَ إلا باللَّه!

(1) أخرجه الإمام أحمد في مسنده. 5/ 110.

سلمان ابن الإسلام

نحن الآن مع واحدٍ من عُقلاءِ الرجال وعُبّادهم، ونُبلائهم. هو: «**أبو عبدِ الله الفارسى**» سابقُ الفُرسِ إلى الإسلام!

صَحِبَ النبيَّ ﷺ، وخدَمَه، وحَدّث عنه!

وكان لبيبًا حازمًا.

وكان لمشورتهِ على المسلمين «يَومَ الأحزابِ» أثرُها في رَدِّ الأعداءِ مَدْحورين، فهو الذي أشارَ على الرسولِ وأصحابِه بحفْر الخندقِ حين رأى أعداءَ الإسلامِ قد تجمَّعوا وزَحَفُوا نحوَ المدينةِ لِضَرْبِ الإسلامِ والمسلمين ضربةً قاضيةً!

وكان «**سلمانُ**» مَوضعَ احترامِ المسلمين منذ كَرَّمَهُ الرسولُ ﷺ بقوله «**سَلْمَانُ مِنَا آلَ البيتِ**»[1].

ويُرْوَى أنه زارَ القُوَّاتِ المرابِطَةَ على الحدودِ فخرج الناسُ للقائه كما يُتَلَقّى الخليفةُ فلم يبق فيهم شَرِيفٌ إلا عَرض عليه أن ينزِلَ به!

ولكنه سأل عن «**أبى الدَّرداء**» وكان يرابط على حدود بيروت وهناك قال سلمان:

يا أهل بيروتَ ألا أحدثُكُم حديثًا يُذهِبُ اللَّهُ عنكم عَرَضَ الرِّباطِ؛ سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**رِباطُ يَوْمٍ وليلةٍ كصِيَامِ شهرٍ وقيامِه!**

ومن مات مرابطًا أُجيرَ من فِتْنَةِ القَبْرِ.. وجَرَى له صالحُ عملهِ إلى يومِ القيامة»

(أخرجه مسلم)

(1) أخرجه ابن سعد 4/ 1/ 59 والحاكم 3/ 598.

ويَحْكى عبدُ اللَّهِ بنُ عباس قصَّتَه كما رواها سَلمانُ، فيقول: حدثنى «سَلْمانُ الفارسيُّ» قال:

«كنتُ رجلًا فارسِيًّا من أهلِ أَصْبِهان.. من أهلِ قريةٍ منها يُقال لها: «جَيٌّ».

وكان أبى دِهقانُها (رئيسُها).

وكنت أَحَبَّ خلقِ اللَّهِ إليه!

فلم يَزَلْ بى حُبُّهُ إياىَ حتّى حَبَسَنى في بيته كما تُحْبَس الجارية (الصّبية).

فاجتهدْتُ في المجوسيَّة (عقيدة المجوس في تقديس الكواكب والنار).

حتى كنتُ «**قاطِنَ النار**» (الذي لا يتركها تخْبُو ساعة).

وكانت لأبى ضَيْعَة عظيمة (أرض مُغِلّة).

فَشُغِل في بُنيان له يوما فقال لى: يا بُنَىّ!

إنى شُغلْتُ في بُنْيانى هذا اليومَ عن ضَيْعَتى؛ فاذهب فاطَّلِعْها[1]، وأَمَرنى ببعضِ ما يريدُ.

فخرجتُ، ثم قال: لا تَحْتَبِسْ علىّ (لا تتأخر عنى) فإنك إن احْتبستَ علىّ كنتَ أهمَّ إلىّ من ضَيْعَتى! وشَغَلْتَنى عن كلِّ شيءٍ من أمرى!

فخرجتُ أريدُ ضيعتَه، فمررت بكنيسةٍ من «**كنائسِ النَّصارَى**».

فسَمِعتُ أصواتَهم فيها وهم يُصَلُّون!

وكنت لا أدْرى ما أمرُ الناسِ؛ بحبسِ أبى إياىَ في بيْتِه!

فلما رأيتُهم أعْجبتْنى صَلَواتُهم، ورَغِبتُ في أمرِهم وقلت: هذا - واللَّه - خَيرٌ من الدينِ الذي نحن عليه!

فواللَّهِ ما تركتُهم حتى غَربَتِ الشمسُ، وتركتُ ضيعةَ أبى ولم آتِها!

فقلتُ لهم: أين أَصْلُ هذا الدين؟

(1) اطَّلِعْها: انظر لى أحوالها.

قالوا: بالشامِ!

قال: ثم رجعْتُ إلى أبى، وقد بعثَ في طَلَبى، وشَغَلْتُه عن عملِه كلِّه!

فلما جئتُه قال: أَيْ بُنَيَّ! أين كنتَ؟!

ألم أكُنْ عَهِدتُ إليك ما عَهِدْتُ؟

قلت: يا أبَتِ مررتُ بناسٍ يُصَلّونَ في كنيسة لهم، فأعجَبَنى ما رأيتُ من دينهم، فواللَّهِ ما زلتُ عنَدهم حتى غَرَبَتِ الشمسُ.

قال: أيْ بُنَىّ! ليسَ في ذلك الدين خَيْرٌ، دينُك ودينُ آبائك خيرٌ منه.

قلتُ: كلا -واللَّه - إنه لخيرٌ من دِينِنَا!

قال: فَخافَنى، فجعلَ في رِجْلَىّ قَيْدا، ثم حبسنى في بيْتِه!

قال: وبعثت إلىَّ النصارى فقلت: إذا قَدِم عليكم رَكْبٌ من الشام تجّارٌ من النصارى، فأخبرونى بهم.

فقدِم عليهم ركْبٌ مِنَ الشام.. قال: فأخبرونى بهم، فقلت: إذا قَضَوْا حوائجَهم، وأرادوا الرجعة، فأخبرونى.

قال: ففعلوا، فألقيت الحديدَ من رِجْلَىْ،ثم خرجت معهم، حتى قدِمْتُ الشامَ!

فلما قدمتُها قلت: من أفضلُ أهلِ هذا الدين؟

قالوا: الأَسْقُفّ (لقب دينى فوق القسيس ودون المطران) في الكنيسة فجئتُه، فقلت: إنى قد رغبتُ في هدا الدين، وأحببتُ أن أكونَ معك أخدمك في كنيسَتِك، وأصلى معك.

قال: فادخُلْ، فدخلتُ معه!

فكان رجل سُوء؛ يأمرُهم بالصدقةِ، ويُرَغِّبهم فيها، فإذا جمعوا إليه منها شيئا اكتنزه لنفسه، ولم يُعْطِهِ المساكين حتى جمع سبعَ قِلال[1] من ذَهَب ووَرِق (فضة).

فأبغضتُه بُغْضًا شديدًا لما رأيتهُ يَصْنَعُ.

ثم مات، فاجتمعتْ إليه النصارى ليَدفِنُوهُ، فقلت لهم: إنّ هذا رجلُ سوءٍ، يأمرُكم بالصدقةِ، ويُرَغِّبكُم فيها، فإذا جئتم بها كنَزَها لِنَفْسِه، ولم يُعْطِ المساكينَ، وأرَيْتُهم موضعَ كَنْزِه سبعَ قِلالٍ مملوءةٍ، فلما رأوْها قالوا: واللَّهِ لا نَدْفِنُه أبدًا.

فصَلَبُوه، ثم رمَوْهُ بالحِجارة، ثم جاءوا برجُلٍ جَعَلوه مكانَه، فما رأيتُ رَجُلا أزْهد منه في الدنيا، ولا أرْغب في الآخرة، ولا أدأبَ ليلا ونهارا، ما أعلمنى أحببت شيئا قَطّ قبلَه حُبَّه.

فلم أزَلْ معه حتى حضَرَتْه الوفاةُ، فقلت: يا فلانُ! قد حضَرَك ما تَرَى من أمرِ اللَّهِ، وإنى - واللَّه- ما أحببت شيئا قَطُّ حُبَّك!

فماذا تأمرنى؟ وإلى من تُوصِينى؟

قال لى: يا بُنَىّ، واللَّهِ ما أَعَلَمُه إلا رجلًا بالمَوْصِلِ؛ فائته؛ فإنك ستَجِدُه على مِثْل حَالِى!

فلما مات، وغُيّب (دُفن) لحقتُ بالمَوْصِل، فأتيتُ صاحِبها، فوجدتُه على مِثلِ حالِه من الاجتهاد والزُّهدِ، فقلت له: إن فلانًا أوصانى إليك أن آتيكَ وأكونَ معك.

قال: فأَقِمْ، أي بُنَىّ.

(1) جمع قلة، وهى الجرة العظيمة.

فأقمت عندَه على مثلِ أمرِ صاحبِه حتى حضرتْه الوفاةُ، فقلت له: إن فلانًا أوصى بى إليك، وقد حضَرَكَ من أمرِ اللَّهِ ما ترى، فإلى مَن تُوصى بى؟ وما تأمُرُنى به؟

قال: واللَّهِ ما أعلمُ، أي بُنَىّ إلا رجلًا بنَصِيبين.

فلما دفَنّاه لَحقْتُ بالآخَر، فأقمتُ عندَه على مثل حالهم حتى حَضَرَهُ الموتُ فأوصَى بى إلى رجل من عَمُّورِية بالروم (مدينة فتحها العرب أيام المعتصم) فأتيتُه فوجدتُه على مثل حالهما، واكتسبت حتى كان لى غُنَيمة (أغنامٌ قليلة) وبُقَيْرات.

ثم احْتُضِر (حضرته الوفاة)، فكلمتُه: إلى من يُوصِى بى؟

قال: أىْ بُنَىّ!

واللَّه ما أعلَمُه بقى أحدٌ على مثل ما كُنَّا عليه آمرُك أن تأتَيه، ولكن قد أظلَّك زمانُ نبيٍّ يُبْعَثُ من الحرم، مُهاجَرُهُ (مكان هجرته) بين حَرّتَين (الحرة: أرض بها حجارة سود) إلى أرض سَبخَة ذاتِ نَخْلٍ، وإنّ فيه علاماتٍ، بين كتفيه خاتَمُ النُّبُوَّةِ!

يأكلُ الهديةَ ولا يأكلُ الصدقةَ؛ فإن استطعتَ أَنْ تخلُصَ إلى تلكَ البلادِ فافْعَلْ؛ فإنه قد أظَلَّك زمانُه!

فلما واريناه[1]، أقمتُ حتى مَرّ بى رجالٌ من تجارِ العربِ من كَلْبٍ[2]، فقلت لهم:

تَحْملُونى إلى أرْضِ العَرَبِ، وأُعْطيكُم غُنَيْمَتِى وبقراتى هذه؟

(1) واريناه: دفناه.

(2) قبيلة.

قالوا: نعم، فأعطيتُهم إياها وحَمَلُونى، حتى إذا جاءوا بى إلى «وادى القُرى»[1] ظلمونى، فباعُونى عَبْدا من رجل يهوديٍّ بوادى القُرَى؛ فواللَّه لقد رأيتُ النخلَ وطمِعتُ أن يكون البلدُ الذي نَعتَ لى صاحِبِى (وصفه لى).

وما حَقّتْ[2] عِنْدِى حتى قَدِمَ رجلٌ من «بنى قريظة» وادى القُرَى، فابتاعنى (اشترانى) من صاحبى، فخرج بى حتى قَدِمنْا المدينةَ.

فواللَّه ما هو إلا أن رأيتُها فعرفْتُ نعتَها.

فأقمتُ في رِقِّى، وبعث اللَّهُ نبيَّه ﷺ بمكةَ لا يُذْكرُ لى شيءٌ من أمْرِه مع ما أنا فيه من الرِّقِّ حتى قدِمَ رسولُ اللَّه ﷺ قُبَاءَ، وأنا أعملُ لصاحبى في نَخْلةٍ له، فواللَّه إنى لَفيها إذ جاء ابنُ عَمٍّ له، فقال: يا فلانُ!

قاتل اللَّهُ بنى قَيْلَة (الأنصار)، واللَّه إنهم الآنَ لَفِى قُبَاء مُجْتمعون على رَجُلٍ جاء من مكةَ يزْعمون أنه نبيٌّ.

فواللَّه ما هو إلا أَنْ سَمِعْتُها فأخذتْنِى العُرَواء (يقول: - الرِّعدة- حتى ظننتُ لأَسْقُطَنّ عَلَى صَاحِبى!)

ونزلتُ أقول: ما هذا الخبرُ؟!

فرقع مَوْلَاى يَدَه فلكَمَنِى لكْمةً شديدةً وقال: مالك ولهذا؟! أقْبِل على عَمَلِك!

فقلت: لا شىء، إنما سمعتُ خبرًا فأحببتُ أن أَعْلَمَه.

فلما أمسيتُ، وكان عِندى شيءٌ من طعامٍ، فحملتُهُ، وذهبتُ إلى رسول اللَّه ﷺ وهو بقُباء، فقلت له:

بلغنى أنك رجلٌ صالح، وأن معك أصحابًا لك غُرَبَاء، وقد كان عندى شيءٌ من الصدقة، فرأيتكُم أحقَّ مَن بهذه البلاد، فهاك هذا، فكُلْ منه!

(1) وادٍ قريب من المدينة.

(2) ما ثبتت وصحت وصدقت.

قال: فأمسكَ، وقال لأصحابه: «**كُلوا**».

فقلت في نفسى: هذه خَلَّةٌ (صفة) مِمّا وصَفَ لى صاحبى.

ثم رجعتُ، وتحوّل الرسولُ ﷺ إلى المدينةِ، فجمعتُ شيئًا كان عندى، ثم جئتهُ به، فقلت: إنى قد رأيتُك لا تأكلُ الصدقةَ، وهذه هديةٌ، فأكل الرسولُ ﷺ وأكلَ أصحابُه، فقلت: هاتان خَلّتان.

ثم جئتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ وهو يتَّبع جَنازةً، وعليَّ شَملَتَان لى، وهو في أصحابه، فاستدرْتُ أنظر إلى ظهرِه هل أرى الخاتَمَ الذي وَصَفَ؟!

فلما رآنى استدْبَرْتُه (وقفت خلفه) عرف أنِّى أستثبِتُ في شيءٍ وُصِفَ لى، فألقى رداءَه على ظَهْره، فنظرتُ إلى الخاتَم فعرفتهُ، فأنكَبْبتُ عليه أُقَبِّله وأَبْكى!

فقال لى: تَحَوّل (تعالَ أمامى) فتحوَّلْتُ. فقصصت عليه حديثى كما حدثتُك عنه يابْنَ عباسٍ، فأَعْجَبَ رسولَ اللَّه ﷺ أن يستمع ذلك أصحابُه.

ثم شَغَلَ سلمانَ الرّقُّ[1] حتى فاته مع رسول اللَّه ﷺ شُهُودُ بَدْر وأُحُد.

ثم قال رسولُ اللَّه ﷺ: كاتِبْ يا سَلْمانُ (اكتب على نفسك لسيِّدك مالًا تؤديه إليه مُقَسَّطًا لتصير حرا).

فكاتبْتُ صاحبى على ثلاثمائة نَخْلَةٍ أحْيِيها له بالفقير (الحفرة) وبأربعين أوقية.

فقال الرسولُ ﷺ لأصحابه: «**أعينوا أخاكم**»، فأعانونى بالنخل الرجل بثلاثين وَدِيّة[2] (صِغَار الفسيل)، والرجلُ بعشرين، والرجلُ بخمس عشرةَ حتى اجتمعت ثلاثمائة وَدِيّة.

فقال: «**اذهب يا سَلمانُ ففَقّر لها (احفرْ لها)، فإذا فرغت فائتني أكونُ أنا الذي أضَعُها بيدىّ**».

---

(1) لم ينل حريته.

(2) واحدة الوَدِىّ. وصغار الفسيل.

فَفقَّرت لها، وأعاننى أصحابى حتى إذا فرَغتُ منها جئتُه وأخبرتُه، فخرج معى إليها نُقَرّبُ له الوَدِى (النصبة) ويضعه بيده.

فوالذى نفسُ سلمانَ بيده ما ماتت وَدِيّةٌ واحدة.

فأدَّيْتُ النخلَ، وبقى علىّ المال!!

فأتى رسولُ اللَّه ﷺ بمثلِ بيضةِ دجاجةٍ من ذهب من بعض المغازى، فقال: «**ما فعل الفارسىُّ المكاتَبُ**»؟

فدُعيتُ له، فقال: «**خُذْها فأَدِّ بها ما عليك**».

قلت: وأين تقع هذه يا رسولَ اللَّهِ مما عَلَيّ؟

قال: «**خذها، فإن اللَّهَ سيؤدى بها عنك!!**»

فأخذتُها فوزنتُ لهم منها أربعين أوقية، وأوفَيْتُهم حقّهم وعُتِقْتُ!

فشهدتُ مع رسول اللَّه ﷺ الخندقَ حُرًّا، ثم لم يفتتى معه مَشْهَدٌ (غزوة شهدها رسول اللَّه ﷺ)[1].

ويتألقُ سَلْمانُ بعدَ أن نال حريتَه.. وكان اليهودُ قد شرعوا في التآمر من جديد على المسلمين، وأخذوا يعدون العُدّة لتوجيه ضربة إلى المسلمين تكون قاتلة لا حياةَ بعدها!

خرج عشرون رجلا من زعماء اليهود وسادات بنى النضير إلى قريش بمكة يُحَرِّضُونَهم على غزو الرسول ﷺ، فاستجابوا لهم.

ثم خرج هذا الوفد في قبائلِ العرب يدعوهم إلى ذلك فاستجاب له من استجاب!

وإذا بهؤلاء جميعا يتحركون نحوَ المدينةِ في جيش بلغ عَدَدُهُ أكثر من عَشْرةِ آلافٍ!

(1) قال الذهبى: رجاله ثقات وإسناده قوى. وأخرجه أحمد 5/ 441 و 444.

وسارع الرسول ﷺ إلى عقدِ مجلس استشاريٍّ أعلى ناقش فيه خطة الدفاعِ عن المدينة مواجهة ذلك الجيشِ العَرَمْرَم!

وكان الصحابيُّ النبيل سَلْمانُ الفارسِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد تقدم بخُطةٍ وقائيةٍ إلى رسول اللَّه ﷺ حيث قال: يا رسولَ اللَّه، «إنا كنا بأرض فارسَ إذا حوصرنا خندقنا علينا».

وأقر المجلس بالاجتماع خُطةَ سلمانَ.

وأسرع الرسولُ ﷺ إلى تنفيذها!

ونجحت الخُطّةُ ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا﴾ [الإحزاب: 25]

ويتنازع كبارُ الصحابةِ على سلمانَ فيوَدّ كلُّ فريق أن يكونَ سلمانُ منه، ويقول الرسول ﷺ: «**سَلْمانٌ مِنَّا آلَ البيتِ**».

وأصبح لِسَلْمانَ وجودُه وحضوره في مجتمع المدينة.. فقد كُتِبَ لِسَلْمانَ أن يعيشَ مع أبى الدرداء بضعة أيام في دار واحدة، فكان أبو الدرداء يصوم النهارَ، ويتعبدُ بالليل، ويراه سلمانُ يفعل ذلك فيلومه، فيقول أبو الدرداء: أتمنعنى أن أصومَ لربى، وأصلى له؟!

فيجيبُه سلمانُ بهدوءِ الواثقِ من صحةِ ما يقول: إن لبدنك عليك حقًّا، وإن لزوجِك عليك حقا، وإن لربِّك عليك حقا.. صُم وأَفْطر.. وصَلّ وَنَمْ.

ويبلغ هذا الخبرُ رسولَ اللَّه ﷺ فيُصدرُ حكمه فيه ويُثْنى على سلمان .. قائلا: «**صدق سَلْمانُ**».

وعندما اتَّسَعَتْ أسبابُ الحياة وتدفقت سبائك الذهب، ونفائس المتاع أيامَ عُمر ونعمَ الجميعُ بما آل إليه أمرُ المسلمين.. كان سلمانُ قابعًا في ظل سقف من جَريد وهو يُضَفِّرُ الخوص ويَجْدِلهُ ليصنع منهُ أوعيةً ومكاتلَ، وعليه ثوب لشدةِ قِصَرِه انحسرَ إلى ركبتيه!

وربما يزداد عجبُك إذا عرفت أنسهمَ سلمانَ من العطاء لم يكن يقل عن أربعة آلاف إلى ستة آلاف درهم مما يُتيح له أن يعيشَ في رخاء من العيش.

لكنه كان يُنفق دخله في سبيل الخير والصلاح، ويقتات ليومِه من جُهدِ عملهِ وعَرَق جَبينه أُسْوَةً بالأنبياء والأولياء!

ويكى لنا أسلوبَه في كسبِ العيشِ فيقول:

أشترى خوصا بدرهم، ثم أبيعه بثلاثة دراهم، فأُعيد درهما فيه، وأنفق درهما على عيالى، وأتصدق بالثالث. ولو أن عمرَ بنَ الخطاب نهانى عن ذلك ما انتهيت (وعمر يومذاك خليفةَ)

ويعرض عليه عمرُ «الإمارةَ» فيأبى قائلا:

«إن استطعتَ أن تأكلَ الترابَ ولا تكونَ أميرا على اثنين فافعل».

لكنه يحاول معه فمثله جدير بأن يكونَ مثلا يحتذى!

ويقبلُ الولايةَ على المدائن عاصمةِ الفرس فكان كعهدنا به لا تمس يدُه درْهمًا من كُلِّ حَقِّهِ عن طريق الإمارة!

وهو هو صانع الخوص وبائعه!

رحم اللَّه سلمانَ وجزاهُ عن الإسلامِ خيرَ الجزاء.

وسلام عليه يوم مات.. ويوم يُبعث حَيًّا!.. سلام عليه يوم أخذ يبحث هنا وهناك عن الخير والشر.. عن الهُدى والضلال!.. عن الحق والباطل.. عن الإيمان والكفر.. حتى عرف الحقَّ وآمن به.. وصار من أهل بيت الرسول ﷺ!

إنه سلمان ابن الإسلام وكفى!

صهيب سابق الروم

تعال معي إلى «صُهَيْب بن سِنان» سابق الروم بعد أن عشنا مع سلمانَ سابقِ الفُرسِ، على أملَ أن نعيش مع بلالٍ سابقِ الحَبشةِ.

روى ابنُ عَدِيٍّ عن صُهَيْب قال: «**صحبتُ رسولَ اللَّه ﷺ قبل أن يُبْعَثَ**».. كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من المستضعفين مِمّن يعذبون في اللَّهَ!!

روى ابن سعد أنه أسلمَ هو و «عَمّارٌ» ورسولُ اللَّهِ ﷺ في دارِ الأَرْقَم.

ويقول ابن سعد: كان أبوه وعَمُّه على الأُبلة[1] من جهةِ كسرى وكانت منازلُهم من جهةِ المَوْصِل فنشأ صهيبٌ بالروم!

ويقال: إن الرُّومَ سَبَوْه[2] صغيرا، فلهذا يقالَ: له الرومى.

وظلّ صُهَيْبٌ إلى جانبِ الرسولِ ﷺ حتى جاءَ الإذنُ بالهجرة إلى المدينة!

وكما خرج عمرُ بنُ الخَطاب على رأسِ الأَشهادِ وقال لهم: من أراد أن تثكلَه[3] أمُّه، أوَ يَيْتم ولدُه فَلْيخرجْ وراء هذا الوادى - خرج صُهَيْبٌ مُهَدِّدًا مُتَوَعِّدا من تمتد يدُه بالأذى إليه، أو يحولُ بينه وبين الهجرة إلى المدينةِ المنورة ليكونَ مع المهاجرينَ والأنصارِ!

فقد أخرج الحارث بن أبى أسامة في مسنده، وابن أبى حاتم عن سعيد بن المسيب قال: أقبَلَ صهيبٌ مهاجرًا إلى النبىِّ ﷺ فاتّبَعَه نفرٌ من قُرَيْشٍ فنزل عن راحلتِه، وانتثل ما في كنانته[4]، ثم قال:

يا معشرَ قريش، لقد علمتُم أنّى من أرماكم[5]!

ولا تصلون إلىّ حتى أرميَكم بكل سَهمٍ!

---

(1) بلد قرب البصرة، وعلى الأبلة: واليا عليها.

(2) سَبَوه: أسروه.

(3) تفقده.

(4) الكنانة: وعاء النبل. انتثل ما فيها: استخرجه.

(5) أحسنكم رميا.

ثم أضربَكم بسيفى!

فإن كنتم تريدونَ مالى دلَلْتُكُم عليه!

فرَضُوا؛ فعاهدهم ودلّهم.. فرجعوا فأخذوا ماله! فلما جاء إلى النبى ﷺ قال له: «رَبحَ البيعُ أبا يَحْيَى».

ونزلت: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾[البقرة: 207].

وإذا كانت هذه الآية قد نزلت في صهيب، فإن هناك آيةً أخرى قد نزلت في «عَمّار» و«صُهَيب» وغيرهما من المستضعفين فقد روى ابن سعد قال:

كان عمارُ بنُ ياسر يُعَذَّب حتى لا يَدرى ما يقول، وكذا صُهَيْبٌ، وأبو فائد، وعامر بن فُهَيْرَةَ، وقومٌ، وفيهم نزلت هذه الآية: [1].

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: 110].

لقد هاجروا من ديارهم وعشائرهم، فانتقلوا عنها إلى ديار الإيمان، ثم جاهدوا المشركين بالسيف من بعدِ ما فَتَنَهم المشركون بالسيف من بعدِ ما فَتَنَهم المشركون إذْ كانوا بين أظهُرِهم!

إن ربك من بعدها لغفور رحيم بهم.

وكان صهيبٌ ألكنَ[2]!

روى البغوي عن طريق زيد بنِ أسلمَ عن أبيه:

خرجت مع عمرَ حتى دَخلتُ على صُهَيب بالعالية[3]!

فلما رآه صهيب قال: يا ناس.. يا ناس.

فقال عمر: ما له يدعو الناسَ؟!

---

(1) أسباب النزول للسيوطى، وأخرج الحاكم نحوه عن طريق ابن المسيب عن صهيب موصولا. وأخرجه ابن سعد في الطبقات 3/ 228.

(2) في لسانه عِيٌّ وثقل يصعب عليه الإفصاح بالعربية كالأجانب في زماننا.

(3) العاليه: ما فوق نجد إلى تهامة إلى ما وراء مكة.

قلت: إنما يدعو غلامه «يُحَنّس».

فقال له: يا صُهَيْبُ، ما فيك شيءٌ أعيبُه إلا ثلاثَ خصال:

- أراك تنتسِبُ عربيًّا ولسانُك أَعْجَميّ.
- وتكنى باسم نبى.
- وتَبْذُرُ مالك.

قال: أما تبذيرى مالى فما أُنْفِقُه إلاّ في حَقٍّ!

وأما كُنيتى فَكنَّانِيها النبى ﷺ[1].

وأما انتمائى إلى العربِ فإن الروم سبتنى صغيرا فأخذت لسانَهم.

••منزلته••

لما مات عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أوصى أن يُصَلِّىَ عليه صُهَيبٌ، وأن يصلىَ بالناسِ إلى أن يجتمعَ المسلمون على إمام (رواه البخارى).

ولا عجب في هذا الاختيارِ المُوَفّق من عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقد روى الحَميدىُّ والطبرانىُّ مِن حديث صهيب عن طريق الستة عنه قال: لم يشهدْ رسولُ اللَّهِ ﷺ مَشْهدًا قطُّ إلا كنتُ حاضرَه!

- ولم يُبايع بيعةً قَطُّ إلا كنتُ حاضرَها!
- ولم يَسْرِ سرِيّة قط إلا كنت حاضرَها!
- ولا غزا غَزاةً إلا كنت فيها عن يَمينهِ أو شِماله.
- وما خافوا أمامهم قط إلا كنتُ أمامَهم.
- ولا ما وراءَهم إلا كنت وراءهم.

وما جَعَلْتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ بينى وبين العدو قط حتى تُوُفِّى.

وجاء في فضائل الصحابة[2]:

«باب من فضائل سلمان وصُهيبٍ وبِلالٍ رضى اللَّه عنهم».

---

(1) حيث كنّاه أبا يحيى، عن صهيب قال «كنَّانى النبى ﷺ أبا يحيى» طبقات ابن سعد 3/ 227.

(2) أخرجه مسلم 2504 في فضائل الصحابة.

عن عائذ بن عمرو أن سلمانَ، وصهيبا، وبلالا كانوا قُعُودًا، فمر بهم «أبو سفيان»، فقالوا:

ما أخذتْ سيوفُ اللَّهِ من عُنُقِ عدوِّ اللَّه مأخذها[1] بعدُ

فقال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخِ قريشٍ وسيدِها؟

قال: فأخْبِرَ بذلك النبى ﷺ فقال: «**يا أبا بكرٍ؛ لعلكَ أغضبتهم!! لَئِن كنتَ أغضبتَهم لقد أغضبت ربَّك!**».

فرجع إليهم فقال: أَىْ إخوانَنا؛ لعلكم غضبتُم؟

قالوا: لا يا أبا بكر؛ يغفرُ اللَّهُ لك».

وظل صُهيبُ بنُ سنان على عهده ووعده حتى لقي رَبَّه سنة ثمان وثلاثين عن سبعين سنة.

لقد كان صُهيبٌ، وسَلْمانُ، وبِلالٌ عبيدًا قبل إسلامِهم!

فلما أسلموا صاروا سادةً، وأصبح لهم شأنٌ!

إن الإسلامَ دينُ الجميع!

لا فرق بين رُومىٍّ، وحَبَشىٍّ، وفارسِىٍّ وعَرَبىٍّ..

إن الإسلامَ يرفعُ أهلَه!!

(1) قالوا هذا لأبى سفيان وهو كافر في الهدنة بعد صلح الحديبية.

بلالُ بنرباح سابق الحبشة
ومؤذن الرسول ﷺ السّبَّاق أربعة

الدولُ تتسابقُ كما يتسابقُ الأفراد.. في كل الميادين، وما أجملَ السبّاق في عملِ الخيرِ وخيرِ العمل!

وياويلَ من يتخلفُ عن الركُبِ، ويَسْبِقُه غيرُه!

وقد مدح اللَّه السّابقين، وقرّبهم إليه فقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: 10، 11]

ولقد جاء في الحديث عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبى ﷺ قال: والسّبَّاق[1] أربعة:

• أنا سابقُ العَرَب.. • وسَلْمانُ سابق الفُرس.. • وبلالٌ سابقُ الحَبشة.. • وصُهَيْبٌ سابقُ الرُّوم»[2].

••هكذا يكونَ المؤمن!••

حين أعلن بلال إسلامه وهو عبد تعرض لأقسى أنواع العذاب، ولكنه صَبر!

ويَرْوى ابنُ سعد في الطبقاتِ أن بلالًا لما ظَهَر مواليه على إسلامه مَطُّوه[3] في الشمسِ وجعلوا يقولون: إلهُك اللات والعُزى!

فبلغ أبا بكر فأتاهم، فقال:

علامَ تقتلونه؟؛ فإنه غيرُ مُطيعكم!

قالوا: اشْتَرِه!

فاشتراه بسبع أواقٍ[4].

---

(1) الكثير السبق.

(2) أخرجه أبو نعيم في الحلية 1/ 149 – و 185، والحاكم 3/ 285، وقال: تفرد به عمارة بن زاذان، وأقره الذهبى.

(3) مطُّوه: مَدّوه.

(4) أواقٍ: جمع أوقية، وتكون من ذهب أو فضة.

••بلال وأُميَّة بن خلف سيده••

قال ابن إسحاق: لما آمن بلال بالدين الجديد..

كان أميةُ بن خلف يُخْرجهُ إذا حَمِيَتْ الظهيرة؛ فيطرحُه على ظهرِه في بَطْحاءِ[1] مَكَّةَ!

ثم يأمرُ بالصخرةِ العظيمةِ على صَدرِه!

ثم يقول:

لا يزال على ذلك حتى يموتَ أو يكفُرَ بمحمدٍ!؛ فيقول: أَحَدٌ.. أَحَدٌ[2].

فمرّ به أبو بكر فاشتراه منه بعبدٍ أسودَ جَلْدٍ[3].

••حوار حول بيعه••

كان أبو بكر يمرُّ ببلالٍ وهو مَدفونٌ في الرمالِ فحاول أن يُخَلِّصَه مما يُلاقيه من عَذاب نفسِيٍّ وجسْمِيٍّ، وكان مالكوه على استعداد لبيعه بأبْخسِ الأثمان للتخلص منه، أو استبدالِه بعبدٍ آخرَ لا عَلاقةَ له بالإسلام!

ولقد أخرج «أبو نعيم» في كتابه: «حلية الأولياء» عن قيس قال: اشترى أبو بكرٍ بلالًا وهو مَدفُونٌ في الحِجارة بخمس أواقٍ ذَهَبًا!

فقالوا: لو أبيت إلا أوقية لبعْنَاكَهُ!

قال: لو أبيتم إلا مائة أوقيةٍ لأخذتُه.

وهكذا كان لبلال منزلتهُ عند أبى بكر الصديق!

وكان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يعرف له قدرَه ويقول: بلالٌ سَيِّدُنا.

---

(1) البطحاء والأبطح: مكان متسع يمر به السيل، فيترك فيه الرمل والحصى الصغار، والجمع أباطح.

(2) أي: اللَّه أحد.. لا شريك له.

(3) جَلْد: قوي.

••المشركون وفقراء الصحابة••

كان المشركون يأنَفُونَ من مُجالَسَة الفقراءِ، ولا يعجبهم أن يُسَوِّيَ الرسولُ ﷺ بينَ أصحابه كأسنانِ المُشْطِ وطلبوا من الرسولِ ﷺ أن يطردَهم.

وفي الحديث الذي رواه مسلم عن سعد بن أبى وقاص في باب فضائل الصحابة، يقول سعد: كنا مع رسول اللَّه ﷺ ستةَ نَفرٍ!

فقال المشركون: اطردْ هؤلاءِ عنكَ؛ فلا يَجْتَرِئون علينا!

وكنت أنا وابنُ مسعود وبلالٌ ورجلٌ من هُذيل، وآخران، فأنزل اللَّه عز وجل: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: 52 ، 53].

وظل بلالٌ على عهدِهِ ووعدِه حتى أذِنَ الرسولُ ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى المدينة فهاجر إليها ليكون مع حبيبه ﷺ.

••حَينٌ إلى مكة••

تُرَى هل يصفو له الجو بالمدينة! أو يحن إلى مكة؟!

تقول كتب السيرة: عندما هاجر الرسولُ ﷺ اتجه إلى مكة وقال: «**اللهمَّ إنكِ أحبُّ بلادِ اللَّه إليّ. ولولا أن قَومَكِ أخرجونى منك لما خَرجْتُ**».

وعندما هاجر الصحابةُ اشتدّ بهم الحنينُ إلى مكةَ وبخاصة أبو بكرٍ وبلالٌ!

وتقولَ السيدة عائشة - رضى اللَّه عنها : لما قدم النبيُّ ﷺ المدينةَ وُعِك[1] أبو بكر وبلالٌ!

فكان أبو بكر إذا أخذته الحُمَّى يقول:

(1) أصابتهما وعكة وحلَّ بهما مرض.

كُـلُّ امــرئٍ مَـصُـبَّـحٌ في أهْلِه والمـوتُ أدْنَـى من شِرَاكِ[1] نَعْله

وكان بلالٌ إذا أُقْلِع[2] عنه يَرْفَعُ عقيرته[3] ويقول:

ألا ليتَ شِعرى هل أبيتَنّ ليلةً ب بِوَادٍ وحوالى إذخرٌ وجَليلُ[4]!

وهَــلْ أردَنْ يومًا مِـيَـاهَ مَجَنّةٍ وهل يَبْدُوَنْ لي شامةٌ وطَفيلُ؟[5]!

اللهم العنْ عُتْبةَ، وشيبةَ، وأُميةَ بن خَلَفٍ كما أخرجونا من أرضِنا إلى أرضِ الوباء[6]!!

••بلال يُتمّ ما بدأه••

كانوا يعذبونه فيأبى إلا أن ينطق بكلمة التوحيد على الملأ منهم، وهم له كارهون: أحَدٌ.. أحدٌ.. أحَدٌ.. وكان الصبرُ عُدّتَه، والإيمانُ سلاحَه. وظلت الكعبة في انتظاره بعد هجرته ليُعلنَها عاليةً مُدوّيَةً على الملأ منهم مِن فَوقِها: اللّه أكبر.. اللّه أكبر..

لقد صَعِدَ بلالٌ فوق ظهر الكعبة وأذّن للصلاة..

وأنصت أهلُ مكةَ للنداء الجديد على آذانهم كأنهم في حُلم.. إن كلماتِه تقذفُ الرّعبَ في القلوب فلا تملكُ إلا أن تُوَلّى هاربةً.. أو تهرول إلى الإسلامِ آيبةً!

اللَّه أكبرُ اللَّهُ أكبرُ.. اللَّه أكبرُ اللَّهُ أكبرُ..

---

(1) أدنى: أقرب إليه. وشراك النعل: سير النعل على ظهر القدم. والمراد أن الموت قريب منه جدا. فكل منا مصاب بالموت صباحا.

(2) زالت وعكته.

(3) عقيرته: صوته.

(4) الإذخر: نبات طيب الرائحة. والجليل شجر الثمام.

(5) مجنة: موضع على بعد أميال من مكة وكان به سوق. وشامة وطفيل: جبلان بقرب مكة. وقال الخطابى: كنت أحسبهما جبلين حتى ثبت عندى أنهما عينان.

(6) أخرجه البخارى في فضائل المدينة باب (12) و (3926) في مناقب الأنصار: باب مقدم النبى ﷺ وأصحابه المدينة.

أشهدُ أن لا إله إلا اللَّهُ.. أشهد أن لا إلهَ إلا اللَّهُ.

أشهد أن محمدًا رسولُ اللَّه.. أشهد أن محمدًا رسولُ اللَّه..

ورددت أرجاءُ مكة معه هذا النداء!

وراح بلالٌ يتذكرُ أولئك الشهداء الذين عُذِّبوا وأوذوا.. تذكر آلَ ياسِر وكم تمنى أن يكونوا معه ليَشْهَدُوا هذا النصرَ العظيمَ.. كم تمنى أن يشهدَ معه أولئك الذين سبقوه على الطريقِ إلى الرفيقِ الأعلى!

ها هى ذى أرواحُهم ترفرفُ تسمعُ صوتَه يرنّ فوقَ ظهرِ الكعبةِ بشعار التوحيدِ.. والأصنامُ مكبوبةٌ على وجُوهِها مُسَوَّاةٌ بالأرض.. وها هم أولاء عُبّادُها الأقدمون قد ألقَوْا السَّلَمَ واتجهوا إلى الإسلام!

اهتزِّى طريا أيتها الكعبة، فقد حان الوقتُ لتتخلَّصى مِمّا حولَك من أصنامٍ وأوثان!

أما أنتم يا من سَبَقْتُم على الطريق فمِتّم أو قُتلتم فإن هذا النصرَ الذى يَجْنى ثمارَه الأحياءُ لكم فيه نَصيبٌ كبير!

وربنا لا يُضيع أجرَ مَن أحسَن عملا!!

وردد الجميع بعد أن سمعوا الأذان:

«اللهم رَبّ هذِه الدعوةِ، والصلاةِ القائمةِ آتِ محمدًا الوسيلَة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته»[1].

••عَنَزَة بلال••

قال ابن سعد عمن حَدّثَه: إن النجاشىَّ بعثَ بثلاثِ عَنَزَات[2] إلى رسول اللَّه ﷺ.

(1) حديث صحيح أخرجه البخارى في صحيحه وفي أفعال العباد وأصحاب السنن الأربعة: وليس منه «إنك لا تخلف الميعاد».

(2) العنَزَة – بفتح النون – أطول من العصا وأقصر من الرمح في أسفلها زجّ كزُجّ الرمح يتوكأ عليه الشيخ الكبير.

فأعطى عليًّا واحدةً، وعُمَرَ واحدةً، وأمسك واحدة، فكان بلالٌ يمشى بها بين يديه في العيدين حتى يأتىَ المصَلّى، فيُرْكِزَها بين يديه، فيصلى إليها، ثم كان يمشى بها بين يدى أبى بكر ، ثم كان سعدُ[1] القَرَظ يمشى بها بين يَدَي عُمرَو عثمان!

••بلالٌ يُرِيدَ الجهادَ••

قالوا: ولما تُوفّى الرسولُ ﷺ جاء بلالٌ يريدُ الجهادَ إلى أبى بكر الصديق، فقال له:

ياخليفةَ رسولِ اللَّه؛ إنى سمعتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ وهو يقول: «**أفضل عملِ المؤمنِ الجهادُ في سبيلِ اللَّه**»[2].

فقال أبو بكر:

فما تشاءُ يا بلالُ؟

قال: أردتُ أن أُرابِطَ في سبيلِ اللَّهِ حتى أموتَ!

قال أبو بكر: أَنْشُدَكَ[3] باللَّه يابلالُ! وحُرْمَتِى وحَقّى؛ فقد كبرتُ، وضَعُفتُ، واقترب أجلى، فأقام معه حتى تُوفّىَ!

ثم أتى عمرَ فردّ عليه، فأبى بِلال!

فقال عُمَرُ: إلى مَن تَرى أن أجعلَ النداء؟

قال: إلى سعد؛ فقد أَذّن لرسول اللَّه ﷺ، فجعله عمر إلى سعد وعقبِه[4].

---

(1) المؤذن بعد بلال.

(2) أخرجه ابن سعد 3/ 1/ 18، والطبرانى (1013).

(3) أنشدك باللَّه: أذكرك به وأستعطفك.

(4) النداء: الأذان. العقب: الولد وولد الوالد الباقون بعده.

••بلالُ يستقر بالشام ويتزوج!••

لما دخل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الشام، سأله بلالٌ أن يُقِرّه[1] به، ففعل.

قال: وأخى «أبو رويحة» الذى آخى رسولُ اللَّه ﷺ بينى وبينَه، فنزل بداريّا في خَولَان.

فأقبل هو وأخوه إلى قوم من خَوْلَان فقالا: إنا أتيناكم خاطِبَيْن.. وقد كنا كافِرَيْن فهدانا اللَّهُ، ومَملُوكَيْن فأعتقنا اللَّهُ، وفقيرين فأغنانا اللَّهُ!

فإن تُزَوِّجُونا فالحمدُ للَّه!

وإن تردُّونا فلا حولَ ولا قُوةَ إلا باللَّه!

فزوَّجُوهُما!

وهنا قال له أخوه: أما كان جديرا بك أن تذكر لهم مواقفنا معَ رسولِ اللَّه ﷺ؟

فقال له بلال: اسكت فقد زوَّجَك الصدقُ!

••بلال مع عمر في الشام••

ولما قدم عمر «الجابية» سأل المسلمون عُمَرَ أن يسأل لهم بلالًا يُؤذّن لهم!

فسأله، فأذّن يومًا، فلم يُرَ يوما كان أكثر باكيا من يومئذ ذِكْرًا منهم للنبى ﷺ!

••بلال يرى النبى ﷺ في منامه!••

ومما أورده ابن الأثير في أسد الغابة (1/ 244 - 245): أن بلالا رأى النبيَّ ﷺ في مَنامه وهو يقول:

(1) أن يجعله مقرا له ويوافق على ذلك.

«ما هذه الجفوةُ يا بلالُ؟!
أما آن لك أن تَزُورَني؟!»

فانتبه حزينًا، وركب راحلتَه، وقصد المدينةَ، فأتى قبرَ النبيّ ﷺ، فجعل يبكى عِندَه، ويُمَرِّغ وجهَه عليه!

فأقبل الحسنُ والحسينُ فجعل يَضُمُّهما، ويُقَبِّلُهما!

فقالا له: يابلالُ!

نشتهى أن نسمعَ أَذانَك!

ففعل، وَعَلا السطحَ، ووقف، فلما أن قال:

اللَّهُ أكبرُ، اللَّهُ أكبرُ، ارتجت المدينة!

فلما أن قال: أشهد أن لا إلهَ إلا اللَّهُ، ازدادت رجَّتُها!

فلما أن قال: أشهد أن محمدًا رسولُ اللَّه، خرجت العواتق من خُدورِهِنّ[1]، وقالوا: بُعث رسول اللَّه ﷺ!

••فضل بلال!!••

ذكر عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فضلَ أبى بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فجعل يَصِفُ مناقِبَه، ثم قال: وهذا سيدُنا بلالٌ حَسنةٌ من حَسَناتِه!

وبلغ بِلالًا أن ناسًا يُفَضّلُونه على أبى بكر، فقال: كيف يفضلونى عليه، وإنما أنا حسنةٌ من حَسَنَاتِه؟!

••نِعْمَ المرءُ بلال سيد المؤذنين!••

عن زيد بن أرقم يرفعه: «**نِعْمَ المرءُ بلالٌ سَيّد المؤذنين يوم القيامة! والمؤذنون أطول الناس أعناقا يوم القيامة**»[2].

(1) العواتق: العاتق: الجارية أول ما أدركت أو التى بين الإدراك والتعنيس، سميت بذلك لأنها عتقت من خدمة أبويها؛ ولم يدركها زوج بعد. والخدور: جمع خِدر وهو ستر يعد للمرأة في ناحية البيت.

(2) أخرجه أبو نعيم في الحلية 1/ 147 وصححه الحاكم 3/ 258.

••منزلة بلال••

مدَح أحدُ الشعراءِ «بلالَ بنَ عبدِ اللَّهِ بنِ عُمَرَ» وكان ممن نشأوا في عبادةِ اللَّهِ كما عَوّدَه أبوه «عبد اللَّه بن عمر»، فقال:

•وبلالُ عبدِ الله خَيْـرُ بِلالِ!•

فقال ابن عمر أبوه: كذبت بل..

•وبلالُ رسولِ الله خيرُ بلالِ•

ومما يدل على فضله وسبقه ذلك الحديث الذى يصور الجوَّ الذى كان يُحيطُ بالمسلمين في أولِ عهدِ الإسلام حين أسلَم بلال.

يحدثنا عمرو بن عَبَسة عن سَبْق بلال في الحديث الذى رواه مسلم عن أبى أُمامة قال: قال عمرو بن عَبَسةَ السُّلَمِيّ: كنت - وأنا في الجاهلية - أظن أن الناسَ على ضلالةٍ، وأنهم ليسوا على شيءٍ، وهم يعبدون الأوثان.

فسمعت برجل بمكةَ يُخَبِّر أخبارًا، فقَعَدْتُ على راحلتى فقدمْتُ عليه؛ فإذا رسولُ اللَّهِ ﷺ مستخفيا جُرآءُ عليه قَومُه!

فتلطّفتُ حتى دخلتُ عليه بمكة.

فقلت له: ما أنتَ؟

قال: «**أنا نَبِيٌّ**».

فقلت: وما نَبِيٌّ؟

قال: «**أَرْسَلَنى اللَّهُ**»

قلت: وبأى شيءٍ أرسلَك؟

قال: «**بصلةِ الأرحامِ وكَسْرِ الأوثانِ، وأن يُوَحَّدَ اللَّهُ لا يُشْرَكْ به شيءٌ**».

قلت: فمن مَعك؟

قال: «**حُرٌّ وَعبْد**»[1].

---

(1) بدأت الدعوة باستجابة أبى بكر وهو الحر، وزيد بن حارثة وهو العبد وقامت الدعوة بعد ذلك على الأحرار والعبيد الذين فتح الإسلام لهم باب الحرية. وهو هنا يقصد أبا بكر وبلالا.

(وقال: ومعه يومئذ أبو بكر وبلال ممن آمن به).

فقلت: إن مُتَّبِعُك.

قال: «**إنك لا تستطيعُ ذلكَ يومَك هذا!!**

ألا ترى حالِي وحالَ الناس؟!

ولكن ارجع إلى أهلك؛ فإذا سَمِعت بى قد ظهرت فائتِنى... إلخ الحديث[1]».

ومن هذا الحديث الذى رواه مسلم نتبين منزلة بلال وسبقه إلى الإسلام!

لقد قام الإسلام يومئذ على اثنين: حر وعبد!

أما الحر؛ فهو أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ!

وأما العبد؛ فهو بلال بن رباح مؤذن الرسول!

••غدا نلقى الأحِبّة••

كان بلالٌ في شوقٍ شديد إلى لقاءِ أحبابه الذين سبقوه إلى لقاءِ ربهم.. مع الرفيقِ الأعلى من الأنبياءِ والشهداءِ والصالحين وحَسُن أولئكَ رفيقا.

ولما حضرته الوَفاةُ[2] قال: غدًا نلقى الأَحبّة.. محمدًا وحِزْبَه!

وعندئذ قالت امرأتُه جَزَعا لفراقه: وَاوَيْلاه!

فقال: وافرَحَاه!

وكيف لا يفرح وقد أفلح؟!

﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [المجادلة:22].

﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: 1، 2].

••أرْجى عمل عَمله في الإسلام••

ما أكثرَ الأعمالَ الخيِّرةَ التى لها أجرُها وثوابها عند اللَّه، والحسنةُ بعشرِ أمثالِها إلى سبعمِائةِ ضِعف!

(1) هو قطعة من حديث أخرجه مسلم 832 في صلاة المسافرين. باب إسلام عمرو بن عبسة.

(2) قال البخارى: مات بالشام زمن عمر.

وباب العمل مفتوحٌ أمامَ جميع المسلمين لا فرقَ بين ذكر وأنثى، ولا حُرٍّ ولا عَبْدٍ!

ولكنْ ما أُعِدّ لبلال من ثوابٍ استوقف الرسولَ ﷺ وجعلَه يسألُه بعد أن صَلّى الصبحَ مَعَهُ ذاتَ يومٍ عن سِرِّ تلك المنزلةِ التى حَظِىَ بها بلالٌ، وجعلتْه من السابقين!

فعن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول اللَّه ﷺ لبلال عند صلاة الصبح:

«حَدِّثْنِى بِأَرْجَى عَمَلٍ عملتَه في الإسلامِ، فإنى قد سَمِعتُ الليلةَ خَشَفَةَ[1] نَعْلَيْك في الجَنةِ»؟!.

قال: ما عَمِلتُ عملًا أرجى من أَنّى لم أَتَطَهّر طهورًا تامّا في ساعة من ليلٍ أو نهارٍ إلا صليتُ لرَبىّ ما كتبَ لى أن أصلىَ[2].

••حياة بلال في كلمات••

يقول ابن حجر في كتابه: «الإصابة في تمييز الصحابة».

- بلال بن رباح الحبشى المؤذن.
- وهو بلال بن «حمامة» وهى أمه.
- اشتراه أبو بكر الصديق من المشركين لما كانوا يعذبونه على التوحيد، فأعتقه.
- فلزم النبىّ، وأذّن له.
- وشهد معه جميع المشاهد[3].
- وآخى النبى بينه وبين أبى عبيدة بن الجراح.
- ثم خرج بلال بعد النبى ﷺ مجاهدا.
- إلى أن مات بالشام؛ ومات في طاعون عَمَواس.

---

(1) الخشفة: الحركة وزنًا ومعنى. وقال أبو عبيد: الخشفة: الصوت ليس بالشديد.

(2) أخرجه البخارى (1149) ف التهجد: باب فضل الطّهور بالليل، ومسلم في الفضل: باب فضل بلال.

(3) المشاهد؛ الغزوات التى قادها الرسول ﷺ بنفسه.

سراقة بن مالك

كان سُرَاقةُ بنُ مالك فارسًا من فُرسان قريشٍ المعدودين، خبيرًا بمسَالكِ الطُّرُقِ وأحد المشهورين باقتفاءِ[1] الأَثَر.

وهو إلى جانب هذا شَاعِرٌ ذَكيّ يلتفُّ من حوله قومُه في «قُدَيْدٍ»[2] قريبًا من مكة في نَدَيِّهم.

وذات يوم، وبينما هُمْ مُجتمعونَ إذا برسولٍ من رُسُل قريشٍ، يصيحُ فيهم مُعلِنًا عن «**جائزة كبرى**» لمن يأتى بمحمدٍ حَيًّا أو مَيتًا!

لقد غادر محمدٌ مكةَ ولم يَعرِفُوا الطريقَ الذى سلكه ولا الجهةَ التى اتّجهَ إليها مع أنهم قد أحاطوا بداره، وقَرّرُوا اغتيالَه!

لكنه أفْلتَ من بينِ أيديهم، ونجا من بَطْشِهم! و «سُراقةُ» واحدٌ مِمّن يعرفون كيف يَسْتَدِلُّون بآثارِ الأقدامِ، ويَقْتَفُونَ الأثرَ حتى يلحقوا بالهاربين والتائهين والفارّين!

وفرسُهُ مُدَرَّبَةٌ على اجتياز الصحارَى والطُّرق الوَعْرة.

والجائزةُ التى أعدّتْها قريشٌ «**مائةُ ناقةٍ**».. كلُّ ذلك يُغرى سُرَاقَة بتَوَلِّى هذه المهمة وملاحقة النبى ﷺ والإتيانِ به حيًّا أو ميّتًا!

وأسرَّها سُراقةُ في نفسِه، ولم يُبْدِهَا لقومه!!

إنه يريدُ أن يَظفَرَ بالجائزةِ وحدَه دون قومِه!!

وظلّ على صَمْتِه قبلَ أن يَنهضَ للقيامِ بهذهِ المهمةِ وإذا بواحدٍ يدخلُ عليهم قائلا:

قد مرّ بى ثلاثُة رجالٍ، وأحسَبُهم محمدًا وصديقَه أبا بكر ودليلَهما!

وهنا قال سُرَاقَةُ:

إنهم بنو فلان يبحثون عن ناقةٍ ضَلَّتْ طريقَها، ولم تَعُدْ إليهم!

كل ذلك التعتيمِ حتى يحصلَ على الجائزةِ وحدَه وهو بها جَدِيرٌ!

---

(1) يعرف كيف يستدل بآثار الأقدام على أصحابها! ويقتفي أثرهم.

(2) موضع بين مكة والمدينة.

وظل جالسًا مع قومِه حتى لا يُثيرَ انتباهَهم، وكأنّ شيئا لم يكن!

حتى إذا خاضوا في حديثٍ غيرِه تسللَ من بينهم وأسرع إلى بيتِه، وأصدرَ أوامرَه لإعدادِ فرسهِ بعيدًا عن أعينِ الرُّقَباءِ!

وإذا كل شيءٍ قد أُعِدَّ في صَمْتٍ وخفاءٍ، وإذا هو يَمْتَطِي فرسَه، ويُطلقُ لها العِنان[1].. وإذا هي تَطْوى الأرضَ طيّا.. والأملُ الحلو بالحصولِ على الجائِزة يقتربُ منه، ويُنْعِشُ قلبَه!

وفجأةً تعثرُ فرسُه، ويسقطُ عن صَهْوتِها[2]، وإذا هو يَغْضَبُ ويَنْهَرُها، ويمتطى صهوتها ثانية ويزجرُها، وإذا هي تعثرُ؛ فراح يسائل نفسه:

ماذا حدث؟ إن هناك شيئا مّا في الأُفُق لا عهدَ لى بمثلِه!!

وإذا هو يفكر في العودة؛ لكن طمعَه في النُّوق أعاد إليه شيئًا من الأمل من جديد!

ولم يُصدِّقْ عينيه حين رأى النبيَّ ﷺ وأبا بكر ودليلَهما.. وتراءى له الأملُ الحُلْوُ في الحصولِ على الجائزة، فأسرعت يَدُهُ إلى قوسِه، وراح يَحُثُّ فرسَهُ على ملاحَقَتِهم!

وإذا بيده تجمُدُ في مكانِها.. وإذا بفرسِه تسيخُ قوائمُها في الأرض[3]، وتعلو زوبَعةٌ من الدُّخَان تُعْمى عَينيه وعَينَيها! وحيل بينَه وبينهم!

وإذا هو يستنجدُ بالرسول ﷺ وبأبى بكر ويُنَاشِدُهما أن يطلبَا من رَبّهما أن يُعيد له فرسَه مُطْلَقةَ القوائم ولهما عليه أن يكُفّ عنهما، ويعودَ من حيث أتى!

وإذا الرسولُ ﷺ يستجيبُ له، ويدعو ربّه أن يُطلِقَ قوائمَ فرسِه، وإذا هى تعودُ كما كانت!

وحين رأى سُراقةُ آيةَ اللَّهِ، طلب من الرسولِ الخلاصَ وتعهد للرسول ﷺ ألا يدلُّ عليه، وكتب له الرسول ﷺ أمانًا بذلك!

وحين عاد إلى مكةَ أخذَ أبو جهلٍ يلومُه على تقصيره، فرد عليه قائلا:

---

(1) سير اللجام – لتنطلق بأقصى سرعة.

(2) الصهوة: موضع السرج من ظهر الفرس.

(3) ساخت في الأرض: غاصت.

أبا حكم والله لو كُنْت شاهدًا لأَمْـرِ جَـوادى إذْ تَسوخُ قوائمُه
علمتَ ولم تَشْكُكْ بأن محمدًا رسـولٌ ببرهان فمَنْ يُقَاوِمُه؟!

وقد روى قصته البخارى في إدراكه النبىَّ ﷺ لما هاجر إلى المدينة، وتابَعَ النبىَّ ﷺ حتى ساخت رِجْلا فرسه، ثم إنه طلب منه الخَلاصَ، وألَّا يدل عليه، ففعل، وكتب له أمانا بذلك!

وظل سراقةُ على عهدِه ووعدِه حتى أتى «**يومُ الفتح**» فأعلن إسلامَه وتاب اللَّهُ عليه!..

ويُرْوَى أن الرسولَ ﷺ قال له:

«**كيف بك إذا لبستَ سِوَارَيْ كِسْرَى؟**».

فلما أُتى عمرُ بسواري كسرى، ومِنْطَقَتِه، وتاجِه دعا سراقة فأَلْبَسَهُ، وقال له: ارفع يديك وقل:

«**الحمدُ للَّه الذى سلبهما كِسرى بنَ هُرْمز، وألبَسهما سُراقَةَ الأعرابي!**».

عند ذلك هتف المسلمون:

اللَّه أكبر.. اللَّه أكبر.. اللَّه أكبر..

لقد رأى سراقةُ كيف عصَم اللَّهُ نَبِيَّهُ منه ومن قريش!

وعاش سُراقة ليَرى سِوَارَىْ كِسرى ويلبَسَهما!

فآمن عن يقين بعدما رأى ما رأى من آيات اللَّه!

وظل على عهدِه ووعدِه!

وفي حياته عبرةٌ لكلِّ أولئك الذين يُحاولون أن يُطفئوا نور اللَّه بأفواههم من أجْلِ دراهمَ يحصلون عليها!

ومن كان مع اللَّه كان اللَّه معه يحفظه ويرعاه!

ولو اجتمعت الجنُّ والإنس على أن يَضُروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد قدره اللَّهُ عليك!

لقد آمن سُراقةُ عندما رأى الحقَّ ولم يَبِعْ ذِمّتَه، وكان من الصادقين!

أبو جندل
الشهيد ابن الشهيد

شخصيةٌ فريدة!

أبوهُ: «سُهَيْلُ بنُ عَمْرو بن عبد شمس» رئيسُ الوفد المفاوض عن قريش «يوم صُلْحِ الحُدَيْبِيَة».

اسمه: العاص.

كان من خِيار الصحابة!!

يوم أسلمَ بمكةَ حبَسه أبوه وقَيّده حتى لا يُهاجرَ إلى المدينةِ مع من هاجروا.

فلما كان يومُ «**صُلْح الحُدَيْبِيَة**» هرَب يَحْجِل في قُيوده، وأبوه حاضِرٌ بين يَدَي النبى ﷺ يُفاوضه نائبًا عن كفار قريش!

وقد صالح النبيُّ ﷺ المشركين على ثلاثةِ أشياء منها:

- أن من أتاه من المشركين ردّه إليهم!
- ومن أتاهم من المسلمين لم يَرُدُّوه.!

وثار أبوه سُهيل حين رآه قادما يحجل لينضمَّ إلى المسلمين!

وأمسك بتلابيبه[1] ليُعيدَه إلى مكة! وانهال عليه ضَرْبًا ولكْمًا.

وراح يُطَالِبُ المسلمين تنفيذَ ما تم الاتفاق عليه!

وأبو جندل يقول:

أيْ[2] معشَرَ المسلمين:

أُرَدُّ إلى المشركين وقد جئتُ مُسْلِمًا؟!

ألا تَرَوْن ما قَدْ لَقِيتُ؟!

والمسلمون عند شروطهم! لا يستطيعون لها نَقْضًا!!

لكنَّ الإيمانَ قد ملأ قلبَه، فلا يُبالى بما يُصيبه في سبيلِهِ!

---

(1) التلابيب: جمع تَلْبيب وهو ما في موضع اللبب من الثياب ويعرف بالطوق. واللبب: موضع القلادة من الصدر.

(2) أي: حرف لنداء القريب.

وأملُه في اللَّهِ كبير أن يجعلَ له فرَجًا ومَخْرَجًا مما هو فيه!، فليكنْ ما يكونُ من العذابِ الذي يُلاقيه، فإنّ بعدَ العُسْرِ يُسرا، وبعد الشِّدَّة فرَجًا، والنصرُ مع الصَّبْر!

وكيف لا، وقد فتح الرسولُ ﷺ أمامَه بابَ الأمل والرَّجَاءِ قائلا:

«يا أبا جندل؛ اصْبرْ واحْتَسِبْ[1] فإن اللّهَ جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا!

إنا قد عقدنا بيننا وبين القومِ عَهْدًا

وأعطيناهم[2] على ذلك.

وإنا لا نَغْدِرُ بهم»

واشتد الأمرُ على الفاروقِ عُمَرَ بعد أن رأى ما رأى من تعذيبِه، ووَدّ و يَمنحُه سيفَه ليدُافعَ به عن نفسِه، ولكنه كان في وضْعٍ لا يسمحُ له بذلك!

فعَمِلَ أبو جندل بنصيحةِ الرسول ﷺ وعاد مع أبيه لكنه راحَ يُفَكِّر في الخلاص!

نعم عاد مع أبيه وإيمانُه راسخٌ كالجبالِ الراسيات لايُزَعْزِعُه اجتماعُ الكُفر والطُّغيان عليه، وتعذيبهُم له! وهكذا يكون المؤمن عند الشدائد!

وما هى إلا أيام حتى انفَلَتَ من أَسْرِه.. وخرج من مكة ناجيًا بعقيدته وإيمانه!

ولكن إلى أين؟

إنه لا يريدُ إحراجَ المسلمين!

الذين يحترمون عقودَهم وعُهودَهم!

وإنه لَيَستطيع حمايةَ نفسِه من بَطْشِ قُرَيْش وطغيانِها!

بعيدًا عن المسلمين ومَدينَتِهم!

فلْيَتَّجه إلى الساحلِ.. ساحلِ البحر الأحمر حيث تمر قوافلُ قُرَيْش ذاهبةً وآبية.. ليقطعَ عليها الطَريق، وهناك يكيلُ لها الصاعَ صاعَيْن، ويُلقي عليها درسًا

(1) احتسب الأجر: ادخره عند اللَّه. والحديث بطوله في ابن كثير، والسيرة (3/ 312 – 337) وابن هشام (2/ 318).

(2) أعطيناهم العهد والميثاق.

يُعلِّمها أن لا تقفَ في وجهِ مَنْ أسلم من قريش أو تُحاولَ استِرْدَادَهُ! أو تقف في وجه من أسلموا!!

وعند مُلتقى مواصلاتِها استطاع أن يجمعَ حولَه سبعين فِدائيا مُناضلا ممن أسلموا وحالت «شروطُ الصُّلْح» بينهم وبين اللحاقِ بالرّسول ﷺ بالمدينة!

واتخذوا من الساحل «قاعدةً» لهم ينطلقون منها إلى أعمال فِدائية تُمَكِّنُهم من قَطعِ طُرقِ قريش وخطوطِ مُواصَلاتِها وتجارتِها، والاستيلاءِ على ما يُمكنُ الاستيلاءُ عليه من أموالِهم وتِجارتِهم جزاءً وفِاقا لما قاموا به من تعذيب من أسلموا والحَيْلُولَةِ بينهم وبين أموالِهم إن هم هاجروا!

وربما كانت هذه الأعمالُ الفدائيةُ رادعةً لهم عن إيذاء المسلمين والتآمر ضِدَّهُمْ!

وكان «أبو جندل» سعيدا بهذه الخُطَّةِ الجبّارة التى قام بها؛ فجعلت قريشًا تعودُ إلى وعيها، وتستغيثُ بمحمدٍ ﷺ أن يَقْبَلَ من أسلمَ من مكةَ بالمدينة، ولا يردُّه إليهم!

وأمامَ ضغطِ أولئك الفدائيين قامت قريشٌ بتعديلِ شروطِ الصلحِ بنفسها!

ويُصَوّر «أبو جندل» ذلك بقوله في رسالة شعرية:

أبْلِغْ قريشًا عن أبى جَنْدلٍ ... أنَّا بذي المَرْوَةِ فالسَّاحِلِ
في معشرٍ تخفقُ أيْمَانُهم ... بالبيض فيها والقنا الذابِلِ[1]
يَأْبَوْنَ أن نَبْقَى لهم رُفقةً ... من بعد إسلامهم الواصِلِ
أو يجعل الله لهم مخرجًا ... والحقُّ لا يُغلب بالباطل
فيسلم المرءُ بإسلامِه ... أو يُقتَل المرءُ ولَمَ يأتَلِ

ونجحتِ الخطةُ، وأثمرت المقاومةُ ثمرتَها بعد أن وحّدت صفوفها، فقدِ انضمَّ إلى «**أبى جندل**»:

«أبو بَصير» وهو ذلك الفدائى المؤمن وكان يقيم بالقربِ من الساحل!

(1) البيض – بكسر الباء: جمع أبيض وهو السيف، والقنا: جمع قناة. والقناة: الرمح الأجوف، والذبّل أو الذوابل: صفة للرماح أي الدقيقة.

وتزايد عدَدُهم حتى بلغوا ثلاثمائة، وأخذوا يهددون قوافلَ أعدائهم وتِجارَتهم.. يقتلون ويأسرون، ويستولون على ما يستطيعون الاستيلاءَ عليه من سلاح أو عتاد، أو مال!

حتى ضجّت قريشٌ، وعلموا أنهم كانوا مخطئين حين اشترطوا إعادة من أسلم إليهم فتنازلوا نهائيا عن هذا الشرط في العَهْد، ورجَوا النبى ﷺ أن يستردهم!

فهل يعي المتعنتون هذا الدرس؟!

استدعاء

وأرسل النبى ﷺ يستدعى أولئك الفدائيين ليُسْهِموا في مجالاتٍ أخرى، وليضعوا مهارتَهم في النضال المنظم.. في السَّرَايَا والغزوات!

وعاد أبو جندل بكتيبة الفدائيين الذين أذلوا كبرياءَ قريش!!

عادوا ليواصلوا النضال مع المهاجرين والأنصار الذين حملوا أرواحَهم على أكفهم في سبيل إعلاء كلمة اللَّه، ورفع راية «لا إله إلا اللَّه محمد رسول اللَّه!».

وشهد مع الرسول ﷺ فتح مكة وصاحَبَه في غزواته حتى لقِى الرسولُ ﷺ ربَّه فخرج مع الجيش إلى الشام حيث لقى ربه في «غزوة اليرموك»!

إنه نموذج أبناء الصحابة الذين سبقوا آباءَهم إلى الإسلام!

والعجيب الغريب أن أباه أسلم وحسن إسلامُه حتى لم يكن أحدٌ أكثرَ منه صلاةً وصومًا وصدقةً واشتغالا بما ينفعه في آخرته من «**سُهَيْل بن عمرو**»!!

ولقد وقف إلى جانب ابنه حتى نالا الشهادة معًا في «غزوة اليرموك»: وأصبح الناس يقولون عن أبى جندل: هو الشهيد ابن الشهيد.

ولأبى جندل أخ اسمه عبد اللَّه هداه اللَّهُ إلى الإسلام وقاتل في سبيله وقُتل في «**غزوة اليمامة!**» ولا تعجب، فإن الهدى هدى اللَّه!

لقد كان أبو جندل نموذجًا للتضحية والفداء، والصبر على البلاء!!

أسماء ذات النطاقين

في بيت عريق من البُيُوتَاتِ العربية في مكة المكرمة نشأت «أسماءُ» ذاتُ النِّطاقين[1]! في عصرِ صدرِ الإسلام! خيرِ القرون!

ذلك العصرُ الذي تفتّحت فيه أعينُ الناسِ على خاتَم الأنبياء والمرسلين، يدعوهم إلى الخيرِ والبِرّ والرحمةِ؛ فيستجيبون لدعوةِ الهُدى التى أخرجَتْهم من الظلماتِ إلى النور، وأخذت بأيديهم، ووضعت أقدامَهم على الطريق، وما أجملَ الطريقَ إلى اللَّهِ!

لقد رأَوا النبيَّ ﷺ وعايشوه، وسمِعوا منه، وبهداه اقتَدَوْا، وراحوا يُؤيدون دعوتَه، ويُضحُّون في سبيل نشرها بأنفسِهم وأموالِهم في سبيلِ اللَّه!

وكانت الصُّحْبَةُ - ومازالت- أملا للمسلمين والمسلماتِ الأحياءِ منهم والأموات!

فكم يتمنى الكثيرون منا أن يكونوا قد عاشوا في خيرِ القرون وأن يكون لهم شرف الصُّحبة، ولهذا نراهم يشدون الرحال لزيارة النبيِّ ﷺ والصلاة في مسجده.

ولكن هل يستوى من رأى النبى ﷺ وسمع منه، وآمن به، ومات على الإسلام بمن لم يُتَحْ له شرفُ الرؤيةِ والسماعِ؟!

فكل من لَقِى النبيَّ ﷺ مؤمنًا به ومات على الإسلام فهو «صحابى».

وكل من لقيت النبيَّ ﷺ مؤمنةً به، وماتت على الإسلام فهى «صحابية».. فهم السابقون ونحن اللاحقون!

وهم السلفُ الصالح، ونحن الخَلفُ!

إن خيرَ القرون قرنُ النبى ﷺ ثُمَّ الذين يلونهم، ثم الذين يَلُونهم، ثم الأمثلُ!

---

(1) النِّطاق: حزام يشد به الوسط. وقد شقته أسماء فصار نطاقين ربطت السقاء بأحدهما، وربطت بالآخر الطعام.

وفي مجال تعداد المفاخر الإسلامية، والمزايا النفسية، والخُلفية لإحداهن يتساءل من يُعَدِّدُون تلك المفاخر قائلين:

- بنتُ مَنْ؟
- وأختُ من؟
- وزوجُ مَنْ؟
- وأُمّ مَن؟

والإجابة عن هذه الأسئلةِ الأربعةِ تعطينا تصوّرًا لأسماء والبيئةِ التى نشأت فيها، والشجرةِ الطيبةِ التى نمت فروعُها، وآتت أُكُلَها[1].

إنها أسماءُ بنتُ أبى بكر الصِّدّيق الخليفةِ الأول.

أختُ «عبد اللَّهِ بن أبى بكر الصِّديق» لأبيه وأمه، وأختُ «السيدة عائشة» لأبيها.

وزوجُ «الزُّبَيْر بن العوام» أحدِ العشَرة المبَشَّرين بالجنة.

وأمُّ «عبد اللَّه بن الزبير». وعروةَ، والمنذِر، وعاصم، والمهاجر، وخديجةَ الكبرى، وأمُّ الحسن، وعائشة.

سبقُها إلى الإسلام ومبُايعتُها النبى ﷺ:

لقد أسلمت أسماءُ قديمًا بمكة، فلها فضل السبق.. وبايعَت الرسولَ ﷺ مع من بايَعْنَه من النساء، فبايعهن ﷺ واستغفرَ اللَّه لهن، وفى ذلك يقول اللَّه سبحانه وتعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الممتحنة: 12]

ذاتُ النِّطاقين:

والنِّطاق: حزام يُشَدّ به الوَسَطُ، والعرب كانوا يتمنطقون أو ينتطقون، أو يتنطقون بحزام يشدون به وسطهم رجالًا ونساءً.

---

(1) الأُكُل: (بضم الكاف أو سكونها) الثمر والرزق الواسع.

ميكف كانت أسماءُ ذات نِطاقين؟

يذكر لنا محمد بن سعد كاتب الواقدى المتوفِي سنة 210 هـ في الِطبقات الكبرى التى تضمنت تاريخَ العرب والمسلمين عن أسماءَ قالت:

«صَنَعْتُ سُفْرَةَ[1] النبى ﷺ في بيت أبى بكر حين أراد أن يُهاجرَ إلى المدينةِ.

قالت: فلم نجد لسُفْرَتِه، ولا لسِقَائه ما نربِطُهُمَا به!

فقلت لأبى بكر: واللَّه ما أجد شيئًا أربِطُه به إلا نِطاقى!

قال: فشُقِّيه باثنين: فاربِطى بواحدٍ السّقاءَ وبالآخر السُّفْرَة.

فأُطلق عليها ذاتُ النِّطاقين لهذا!!

كان أبوها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أولَ من أسلم من الرجال!

فدعاها هى وأختَها عائشةَ إلى الإسلام، فسارعتا إلى اعتناقِه!

ولقد بلغَ من حُبِّها للإسلام، وتمسُّكِها به أن أمَّها جاءتها بهَدِيّة، ولم تكن أمُّها قد أسلمت، فتوقفت عن قبولِها، وأسرعت إلى الرسولِ ﷺ تستشيرُه في أمرِ قبولها!

وراحت تستفتى النبيَّ ﷺ في صِلَةِ أُمِّها وبرِّها!

فأفتاها ﷺ بأن تَصِلَ أُمَّها وتَبَرَّها على الرغم من أنها ظلت على دينِ قومِها!

وبذلك نزلت الآية: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ ...﴾

[الممتحنة:8]

صحيح أنه «**لا طاعةَ لمخلوق في معصيةِ الخالق**» ولكن الصلةَ والبِرّ والإحسانَ من أخلاق الإسلام، ومظاهر الإيمان!

ففى الصحيح قالت أسماءُ: يا رسولَ اللَّه، إن أمى قَدِمت وهى راغبة، أفأصلها؟

---

(1) في معاجم اللغة وقواميسها: السُّفرة (بضم السين المشددة) طعام يصنع للمسافر. ويسمى ما يحمل فيه هذا الطعام سفرة. وتسمى المائدة وما عليها من طعام: سُفْرَة، والجمع سُفَر. والسِّقاء (بكسر السين): وعاء من جلد يكون للماء واللبن، وكل ما يجعل فيه ما يُسْقى والجمع: أسقية وجمع الجمع: أساقٍ.

قال: «**نعم صِلى أمَّك**» (البخارى: أدب 827. مسند أحمد (6/ 347).

ولما بلغت مَبْلَغ الزواج تزوجت الزُّبَيْرَ بنَ العوام.

أحدَ العشرة المبشَّرين بالجنة.

ولما خرج المسلمون لمحاربة الروم كانت أسماءُ ممن اشتركن من النساء في الجهاد!

فكانت تقف على رأس النساءِ، وبيدها سيفٌ بَتَّار تُحمِّسُ الرجالَ وتُحَرِّضُهم على القتال!

ويناديها سيفُ اللَّهِ المسلول «**خالد بن الوليد**» قائلا: يا أسماءُ: أُقْتُلى من تُحدّثُه نفسُه من جنود المسلمين بالفِرار!

ولا عجبَ فيما كانت تتحلّى به من خُلُقٍ رفيع، فقد كانت أسماء تَحْرِصُ على حُضورِ مجلِسِ النبيِّ الكريم لتَتَلقَّى عنه مبادئَ الدين وأصوله!

كما كانت تُلازمُ أباها فتعلمت منه: «**عِلمَ**[1] **الأنْساب**».

كما أخذت عنه «**تعبيرَ الرؤيا**[2]» حتى كانت ممن يُرجع إليهن في تعبير الرؤيا.

ولقد ضُرب بجودها المثَل، فلم تكن تدّخر شيئا للغد وظلت أسماءُ على وفائِها وانتمائها قويةً لا تخشى في الحق لومةَ لائم، ولا تهابُ إلا اللَّهَ!

فبعد أن لبّى الرسولُ ﷺ نداءَ ربّه، وتبعه الخلفاءُ الراشدون كانت أسماءُ مازالت على قَيْدِ الحياةِ إبَّانَ[3] حكم «بَنِى أمية» وإذا «بالحجّاج بنِ يوسفَ الثقفىّ» يُحاصر ابنَها «عبدَ اللَّه» بعد أن كاد يَنْتَصِر على جيش الحجاج!

لقد أَسْلَم أصحابُه قِيادَهم إليه، وجعلوه واليًا عليهم وبايعوه بالخلافَة، لكنهم تخاذَلوا، فضعُفُوا، وفَشِلُوا؛ ودارت الدائرةُ[4] عليهم!

وجاء عبد اللَّه يستشير أمه قائلا:

---

(1) علم أنساب العرب وأصولها، ومفاخر كل قبيلة.

(2) تعبير الرؤيا: تفسير الأحلام.

(3) إبان: وقت.

(4) نزلت بهم الهزيمة.

يا أُمّاه! لقد خذَلَنى الناسُ حتى أهْلى، ولم يبقَ معى إلا القليلُ[1]، والقومُ يعطونى ما أردتُ من الدنيا، فما رأيُكِ؟

وهنا وقفت شامخة كالطودِ[2] وهى تقول له:

أنت أعلم بنفسك!

إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تعود فامضِ له!

فقد قُتِل عليه أصحابُك!

ولا تُمكَن مِن رقَبَتِك تلعبْ بها غِلمانُ بَنِى أمية.

وإن كنت قد أردتَ الدنيا، فبئسَ العبدُ أنتَ!

أهلكْتَ نفسكَ ومَن معَك!

وإن قلتَ: كنتُ على حقّ، فلما وهن أصحابى ضَعُفْتُ، فهذا ليس فعل الأحرارِ، ولا أهلِ الدين!

لِمَ خلودُك في الدنيا؟!

القتلُ أحسن!!

فقال: يا أماه! أخافُ إن قتلنى أهلُ الشامِ أن يُمَثِّلوا بى، ويَصْلُبونى!

قالت: **يابُنَىّ! إن الشاةَ لا تتألمُ بالسلخ بعد أَنْ تُذْبَحَ؛ فامضِ على بصيرتك واستعن باللَّه!**

فقبَّل رأسها، ثم حَمَل[3] على القوم وقاتل حتى قُتل!

وظل مُعَلّقًا على شجرة في انتظار حُضورِ أُمّه لتشفعَ فيه حتى يسمحوا بدفنِه!

ولكنها حين مَرّت به قالت وكانت قد عميت!:

أما آن لهذا الراكب أنت يَتَرَجّل[4]!

---

(1) من المحاربين.

(2) الطود: الجبل العظيم الذاهب صُعُدًا في الجو، ويشبه به غيره من كل مرتفع أو عظيم أو راسخ. والجمع: أطواد.

(3) كرّ وهجم.

(4) يترجل: ينزل!

ولم تبق بعدَه إلا قليلا حتى لقيت ربَّها في سنة 73هـ.

رحم اللَّه أسماءَ بنتَ أولِ الخُلفاء!

لقد كانت هى وأبوها وجَدُّها وابنُها ابنُ الزبير أربعتَهُم صحابيون!

أربعةٌ من سُلالة واحدةٍ نالوا شرف الصحبة وياله من شرف عظيم! الجد.. والأب.. والبنت.. وابنها!

(أبو قحافة.. أبو بكر.. أسماء.. عبد اللَّه) رضى اللَّه عنهم ونفعنا بسيرتهم.

لقد كانوا نماذجَ عُليا.

فبهداهم اقتدِهْ!!

صفية بنت عبد المطلب

نموذج فريد للمرأة العربية قَلَّ أن يكون له نظير في كرم المنبت.. وكرم الفرع!

إنها بنت عبد المطلب جَدِّ رسول اللَّه ﷺ فهى عمة الرسول ﷺ.

وهى أمُّ الزُّبَيْر بن العوام حوارىّ النبى ﷺ.

وهى شقيقةُ الحمزة عمِّ النبى ﷺ وحَبيبِه!

أسلمت مع الرعيلِ الأول، وهاجرت مع المهاجرين إلى يثرب! وكفاها فخرا أنه لم يُسْلم من عمات النبى ﷺ غيرُها!

وكان لها من قوةِ إيمانِها ما جعلها تملأ فراغًا عجز الرجالُ عن أن يَسُدُّوهُ!

وليس أدلّ على ذلك مما حدث «يوم أُحُد» حين تخلَّى الرجالُ من جُندِ المسلمين عن الجبَل طلبا للغنائم، مع صدورِ الأوامرِ لهم بعدمِ التَّخَلّى عن أماكنِهم مهما حدث!

وبسبب هذه المخالفة لأوامر الرسول ﷺ طلبا للغنائم، أتاحوا الفرصةَ لخالدِ بن الوليدِ ومعه خيّالةُ قريش أن تُداهمَ المسلمين من الخَلْفِ وتثيرَ الرعبَ بين صفوفهم!

ولم يكن خالدٌ قد أسلم آنذاك!

وعند ذلك حدث ما لم تُحْمَد عُقْبَاه!

فقد تسلل العبدُ «وحْشِىّ» من عبِيد جبير بن مطعم إلى صفوفِ المسلمينَ بعد أن حَرّضَتْه «هندُ بنتُ عُتبةَ» زوجُ «أبى سفيان»، وأمُّ الخليفةِ معاويةَ من بعده!- على قتل الحمزة!!

..جعلت له جائزةً كبرى إن هو قتل الحمزة عمَّ محمدٍ ﷺ انتقامًا لأبيها وعمِّها اللّذَيْن قتلهما الحمزُة في «وقعةِ بدرٍ» التى لم تبرُدْ نارُها، ولم تجفّ دماءُ قتلاها من المشركين!

وتربصَ العبدُ وحْشىّ لأسد اللّهِ الغالب:

حمزةَ بنِ عبدِ المطّلب!

وعلى حينِ غفلة رماهُ بحَرْبته على طريقةِ الأحباش فخرّ الحمزةُ صريعًا!

وأسرع حَبشِىّ إلى مَوْلَاتِه «هند» ليزُفّ إليها البشرى فما كادت تراهُ حتى عَلِمَتْ أنها البُشْرَى!

وبئس البشارة والبشير!!

لقد أسرعت معه لترى بعينيها مصرعَ الحمزةَ!

ولتَشْفِىَ غِلَّها وحِقْدَها!

وإنها لَتشُقّ صدرَه، وتنتزعُ كَبِدَه فتلوكُه بأسنانها تَشفّيًا وحِقْدا دفينًا عليه!

ويبلغ صفيةَ أختَ الشهيدِ ما حَدث؛ فأقبلت على ساحة القِتال لتُلْقِىَ النظرةَ الأخيرةَ على أسدِ اللّهِ الغالبِ حمزةَ بنِ عبد المطَّلَبِ!

ويراها الرسولُ ﷺ فيُشفق عليها من رؤية ما حَلّ بأخيها، ويقول لابنها الزُّبير ابنِ العَوّام:

«**أرجعها حتى لا ترى ما بأخيها!**».

ويقول لها ابنُها في إشفاق وهَيْبَةٍ:

أيْ أُمِّى! إن رسولَ اللّه ﷺ يأمُرك أن تَرْجِعى!

فقالت من فورها:

ولِمَ؟ فقد بلغنى أنه مُثِّل بأخى!

وذاك في اللَّه!

فما أرضانا بما كان من ذلك! ولأَصْبِرَن صَبرًا جميلا ولأَحْتَسِبَنّ إن شاء اللَّه!

وهكذا تكون المؤمنةُ!!

ويعودُ الزُّبيْر إلى رسولِ اللَّه ﷺ فيخبرُه بما كان من أمه؛ فيطمئنُّ الرسول ﷺ إلى صبرِها، وقوةِ إيمانها، فيقول له:

«خَلِّ سبيلها!»

وتُلْقِى صَفِيّةُ على أخيها نظرةً أخيرةً، وتقول في تجلُّد وصبرٍ وإباءٍ:

لا حولَ ولا قوة إلا باللَّه!

إنا للَّه وإنا إليه راجعون!

حسبى اللَّهُ ونعمَ الوكيل!

غفر اللَّهُ لكَ يا أخى، وجزاك جزاءَ عباده المخلصين!

وأصحبت مثلا عاليا في الصبر والتحَمُّل!

ومواقفُ صفيَة عقيلةِ[1] بنى هاشم نماذج عُليا للمرأة المسلمة!

ففى «يوم الخندق» حين أحاطت قواتُ الشرِّ بالمدينةِ المنوَّرةِ، محاولةً القضاءَ على الإسلامِ في مَهدِه!.. كانت الخُطةُ أن يجتمعَ النساءُ والأطفالُ في «حِصن» يشرف عليه «حَسَّانُ بنُ ثابتٍ» شاعرُ الرسولِ ﷺ.. ويرى حَسّانُ رجلًا يهوديا يَمُرُّ بالخندق، ويطوفُ بالحِصْنِ! فلا يهتمُّ بأمرِه!!

والرسول ﷺ وصحبُه في شغلٍ شاغلٍ في مواجهة أعداءِ الإسلامِ الذين تآمروا عليه، وكلُّ هَمِّهم القضاءُ عليه في عُقْرِ دارِه!

(1) الكريمة المصونة.

ولكن عندما رأت صفيةُ ذلك اليهوديَّ يطوف بالحِصْن يُدَبِّر أمرًا، ويحاولُ تنفيذ مكيدةٍ ليُوقعَ الذُّعْرَ في صفوف المسلمين المحاربين بضربهم من الخَلف!.. عندما رأت صفيةُ هذا اليهوديّ ارتابت في أمرِه، وقالت لحسان بن ثابت:

يا حَسّانُ! إن هذا اليهوديَّ يطوفُ بالحِصن كما ترى، ولا آمنُه أن يَدُلّ اليهودَ من ورائنا على عوراتِنا!

فوجَمَ حسان، ولم يجدْ في نفسِه القدرةَ على مواجهة الموقفِ، وهو القائل:

فـعِـرضُ أبـى، ووالـــده، وعِـرضى

لـعِـرض محـمـدٍ مـنـكـم وِقَـــاء!!

إنه بطل في الشعر والبيان.. ولكنه في المعارك جبان!

فقال في خجل وحياء:

يَغْفِرُ اللَّهُ لكِ يا ابنةَ عبد المطلب!

واللَّهِ لقد عرفتِ قديمًا م أنا بصاحب هذا الأمر. وما لى عليه طاقة!

وعندئذ ثارت حَمِيّةُ عقيلةِ بنى هاشم، ولسان حالها يقول: أنا لها!!

إن نساء الرسول ﷺ وأهل بيته في خطر! فلابد من مواجهة الخطر مهما كان الثمن!

إن حدوثَ أيِّ ذُعْرٍ في الحصن بين النساء والأطفال سيعرض جيش المسلمين للخطر!

وتندفعُ صفيةُ - رضى الله عنها - وهى تحملُ عمودا من أعمدةِ الخيام.. وتهجُمُ على اليهودى وتضربُه على أُمِّ رأسِه؛ فيخِرّ صريعا، وتعاجِلُه بضَرَبات متلاحقات حتى يطمئنَّ قلبُها إلى أن روحه قد فارقت جَسَدَه، ثم ترجعُ إلى

حِصنها رافعةً رأسها، مُردِّدةً نشيدَها اللَّه أكبر.. اللَّه أكبر.. جاء الحق وزهق الباطل.. إن الباطلَ كان زهوقا!

ثم قالت للشاعر حسان:

ها قد قتلتُ اليهوديَّ المتآمرَ الخائنَ!

انزل فخُذْ سلَبَه[1]، فإنه لم يمنعنى من ذلك إلا أنه رجل وأنا امرأة!

فقال حسان: واللَّه ما بى حاجةٌ إلى سَلَبه يا ابنة عبد المطلب!

وتُثْبِتُ صفيةُ للجميع أنها قادرةٌ على حمايةِ النساء والأطفال بعد أن تقاعَس من حضر من الرجال!

إنها أول امرأة تقتل رجلا من صُفُوفِ الأعداء راح يَكيدُ للمسلمين في خفاء[2]!

ولقد أعطت الشاعرَ درسًا لا يُنْسى فقد كان إلى جانب حماستها شاعرة مُجيدةً ومما يروى لها في الحماسة:

ألا مَن مُبْلغٌ عَنَى قريشًا ... ففيمَ الأمرُ فينا والإمار

لنا السَّلَفُ المقدّمُ قد علمتم ... ولم توقد لنا بالغَدْر نارُ

وكل مناقِب الأخيارِ فينا ... وبعضُ الأمر مَنْقَصَةٌ وعارُ

توفيت صفيةُ في سنة عشرين من الهجرة النبوية.

ودفنت بالبقيع، ولها بضع وسبعون سنة.

يرحمها اللَّه كانت من المسارعين إلى الإسلام.

فعن عائشة قالت: ... لما نزلت: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: 214].

(1) السَّلب: ما على القتيل من سلاح، وما يحمله من مال. وفي الإسلام «من قتل قتيلا فله سَلَبُه».

(2) الطبقات: السيرة (3/ 229).

قام النبى ﷺ فقال: «يا فاطمةُ بنتُ محمد، يا صفية بنت عبد المطلب، يابنى عبد المطلب، لا أملكُ لكم من اللَّهِ شيئا، سلونى من مالى ما شئتم»[1]

وحين لقى الرسول ﷺ ربه قالت تندبه:

عَـيْنْ جُـودِى بدمعهٍ وسُهودِ ... وانْـدُبـى خيرَ هالكِ مَفْقُودِ[2]
واندُبى المصطفى بِحُزْنِ شديد ... خالط القلبَ فهو كالْمَعْمُودِ
كِـدتُ أقـضِى الحـيـاةَ لما أتـاهُ ... قـدَرٌ خُـطَّ في كـتـابٍ مجيدِ
فلقد كـان بـالـعـبـادِ رءوفَـا ... لهـم رحمـةَ وخـيرَ رشـيـد
رضىَ الله عـنـه حـيَـا ومَـيْـتَـا ... وجـزاهُ الجِـنـانَ يـومَ الخـلـودِ

صلى اللَّه عليه وسلم، ورضى عنها!

لقد كانت نموذجا فريدا لقوة الإيمان والصبر، والشجاعة!

(1) الترمذى (9/ 191) مع خلاف يسير.

(2) سهود: تريد سهادًا. ولم تذكره المعاجم.

الفهرس

مع الفاروق عمر بن الخطاب	3
أبو عبيدة بن الجراح - أمين الأمة	14
أبو أيوب الأنصارى	24
الحُباب بن المُنْذِر	30
معاذ بن جبل	34
ثابت بن قيس	38
حنظلة بن الراهب الأنصارى	44
بشير بن سعد الأنصارى	49
السيدة فاطمة الزهراء	54
أم سلمة	62
ذو النورَيْن عثمانُ بنُ عفانَ	67
عبد الله بن جحش	75
المجَدّع في الله	75
عبد اللهِ بن رواحة	83
عبد الله بن سلام	89
سالم مولي أبي حذيفة	95
عبد الله بن حذافة السهمي!	97
عبد الله بن عبد الله بن أُبَيِّ بن سلول	101
النَجَاشِي ملك الحبشة	104
أم حكيم زوج عكرِمة بن أبى جهل	114
رملة بنت أبى سفيان	117
أسد الله الغالب	121
الزُّبَيْرُ بن العوّام	128
حمزة بن عبد المطلب	133
خالد بن الوليد «سيف الله المسلول»	141
أم أيمن - بركة الحبشية	147
المقدادُ بنَ عمرو	150

الرُّميصاء أم سُليم	155
طلحة بنَ عبيد الله	158
أسامة بن زيد	165
سعد بن مُعاذ	171
عبد الله بن عباس	183
أبو هريرة الدَّوْسِيّ	187
أبو ذر الغفارى	191
أبو خيثمة	196
سعيد بن عامر	199
ضمام بن ثعلبة السعدى ذو العقيصتين	204
نُعَيْمُ بنُ مسعودٍ الغَطفانِيّ	208
كعب بن مالك	214
حاطب بن أبى بلتعة	225
وحْشيّ الحَبَشيّ	231
أبو بكر الصديق	237
عبد الرحمن بن عوف الغنى الشاكر	246
خَبَّابُ بن الأرَت	252
سلمان ابن الإسلام	259
صهيب سابق الروم	269
بلالُ بنرباح سابق الحبشة	273
سراقة بن مالك	284
أبو جندل	287
أسماء ذات النطاقين	291
صفية بنت عبد المطلب	297